المؤرخ المصرى

دراسات وبحوث فى التاريخ والحضارة



الأبحاث والدراسات :

يصدرها قسم التاريخ

كلية الآداب - جامعة القاهرة

العدد الثامن عشر يوليو ١٩٩٧

جامعة القاهرة

كلية الآداب

يصدرها قسم التاريخ

المؤرخ المصري

دراسات وبحوث تاريخية محكمة

العدد الثامن عشر

يوليو ١٩٩٧

الأبحاث والدراسات :

قواعد النشر

• ترحب المؤرخ المصرى بنشر الأبحاث والدراسات الأصيلة ذات المستوى الأكاديمى الجاد بعد التحكيم ، فضلاً عن مراجعات وعرض الكتب الجديدة .

• تقبل المؤرخ المصرى للنشر الأبحاث التاريخية والحضارية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية على ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن ٣٠ صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة على ورق حجم كوارتر بما فى ذلك الهوامش والجداول وقائمة المراجع .

• المؤرخ المصرى لا تنشر بحوثًا سبق أن نشرت أو معروضة للنشر فى مكان آخر ، وتقوم رئاسة التحرير بإخطار المؤلفين بإجازة بحوثهم للنشر بعد عرضها على هيئة التحكيم .

• تحتفظ المؤرخ المصرى لنفسها بحق القبول أو رفض الأبحاث أيا كان قرار هيئة التحكيم .

• النشر فى المؤرخ المصرى متاح لأعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية والعربية والأجنبية وسائر المهتمين بالدراسات التاريخية .

• الآراء الواردة بالمؤرخ المصرى تعبر عن وجهة نظر أصحابها .

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية العدد

يطيب لى أن أقدم العدد التاسع عشر من المؤرخ المصرى الذى يضم عددًا من الدراسات والبحوث فى مختلف المراحل التاريخية ، ولا شك فى أن المؤرخ المصرى قد أفسحت الطريق أمام جيل الباحثين الشبان وأتاحت لهم فرصة نشر أبحاثهم ، كما أتاحت الفرصة أيضًا لعرض آراء ودراسات جيل الرواد من المؤرخين وذلك حتى تتواصل الأجيال وتعم الفائدة وتزداد .

وإذا كانت المؤرخ المصرى قد وصلت إلى ما وصلت إليه من مكانة فى الأوساط العلمية وأصبح الباحثون يسعون إليها من داخل مصر وخارجها فإنما يعود ذلك إلى طبيعة العمل الجماعى الذى تعمل به حيث الجهد المبذول من رئيس وهيئة تحريرها وكذلك من السادة الفاحصين ، فالجميع يعمل من أجل رفعة ورقى مستوى هذه المجلة التى هى مرآة صادقة للنشاط العلمى لأقدم أقسام التاريخ فى الجامعات المصرية ألا وهو قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة القاهرة .

وأنى انتهز هذه الفرصة لأحىّ الزميل الأستاذ الدكتور / سيد أحمد على الناصرى الذى تولى رئاسة تحرير المؤرخ المصرى فى الفترة السابقة وتحمل مشقة وعبء الإشراف عليها فله من الجميع خالص الشكر .

وندعو الله العلى القدير أن يمدنا بعونه وقدرته لنكمل مسيرة العمل فى خدمة العلم .

والله ولى التوفيق ،،،

رئيس التحرير

أ. د. حامد زيان غانم

البحوث والدراسات

بعض الملاحظات حول
"مسار نظام الحكم فى سلطنة المماليك البحرية "(*)

أ. د. حياة ناصر الحجى
كلية الآداب - جامعة الكويت

البعض يتبع قانون الله وينجح . والبعض يتبع قانون الناس فلا ينجح . والبعض يتبع قانون الضمير فإما أن يصبح مجنونًا . أو يصبح أسطورة

حياة الحجى

السلطة بالمفهوم الحديث هى الحاكم ونظام حكم ، وقد مرت السلطة - بهذا المفهوم - فى التاريخ الإسلامى بمراحل متفاوتة من المثالية والتراجع، كما ارتبطت ارتباطًا طرديًا مع الوعى السياسى .

وإذا سلمنا بأن هناك تقدير عام لمشاكل المجتمع الإسلامى السياسية فى القرون المتأخرة، فماذا عن الوعى الشعبى نحو السلطة فى العصور المتقدمة؟

لم يعش إنسان العصور الإسلامية الأولى أية أزمات دستورية ، إذ كانت نصوص القرآن الكريم هى المواد الدستورية التى تقيد بها الحكم والمجتمع آنذاك ، ولكن البعد عن هذه النصوص أوجد منفذًا لحدوث تناقض بين الفكر والتطبيق ، فانبرى علماء الفكر الإسلامى للعمل على تحديد المبادئ الفكرية الدستورية اللازمة لإقامة حكم ترتضيه الشعوب الإسلامية ، وكان على رأس هذه المبادئ العدل فى الداخل والأمان فى الخارج ،

(*) ألقيت هذه المحاضرة يوم ١٩٩٧/٦/٢ لطلاب الدراسات العليا قسم التاريخ كلية الآداب - جامعة القاهرة .

ويؤكد ابن المقفع أن السلطة التى تقوم على المبادئ الدينية تحصد الرضا الجماعى . فهل يعنى هذا أن السلطة القائمة على المبادئ الإنسانية ولت وانتهى أمرها ، واستدعى الوضع فى القرن الثانى للهجرة (الثامن الميلادى) دعوة كبار المفكرين لضرورة العودة إلى هذه القواعد ؟

إن السلطة بجوهر معانيها الإنسانية تتجلى فى العدل والصدق والإحسان ونكران الذات ، وهو ما يسميه ابن المقفع السلطة الدينية التى تحقق رضا الشعب وتنزل السخط منهم منزلة الراضى فى الإقرار والتسليم ، وهنا تظهر مسألة فى غاية الأهمية ، وهى رضا الشعب ، فيقول ابن قتيبة إنه لا ينبغى للوالى أن يرغب فى الكرامة التى ينالها من العامة كرها ... ولقد بدأ التراجع عن أسس السلطة العادلة يظهر بوضوح فى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى مما استوجب الدعوة والعمل للتفكر مرة أخرى فى هذه المبادئ من أجل صالح الأمة ، وتحصين بلاد الإسلام بالعدل والسلام ... ولقد بدأ تكالب أصحاب السلطة على تحقيق المنافع الشخصية واضحًا ، وأصبح البحث عمن ينكر الذات ويخدم العباد يشغل أهل الحكم .

وكانت الشورى فى بدء الحكم الإسلامى هى المحور الأساسى الذى انبثقت منه القرارات الجماعية ، وقد كان أصحاب الرأى الراجح علمًا وتجربة هم ركيزة الشورى ، ثم أصبحت واجب الفقهاء يسدون بها نصيحة واستنارة لأولى الحكم ، ومع اتساع الدولة الإسلامية وطغيان الماديات عزف أولئك الفقهاء عن مجالس الحكم ، وأنيطت المهمة بالقضاة ليلعبوا دور النصحاء فى الشورى والإفتاء ، وكانت إناطة الوظيفة بهم بين قبول ورفض منهم ، وبين إقناع وعزل من الحاكم .

ومع تلاشى طابع الشورى تضاءلت قوة السلطة المركزية ، وظهرت السلطنات الصغرى شرقًا وغربًا ، واقتصر حكم الخليفة العباسى على بغداد وما حولها دون ولايات الشرق والغرب ، فكان هذا الضعف الداخلى عاملاً رئيسيًا فى ظهور الخطر الصليبى ، ونجاحه فى إقامة الممالك اللاتينية فى الساحل السورى . وتحول دور الفقهاء والقضاة من إسداء النصح للحكام إلى بث الوعى بين صفوف الأمة الإسلامية . وهنا حاول بعض من بيدهم شئ من السلطة إيجاد نظم توفر قدرًا أكبر من الحرية والأمان . ولكن السؤال هنا هل حققت هذه الدويلات التى شغلت مساحات واسعة من الدولة العربية الإسلامية تلك الأهداف المأمولة أم أنها كانت مجرد تنظيمات سياسية لتحقيق الإستقلالية الاقتصادية ، وبالتالى ضمان المنفعة الخاصة ؟ وهل حصد الفرد العادى فى هذه المجتمعات المستقلة على آماله فى الحرية والأمان ؟ لم يتغير وضع الإنسان المسلم فى هذه المجتمعات الجديدة على الرغم من تغير جنسية الحاكم، وبدأت مرحلة جديدة من حكم الأجانب عرقًا المسلمين عقيدة ، ولم يشعر الإنسان العادى بهذا الفرق العرقى حيث كانت الرابطة الأساسية بين تلك الشعوب المحكومة هى الإسلام . بل كانت هذه الرابطة العقائدية هى التى تصدت للعدوان الصليبى وقد رفع راياتها الأكراد والترك وغيرهم من الأعراق غير العربية . وكان تطابق فلسفة السلطة مع مبادئ العقيدة كبيرًا مع تلك المواجهات ، ولكن النزعة الإنسانية نحو المنفعة الخاصة كانت باقية أزلاً ، وتعمقت مع استمرار حكم الأجنبى ، وقد حاول الأجانب المسلمون صرف نظر الفرد العادى عنها بأمرين أساسيين فى إطار الحكم الإسلامى وهما : الشرعية والشعبية . وقد تحققت الشرعية مع الحرص على تواجد الخليفة العباسى فى جميع الاحتفالات الرسمية والشعبية ، وإن كان طيلة تلك القرون لا يملك من أمر نفسه شيئًا . أما الشعبية فقد تجلت فى أمرين رئيسيين

هما : إقامة المنشأت العامة والمؤسسات العلميـة والاجتماعيـة ، وتـرك جميع الوظائف فى دواوين الدولة لأبناء الشعب المحكوم المسلم منهـم والذمـى علـى حد سواء . ولكن هل يكفى هذا الإطار المادى لقبـول فكـرة إن حكـم الأجنبـى المسلم يحقق للشعب الحرية والأمـان . قـد يكـون الوضـع مقنعًـا لعامـة النـاس ولكن ماذا عن العلماء والقضاة والفقهـاء هل حقق ذلـك الوضـــع الاجتمـاعى قبـولاً لديهم ؟ من الصعب التأكد من تلك القناعة ، ويظهر إن الحكام الأجانب المسلمين أدركوا أن ذلك كلـه ليس كافيًـا ولابـد مـن إيجـاد جسـر يجعـل تلـك الطبقـة المفكرة تتقبل مسكهـم لزمـــام السلطــة فـى البـــلاد وكـان المخـــرج هـو نظام الشورى وأخذ رأيهم فيما يعن لرجال أصحاب السلطة أن من البلاء أن يكون الرأى لمن يملكه دون من يبصره .

إلا أن تلك الشورى لم تكن أبدًا وسيلة للحكم فكثـيرًا مـا كـان السـلطان يعزل القاضى قبل أن يقدم على تنفيـذ قـرار شـخصـى لـه . كمـا إن القـاضـى يجـد نفســه أحيانًـا مضطـرًا إلـى عـزل نفسـه عنـدما يطلـب منـه السـلطان الموافقـة علـى أمـر يتعـارض مـع مصلحـة الشـعب ، ويـرى فيـه اسـتغلاله لمكانته ووضعه الاجتماعى .

لقـد كـان القضــاء دائمًـا هـو ضـمير الأمـة ، ومـن هنـا كـانت الرابطـة الوثيقـة بين القضاء والشعب ، فقد كانوا بالنسبة لهم ضمـير الأمـة ولسـانها . لقد كان القضاء دائمًا وأبدًا مسئولية شاقة لارتباطهـا بالسـلطة فـلا قيمـة لـرأى دون تنفيذ . لقد اجتهد القضاة دائمًا لنصرة الحق ولكـن الجهـاد نـادرًا مـا كلـل بالنجاح ، ولذا كانت فرصة الظلم فى ظل هيمنـة الأجـانب المسـلمين كبـيرة . وقـد يكون التعميـم هنـا جائـزًا إذ لا بـد مـن التنويـة بـأن بعـض الروابـط الطيبة نشـأت بين بعض هؤلاء الحكام والعامة ، ولكن ذلـك الوضـع سـرعان

ما يتلاشى مع نهاية حكم ذلك السلطان وتلاعب القائمين على السلطة بما كانت توفره لهم من امتيازات وصلاحيات .

ويظهر التلازم منطقيًا بين العلاقة المباشرة بين الحاكم والمحكوم وبين توفر مبدأ العدالة فكلما كان الحاكم متواجدًا دون حجاب كانت صلة شعبة به أوثق ، ولكن تلك الأستار بدأت تنسدل ، والأسوار ترتفع حتى وصل الأمر إلى إقامة الحكام فى قلعة ذات أسوار عالية وبوابات حديدية يستعصى دخولها دون قوة . وقلت لقاءات الحاكم بالشعب ، وحددت فى أيام الرخاء فى مواعيد محددة كان الاستمرا فى حفظها نادرًا . وأصبح التعبير فى المناداة بالحرية والأمان رمزيًا ، وأصبح جل هم العامى الحصول على قوت يومه وفرش ليله، وضاع القول الحق المنادى بمبادئ عصر الخلافة الراشدة . وبات التسلط سيفًا مسلطًا على رقاب الناس ، وخفتت مصابيح العلم واقتصر على شئون الدين .

ومع انحسار مبدأ العدالة تلاشت هيمنة الملك . ويظهر ثالوث القوة والبذل والعدالة حتمى التلازم مع تراجع مظلة الحرية . لقد كتب أرسطو طاليس إلى الإسكندر : " إن الرعية إذا قدرت على أن تقول قدرت على أن تفعل " . وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه : " يا أبت ما السياسة ؟ قال : هيبة الخاصة مع صدق مودتها ، واقتياد قلوب العامة بالإنصاف لها ، واحتمال هفوات الصنائع " . وقال بعض الحكماء : أسوس الناس لرعيته ، من قاد أبدانها بقلوبها ، وقلوبها بخواطرها ، وخواطرها بأسبابها من الرغبة والرهبة.

ومع تراجع مبدأ العدالة زاد ارتفاع الحواجز بين الحاكم والمحكومين ، واتسعت فجوة القطيعة بين ضمير الأمة وسيافها . ويظهر التلازم ضروريًا بين الحرية والعدالة حيث تبدو الحرية على الرغم من أهميتها الأساسية بل

الحياتية لا قيمة لها من انتقاء مبدأ العدالة . بل تظهر الحرية أرضًا خصبة للظلم إذا لم يكن هناك من يتصدى لتطبيق مبدأ العدالة . ولذا يكون من السهل كثيرًا سيادة الاضطهاد فى زمن الحرية مع غياب نصراء الحق ، بل تصبح عديمة الجدوى لمن يقاسمون الظلم دون هوادة على أيدى الجبابرة لأن الأقوى لا يزال بالأضعف الذى لا ينفعه دليله فى ظل هيمنة الظلم وتراجع العدالة .

قال بعض الحكماء : " على الملوك أن لا يتركوا محسنًا ولا مسيئًا ما دون جزاء ، فإنهم إذا تركوا ذلك تهاون المحسن ، واجترأ المسئ ، وفسد الأمر ، وبطل العمل " ، وقال عمرو بن العاص : " لا سلطان إلا بالرجال ، ولا رجال إلا بمال ، ولا مال إلا بعمارة ، ولا عمارة إلا بعدل " .

ومن ثم نصل إلى جوهر المشكلة وهى مسألة السلطة ... ما هيتها وما يجب أن تكون . يتضح من التاريخ الإسلامى العربى أن الاستقرار الشامل فى المجتمع ما هو إلا نتيجة طبيعية للعلاقة بين الفكر والسلطة ، فعندما كان الفكر منسجمًا مع ما جاء فى القرآن الكريم ، وكانت السلطة تقوم على تلك المبادئ الأزلية كانت الأوضاع مستقرة إلى أقصى درجات الاستقرار الذى يعبر عنه القول : " يا عمر عدلت فأمنت فنمت " . ولكن الانسجام لم يستمر طويلاً ، وتغير بطغيان المادة التى وفرتها الفتوحات الإسلامية . وارتفعت أسوار قصور الحكام ، وتواضعت دور الفقهاء والعلماء والقضاة ويجب الإشارة هنا إلى أن التعميم فى هذا الوضع ليس جائزًا ، ولكن هناك من الحكام من حاول اجتياز تلك الأسوار ، والتقرب إلى أولئك المفكرين الذين نادوا بضرورة أن يتبع الحاكم مبادئ العدل والمساواة والإحسان ، ولكنهم كانوا قلة ندرت مع مرور الزمن . ومن ثم كان الوضع عبارة عن سلاطين ينعمون بكل شئ ، وقلة مفكرة معدومة الحيلة ، وغالبية جاهلة يشغلها قوت يومها أكثر من أى أمر آخر .

لقد انحرفت السلطة عن مواد الدستور الربانى ، وانغمست فى ملذات الدنيا ، ثم استخدمت دعاة الفكر لدعم شرعيتها الموهومة . وقد يتقبل الإنسان انحراف السلطة لأمر أو لآخر ، ولكن من الصعب عليه كثيرًا أن يتقبل مساندة المفكرين للباطل ، فمن المستحيل أن نقبل القول بأن المفكر لا يرى الحقيقة ، أو أنه يجهلها إذ إن علمه يجعله مسئولاً عن رفض هذا الباطل ، بل العمل على بتر الفساد . كما إن تجاهله لهذا الباطل ، وتأييده له أحيانًا لسبب ما يؤدى إلى طغيان الظلم ، وغياب عناصر الحكم المستقر . ومن الصعب كثيرًا أن يتقبل العقل العربى مقولة : " إن تطبيق العدالة مطلبًا مستحيلاً " لأنها تحققت فى المجتمع الإسلامى فى المدينة المنورة بعد الهجرة النبوية . وكذلك هو الحال مع المساواة والأحسان . والمشكلة فى واقع المجتمع الإسلامى ليست فى التشريع ولكن فى التطبيق .

ولعل من العوامل التى تدعو للتفاؤل فى سبيل إيجاد الحل المناسب لأزمة ظلم السلطة ما يتوفر فى الدين الإسلامى والتجارب التاريخية من معطيات تعد بحق دعائم يمكن الاعتماد عليها فى إيجاد مجتمع متكامل فكريا. لقد كان نظام الشورى عماد الخلافة الراشدة . أما العدل وهو أساس الملك فهو مطلب أساس فى حياة الإنسان تؤكد كتابات المؤرخين لعصر سلطنة المماليك استقرار الأوضاع الساسية طيلة القرن تقريبا من تاريخها ، حيث تعاقب عدد من السلاطين الأقوياء الجلوس على كرسى الحكم ابتداء بسيف الدين قطز وانتهاء بالناصر محمد بن قلاون . ومع نهاية هذه الحقبة الأولى التى شهدت مراحل التأسيس ، ومظاهر النضج الحضارى ، بدأ الإنهيار يدب فى مركز الحكم لأسباب عديدة يكشف موضوع هذا الكتاب عن الكثير منه ، ويأتى على رأسها عدم وجود نظام واضح للحكم ، مع الإهمال الواضح لكل

ما جاء فى الشريعة الإسلامية من قواعد الحكم الأساسية وهي : الشورى ، والعدل ، وغيرها من مبادئ الدين الأسلامى الحنيف . كذلك كان تنازع الأمراء على مسك زمام السلطة فى دولة المماليك من أهم الأسباب التى قوضت دعائم هذة السلطنة . وقد بلغ من تنافس هؤلاء الأمراء على السلطنة أن بعضهم عندمالا يجد الأوضاع ملائمة لأطماعه فى الحكم والتدبير ، يجتهد فى العمل على اختيار سلطان آخر يجلس على كرسى الحكم من مجموع الأمراء الصغار المرشحين للحكم من بيت قلاون مثلا . ويحدث أحيانا أن الاختيار يقع على أخ السلطان الجالس على كرسى الحكم آنذاك ، وهنا يبدأ النزاع بين الأخوين المتنافسين فى سبيل الفوز بالسلطنة ، ويقف وراء كل سلطان جماعتة الساعية إلى السيطرة على الأمور حتى يتم النصر لأحدهما ، فيجلس على كرسى الحكم ، ويستحوذ مؤيديه على مقاليد السلطنة ، أما السطان المهزوم وأتباعه فعقوبتهم إما السجن أو القتل . كذلك يلاحظ أن السلطان الجديد الذى وقع عليه الاختيار لا يملك طوال فترة حكمة من الأمر شيئا ، ولا يكون له من السلطنة سوى الاسم فقط . كما نجم عن كثرة وقوع الفتن نتيجة رغبات الفئات المختلفة من الأمراء فى الوصول إلى السلطنة سنة ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م مع ضعف السلطان الجالس على كرسى الحكم أن ساد المجتمع المصرى آنذاك عدم الأمان والاستقرار ، مما أدى إلى تعرض بيوت الأغنياء للنهب المسلح ، وعانى المتجولون من حوادث السلب ، كما تعرضت النساء للاغتصاب ، حتى لم يعد أحد يأمن على نفسه عند السير فى الطرقات، فلم يجد من بيدهم زمام الأمور بدا من التحرك لوضع حد لتلك الأعمال المخلة بالأمن والاستقرار . وتم القبض على الأمر اء المتهمين فى هذه التصرفات حيث سجن بعضهم ، ونفى البعض الآخر خارج البلاد .

والسؤال الذى يجب طرحه هنا هو : ما سبب إصرار كبار الأمراء المماليك على اختيار سلطان جديد من بين أولاد وأحفاد الناصر محمد بن قلاون بعد وفاته ، مع أن هؤلاء السلاطين كانوا صغار السن وتنقصهم الخبرة بأمور الحكم ، وشئون الإدارة ، وكان الوضع ينتهى دائما - بعد فساد الحال- إلى عزل هذا السلطان القلاونى أو قتله ، ثم العمل حثيثا على تعيين آخر من أبناء أسرته ؟ بعد دراسة الأوضاع المختلفة والملابسات المتداخلة فى أحوال سلطنة المماليك خلال هذه الحقبة المضطربة من تاريخها نجد أن كبار الأمراء كانوا جميعا على قدم المساواة من القوة ، والمكانة ، والنفوذ ومن ثم فإن محاولة أحدهم الجلوس على كرسى الحكم فى السلطنة كانت لابد أن تبوء بالفشل لعدم تميزه عن أقرانه . وعلى ذلك فإن الوضع الأنسب؛ هو تعيين سلطان من أسرة قلاون ، التى تتمتع بشرعية الحكم ، بينما يقنع بقية الأمراء بما لديهم من صلاحيات واسعة فى شئون السلطة والإدارة من خلال تولى المناصب العليا فى الدولة . وبهذا يكون كبار الأمراء قد ضمنوا لأنفسهم كل اسباب المنافع الشخصية دون أن يتجشموا مشقة النزاع المسلح فيما بينهم، أو يواجهوا مالاتحمد عقباه من نتائج مختلفة .

ومن أجل أن يتفادى كبار الأمراء عدم توفر الخبرة فى أمور الحكم والإدارة لدى هؤلاء السلاطين الصغار فقد استحدثوا منهجا جديدا هو : " أمراء المشورة والتدبير" حيث يكون تسعة أو عشرة على الأكثر من كبار الأمراء ، مجلسا للشورى ، يقدم للسلطان الرأى الأصوب ، والقرار الأنفع فى مختلف مسائل الحكم والإدارة ، وبذلك يمكن القيام بمسئوليات السلطنة وفق قرارات جماعية تهدف إلى خدمة المصلحة العامة للبلاد . ويبدو من مجريات الحوادث أن دور " أمراء المشورة والتدبير " كان كثيرا عند بداية حكم أى

سلطان من هؤلاء السلاطين ، ما أن يكون السلطان لنفسه عصبة من الأتباع والأصدقاء ، حتى يبدأ فى الإنفراد بالرأى دون الرجوع إلى " أمراء المشورة والتدبير " . ولعل هذا هو السبب وراء القرارات السليمة التى تتصدر المراسيم السلطانية عند بداية جلوس سلطان جديد على كرسى الحكم ، سواء ما يختص بتوفير المصاريف ، أو استعادة الأموال والهدايا من الخدام ، والمغنيات ، وضاربى العود ، والمحظيات ، من منتفعى العهد السابق أو قطع مخصصات البيوت والإسطبلات السلطنية والأميرية ، أو إبطال العمائر فى دور السلطان وغير ذلك من منافذ الصرف الزائد فى القلعة من موارد الدولة، وخزنية بيت المال .

من المؤكد أن هذا التقليد الجديد فى نظام الحكم قد تضمن آثارًا ايجابية تتمثل فى اتخاذ القرارات السليمة المشتركة التى تخدم المصلحة العامة للرعية والبلاد . ولكن نتج عن هذا الوضع أيضا من جانب أجر حصول " أمراء المشورة والتدبير" على صلاحيات واسعة فى أمور الحكم ، وشئون الإدارة ، الأمر الذى أتاح لهم فرص كبيرة فى تحقيق المنافع الشخصية إذا رغبوا فى ذلك ، وهنا تبرز ظاهرة توزيع السلطات ، واقتسام الخيرات بين هؤلاء. ومع ذلك استقر الوضع فى سلطنة المماليك على أن تتخذ جميع القرارات الأحكام فى مجلس الشورى أو بالأحرى بالتداول بين "أمراء المشورة والتدبير " . وفى أغلب الآحيان يتفق هؤلاء الامراء على أن تعرض جميع القضايا بين يدى السلطان ، ويتم اتخاذ القرارات النهائية بشأنها بمقتضى علمهم ، وحسب اختيارهم ، فتمضى الآمور على ذلك ، ولايشاركهم أحد فى شئ من احوال الدولة . وعلى الرغم من أن هذا المنهج فى نظام الحكم يتضمن عنصر الشورى الذى يعتبر من أهم اسباب الحكم العادل ، الا أن الأهداف التى

انطوى عليها هذا الوضع تضفى علية طابعا سيئا ، خاصة مع ما تمخض عنة من أفعال مجحفة فى حق المجتمع إبان هذة الحقبة من تاريخ سلطنة المماليك. وحرصا من كبار الأمراء على أن يحقق السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاون قدرا ولو قليلا من التعاون الإيجابى فى أمور الحكم وشئون البلاد ، فإنهم اجتهدوا فى العمل على عدم وصول المال الوفير إلى يدية ، سواء من إيرادات بيت المال ، أو من خزانة الخاص السلطانى ، وأن يبت فى المسائل المالية فى مجلس المشورة ، وتكون القرارات حسب الرأى الجماعى للسلطان وأمراء المجلس .

ومن ناحية أخرى قد يكون تنافس " أمراء المشورة والتدبير " على مزيد من النفوذ والصلاحيات هو السبب الذى جعل بعض كبار الأمراء ، نواب السلطنة ، الذين تميزوا بالنزاهة ، والعفة ، يعزفون عن منصب نيابة السلطنة ، فقدطلب الأميرالحاج آل ملك الإعفاء من نيابة السلطنة عندما جلس السلطان شعبان بن الناصر محمد بن قلاون على كرسى الحكم . كما طلب الأمير أرقطاى نائب السلطنة فى عهد الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاون الإعفاء من النيابة ، وأنه يقبل نيابة اى إقليم أخر بعيدا عن مركز الحكم .

ويبدو أن عزوف بعض نواب السلطنة عن هذا المنصب الكبير سببه الوضع غير الطبيعى فى نظام الحكم فى سلطنة المماليك ، خاصة عندما يجد نائب السلطة نفسة محتارا بين سلطان صغير السن ، غير قادر على اتخاذ القرار السليم فى أمور البلاد ، وبين أمراء أقوياء لا يجدون حرجا فى استغلال الصلاحيات المتاحة لهم من اجل تحقيق مصالحهم الخاصة . ومن ثم فإن قناعات هؤلاء النواب بعدم قدرتهم على خلق الانسجام الإدارى اللازم

بين السلطان وكبار الأمراء ، تجعلهم يؤثرون السلامة لأنفسهم بالابتعاد عن ميدان الحكم ، والنزاع على السلطات ومراكز النفوذ .

وتؤكد حوادث التعيين والخلع التى مارسها كبار الأمراء أصحاب السلطة مع هؤلاء السلاطين الصغارعدم وجود التخطيط المدروس لمسار نظام الحكم، وزاد الأمر سوء غياب مبادئ الإتقان ، والعدالة ،والأمانة ، فى علاقات وأعمال هؤلاء المتنفذين فى تدبير شئون الدولة فيذكر المقريزى : " فاتفق خلع الصالح فى أقل من ساعة وسجنة ، وولاية أخية حسن السلطنة عوضة" . وهكذا كانت القرارات الحاسمة فى منهج الحكم وأسسة تتخذ فى سرعة وآنية دون دراسة ، او تخطيط ، وكأنها ردود فعل فورية لأوضاع طارئة تتطلب العلاج السريع ، بغض النظر عن نتائجها القريبة والبعيدة على مجريات الأمور فى مركز الحكم ودواوين الدولة . وفى بعض الأحيان يتم عزل السلطان قبل استقرار الرأى على من يتولى مكانة ، وهنا تظهر مسألة " الاختيار الفجائى " حيث يقوم الأمراء أصحاب القرار باستعراض الشخصيات الموجودة التى يمكن اختيار السلطان من بينها ، فيتم استبعاد الأقوياء من أولئك المرشحين لتولى السلطنة ، كما يستبعد أولاد السلطان المخلوع خشية إقدامهم على الانتقام ممن خلع والدهم ، ويفضل اختيار شخصية لا تملك من القوة والخبرة شيئا ، مما يبين بوضوح عدم وجود دستور ينظم منهج الحكم فى سلطنة المماليك إبان هذه الحقبة من تاريخها .

ومما يستوجب الذاكر فى هذا المجال أنه فى سنة ٧٧٥ هـ / ١٣٧٤م فوض السلطان الأشرف شعبان الأمير منجك صلاحيات مطلقة شملت نيابة السلطنة ، ونظر الخاص السلطانى ، والوزارة ، ونظر الأحباس والأوقاف ، مع الحرية الكاملة فى اتخاذ ما يراه من قرارات لكافة شئون أقاليم السلطنة .

الأمر الذى يدعو للتساؤل لماذا ؟ هل هدف السلطان من هذا التفويض الشامل لشئون الدولة للأمير منجك إراحة نفسة من متاعب الحكم ؟ أم الأمر كان مجرد مكافأة للأمير منجك على مواقفة الإيجابية ، وهداياه الثمينة للسلطان عندما كان نائبا لبلاد الشام قبل صدور هذا القرار ؟ أم هى الثقة الكبيرة فى شخص الأمير منجك وإخلاصه ؟. ومن الأعمال الحسنة التى عملها الأمير منجك أنه فى سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م عندما اشتد الغلاء انتدب " نائب السلطان لتفرقة الفقراء على الأمراء ، فجمع أهل الحجةوالمسكنة ، وبحث إلى كل أمير من أمراء الألوف مائة فقير ، وإلى من عدا أمراء الألوف على قدر حالة ، وفرق على الدواوين والتجار وأرباب الأموال كل واحد عددا من الفقراء . ثم نودي فى القاهرة ومصر بأن لا يتصدق أحد على حرفوش ، وأى حرفوش شحذصلب ، فأوى كل أحد فقراءه فى مكان ، وقام لهم من الغذاء بما يسد رمقهم على قدر همته ، وسماح نفسه ، ومنعهم من التطواف لسؤال الناس " . ولا شك أن هذه الخطوة مع ما فيها من تعبير عن الإحساس بالمسئولية ، إلا أنها تعطى مثالا واضحا عن الفوارق المادية بين طبقات المجتمع ، فاختص الأمراء المماليك بالثروات ، وهنأ الأغنياء بيسر العيش ، وعانى الفقراء بؤس الجوع .

بالإضافة إلى ذلك ساد هذا العهد المتأخر من حكم السلاطين المماليك البحرية طابع عدم الاستقرار ن مع تزايد المؤامرات السياسية التى دأب الأمراء على تنفيذها من أجل مزيد من السلطة والنفوذ ، ولهذا كانت فترات حكم سلاطين هذا العهد قصيرة ، مع افتقارها لعوامل البناء ، والأمان ، والرخاء . وقد كثرت أثناء هذه الحقبة ممارسات كبار الأمراء من أجل مزيد من التحكم فى السلطان ، وما يتخذه من قرارات ، حتى لا يكاد أن يبت فى

أمر دون ضغط ، او تدخل من قبل هؤلاء الأمراء . فإذا كبر هذا السلطان وزاد وعية وإدراكه ، وأراد أن ينفرد برأيه في اتخاذ ما يراه من قرارات عمل أولئك الأمراء على التخلص منه إما بالعزل ، أو بالقتل . كما وصلت الرغبة في الاستبداد بالحكم عند بعض الأمراء إلى درجة أنهم فكروا في إبعاد سلالة قلاون عن السلطنة ، وتعيين سلطان جديد لا علاقة له بأسره قلاون واستقر رأيهم على اختيار الخليفة العباسى سلطانا للبلاد ، ولكن الخليفة المتوكل على الله ، الذى كان يدرك تماما نوايا هؤلاء الأمراء ، وطمعهم في السلطة رفض أن يكون سلطانا لدولة المماليك . ولعل الخليفة في موقفة الرافض هذا لتولى زمام الحكم فى سلطنة المماليك قد أراد أولا السلامة لنفسة من غدر هؤلاء المستبدين ، كما لابد أنه أدرك أن جلوسه على كرسى الحكم لن يكون له أى تأثير على واقع الحال فى مركز السلطة والمجتمع ، وإن سلطنتة لن تغدو أكثر من اسم يسك على النقد ، ويذكر فى خطبة الجمعة . وفى أغلب الأحيان كانت تصاحب عملية عزل السلطان أوقتله عمليات نهب تشمل خزانة الخاص ، وكافة المقتنيات السلطانية المحفوظة فى مختلف الأماكن ، وكل أموال بيت المال ، مما يبرهن على تلاشى الإدراك بأهمية المصلحة العامة للبلاد ، وما يمكن أن يترتب على تلك الأفعال من أعمال نهب وسلب قد تهدد أمن المجتمع واستقراره .

وقد بلغ سوء الحال ذروته مع تفكير بعض الأمراء في تحويل السلطنة إلى أحد أبناء الأمراء ، ولكن الخليفة العباسى المتوكل على الله رفض مبايعة الأمير أحمد بن الأمير يلبغا العمرى سلطانا . ونتيجة لهذا الرفض الحاسم تم عزل الخليفة عن منصب الخلافة سنة ٧٧٩ هـ م/١٣٧٧م . إن هذه الحادثة تبرهن بشكل واضح أن منصب السلطنة غدا ملهاة فى أيدى كبار الأمراء يجلسون علية من يريدون من الأشخاص الذين لا يملكون من أمر أنفسهم

شيئا، وبالتالى ينفرد أولئك الأمراء بممارسة صلاحيات الحكم والسلطنة دون رقيب أو حسيب . كذلك تبين هذه الواقعة أمانة الخليفة العباسى فى عدم الموافقة على هذا التلاعب فى مركز الحكم علىالرغم مما كان فية من ضعف وقلة حيلة أمام سطوة أولئك الأمراء ، ومـاتمتعوا بـه من نفوذ مـادى كبير ، وتأثير معنوى واسع . وقد دفع الخليفة العباسى ثمن أمانتة فى القول والفعل ، فعزل من منصب الخلافة مع صدور قرار بنفية إلى قوص . وتم تعيين زكريا بن إبراهيم بن محمد بن أحمد الحاكم خليفة للمسلمين . وهذا يثبت أن السلطة فى سلطنة المماليك هدفت إبان هـذه الحقبة إلى تكميم الأفـواه ، وسلب الإرادات ، وتقويض المواقف حتى يتسنى لها ممارسة كافة معطيات الحكم فى مناخ ملائم من الصمت والخنوع .

وقد انعكس هذا الوضع المتردى على بعض الأوضاع فى البلاد ، ففى بداية القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى شكلت الرتب العسكرية والإدارية أهمية كبيرة من ناحية الهيبة الأدبية ، والتأثير المعنوى ، إلا أن تيار الإنجراف وراء المنافع المادية جعل الكبار عسكريا ، وإداريا ، لا يترددون فى قبول أى وظيفة تقربهم من مراكز السلطة والنفوذ . علاوة على ذلك لم يتردد بعض كبار الأمراء فى استخدام مختلف وسائل المكر والدهاء فى سبيل الوصول إلى السلطة ، من ذلك على سبيل المثال التوضيح بأن الأمير برقوق حرص على ندب القضاة ومشايخ العلم لحل جميع الخلافات الناشبة بينه وبين كبار الأمراء وكأنه بهذا العمل يريد أن يؤكد حسن نواياه لتلك الفئة الحريصة على تطبيق الشرع الشريف ، مع إن الحوادث أثبتت أنه كان يخطط من أجل التخلص من كافة منافسية على الحكم .

وعندما يسجل التاريخ حوادث سنة ٧٨١ هـ / ١٣٨١ م يلاحظ إن سلطان دولة المماليك " لم يكن له من السلطنة سوى الاسم ، والجلوس على التخت ، وله نفقة فى كل يوم " . وقد انتهت دولة المماليك البحرية سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢ م بعزل السلطان الصالح حاجى بن الأشرف شعبان بن حسين ابن الناصر محمد بن قلاون ، وبدأت دولة المماليك الجراكسة بتول السلطان الظاهر برقوق بن آنص مقاليد الحكم فى سلطنة المماليك .

المنشأت المعمارية
للسلطانة شجر الدر بمدينة القاهرة

د. عائشة عبد العزيز التهامي
كلية آداب قنا -- جامعة جنوب الوادى

لقد لعبت المرأة على مر العصور مصر التاريخية والسياسية دورًا مهمًا ، واحتلت مكانًا بارزًا ، حيث تبوأت منزلة عالية ، وشغلت مناصب سامية ، أثبتت فيها قوة بأسها ورجاحة عقلها وبُعد نظرها وسعة إدراكها ، بداية بالملكة الفرعونية حتشبسوت ، فالملكة البطلمية كليو باترا ، ثم السلطانة الأيوبية شجر الدر(١) – والتى أجمع معظم المؤرخين على أنها تعتبر أولى سلاطين دولة المماليك البحرية ، ولكننى أميل فى الرأى مع المؤرخ ابن إياس(٢) فى أنها تُعد تاسع من تولى السلطنة بمصر من جماعة بنى أيوب ، وهى التى كانت سرية السلطان الملك الصالح بجم الدين أيوب وزوجته وأم ولده خليل ، ويذكر ابن تغرى بردى(٣) ، أنها كانت حظية عنده للغاية كما كانت بصحبته وهو ببلاد المشرق فى حياة أبيه الملك الكامل ، ثم سارت معه لما حبسه الملك الناصر داود صاحب الكرك بالكرك ، وكان معها ولدها خليل ، وقاست مع الملك الصالح تلك الأهوال والمحن ثم قدمت معه هى وابنها إلى مصر لما تسلطن .

وقد دبرت شجر الدر أمور الملكة فى حياة الملك الصالح وفى أثناء مرضه وقتاله مع الصليبيين ، وكتمت خبر موته لحين استدعاء ابنه توران شاه وسلمته مقاليد الحكم والسلطنة ، لكنه لم يدبر أموره ، وقتل وتسلطنت من بعده ، وقد اتفقوا على ولايتها لحسن سيرتها وغزير عقلها وجوده تدبيرها

وخطب لها على المنابر بمصر والقاهرة يوم الخميس ثانى صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة ، كما نقش اسمها على السكة ، وبقيت فى السلطة مدة ثلاثة أشهر وقيل ثمانين يومًا ، إلى أن خلعت نفسها مكرهة لعدم رضى الخليفة العباسى المستعصم بالله ، وقولته المشهورة لأهل مصر " إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً " . فتنازلت عن السلطنة للمعز أيبك بعد أن تزوجت منه .

هكذا فقد استطاعت هذه السلطانة العظيمة وتلك الملكة الحصيفة أن تُنقذ ملك مصر والمسلمين من أيدى الصليبيين فى تلك الفترة الحرجة من تاريخ البلاد حينما أخفت خبر موت زوجها وسيدها الملك الصالح فى شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة عند حصار الفرنج لدمياط(٤) ، وصارت توقع بخطها مثل علامة السلطان ، إلى أن علم الأمراء بموته ، وبايعوها بعد مقتل الملك المعظم تورانشاه ، وخطب لها على منابر مصر والقاهرة – بعد الدعاء للخليفة – بقول " واحفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا(٥) والدين أم خليل المستعصمية صاحبة السلطان الملك الصالح(٦) ، كما نقش اسمها على السكة(٧) بعبارة " المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين(٨) والده الملك المنصور خليل ، أم المؤمنين ، كما كان الخطباء يقولون فى الدعاء لها أيضًا " اللهم وادم سلطان الستر الرفيع(٩) والحجاب المنيع(١٠) ملكة المسلمين والده الملك الخليل " .

وبالرغم من قصر مدة تولى شجر الدر حكم مصر ، والتى لم تدم أكثر من ثمانين يومًا أى ثلاثة أشهر إلا أيامًا(١١) ، أظهرت خلالها كفاية وجدارة وحسن تدبير للأمور ، إلا أننا حينما نتكلم عن هذه السلطانة لا يعُنينا فقط برها أو أنها تسلطنت عرش مصر فى ذلك العصر ، فكلها جوانب مشرقة

فى شخصية شجر الدر ، إنما يهمنا أيضًا أن نذكر لها رعايتها للفنون واهتمامها بالعمارة فى قاهرة الأيوبيين(١٢) .

ويتجلى اهتمام شجر الدر بالعمارة فى إنشائها ضريحين ما زالا باقيين بمدينة القاهرة يشهدان بعظمة الإبداع الفنى وقمة الثراء المعمارى وبالإضافة لهذين الضريحين ، فقد أنشأت أيضًا شجر الدر حمام وبستان ودور بجهة السيدة نفيسة رضى الله عنها ، ولكن للأسف فإن المؤرخ على مبارك يذكر لنا أن هذه المجموعة قد اندثرت تمامًا ولم يبق لها وجود أو أثر فى هذه المنطقة المباركة(١٣) .

وثمة ملحوظة مهمة يجب الإشارة إليها وهى أن ظاهرة الأضرحة قد انتشرت فى العصر الأيوبى ، وبالرغم من ذلك فإن إقامة الأضرحة ليست حدثًا فى هذا العصر ، فقد سبقتها الدولة الفاطمية فى إقامة الكثير من الأضرحة التى قصرتها على آل البيت وكبار رجال الدولة من الشيعة ، لكن عندما جاءت الدولة الأيوبية رأت أن تحُول الأنظار عن أضرحة الشيعة التى كانت خارج أسوار مدينة القاهرة ، إلى أضرحة السُنة التى أصبحت داخل الأسوار الفاطمية(١٤) .

ويعد ضريح الصالح نجم الدين أيوب أول ضريح لسلطان أيوبى داخل أسوار القاهرة الفاطمية ، وقد انشأته له زوجته شجر الدر بالنحاسين (شارع المعز لدين الله الفاطمى) بجوار المدرسة الصالحية(١٥) التى كان هذا السلطان قد انشأها قبل ذلك بسبع سنوات ويطلق على هذا الضريح اسم القبة الصالحية(١٦) ، كما انشأت لنفسها ضريح ، يقع بشارع الخليفة تجاه مشهد السيدة رقية .

وثمة ملحوظة مهمة أخرى وهى أن ظاهره إلحاق المدفن ذو القبة بالمدرسة ترجع إلى العصر الأيوبى ، وأول أمثلتها المدفن ذى القبة الملحق بمدرسة الصالح نجم الدين أيوب ، وإذا تتبعنا هذه الظاهرة نجد أنها بدأت أولاً

فى سوريا عندما أسس نور الدين محمود مدرسته فى دمشق سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م وألحق بها مدفنًا لنفسه ، كما تضيف Kessler بأنــه لا يـزال هنـاك بمـدارس دمشـق وحلب سبعة عشر مدفنًا ملحقًا بها قبل عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م وهو العام الذى أدخلت فيه شجر الدر هذا الطراز إلى القاهرة فألحقت مدفن زوجها الصالح بمدرسته(١٧) .

ويذكر المقريزى(١٨) فى خططــه ، أن السـلطانة شـجر الـدر أحضـرت تابوت زوجها الصالح نجم الدين أيوب من المنصورة إلى إحدى قاعـات قلعـة الروضة – من غير أن يشعر به أحد وحُمل يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ثمان وأربعين وستمائة فنُقل مـن القلعـة إلـى تربتـه(١٩) التـى بنيت لـه بجـوار المدرسـة الصالحيـة ، وهـى القبـة المجـاورة لأيـوان الفقهـاء المالكية ، فدفن ليلة السبت ... وغلقت الأسواق بالقاهرة ومصر وعُمل عـزاء للملك الصالح بين القصرين لمدة ثلاثة أيام .

وصف ضريح وقبة الصالح نجم الدين أيوب : (أثر رقم ٣٨)

الواجهة : لوحة(١) :

تبرز واجهة هذه القبة عن سمت واجهة المدرسة الصالحية ، وهى تشبه طراز الجزء الأوسط من تلك المدرســة ، وتتميز بزخارفهـا الحجريـة الدقيقـة الحفر ، وتتكون من ثلاث دخـلات مشـعه علـى شـكل العقـود المخموسـة ذات الأربعة مراكز ، ويعلو هـذه الواجهـة شـرافات مسـننه تعتـبر مثـال للشـرافات المسننة فى العمارة الإسلامية وهى تشبه تلك التى بجامع الأقمر(٢٠) ، ويبلـغ الارتفاع حتى هذه الشرافات ١١,٣٥م ، وأسفل الواجهة من الدخلات المعقودة توجد ثلاث نوافذ بمصبعات نحاسية تعتبر ظاهرة زخرفية جديدة فـى العمـارة الإسلامية بمصر ، فهى أول نموذج للشبابيك النحاسية المصبوبة يليه المدرسة الطيبرسية بالأزهر(٢١) وأكبر هذه النوافذ وأوسعها هو أوسطها . (شكل ١)

المدخل : لوحة (٢)

تبلغ فتحة المدخل ٢,٧٦م طولاً × ١,٥٢م عرضًا ، يعلوه عتب رخامي ذو صنجات معشقة ، ويعلو هذا العتب لوحة رخامية أيضًا حُفر عليها أربعة أسطر بخط النسخ الأيوبى نصها :

١ - بسم الله الرحمن الرحيم ، والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين، هذه التربة المباركة بها ضريح مولانا السلطان الملك الصالح.

٢ - السيد العالم العادل المجاهد(٢٢) المرابط المثاغر(٢٣) نجم الدنيا والدين(٢٤) سلطان الإسلام والمسلمين(٢٥) سيد ملوك المجاهدين(٢٦) وارث الملك(٢٧) عن ابائه الأكرمين أبى الفتح .

٣ - أيوب بن السلطان الملك الكامل ناصر الدين أبى المعالى محمد بن أبى بكر بن أيوب توفى إلى رحمة الله تعالى وهو بمنزلة المنصورة تجاه الفرنج المخذولين مصافحًا للصفاح بنحره مواجهًا للكفاح .

٤ - بوجهه وصدره ، آملا ثواب الله بمرابطته واجتهاده عاملاً بقوله تعالى " وجاهدوا فى الله حق جهاده " ، أوفده الله الجنة العالية وأورده أنهارها الجارية وذلك فى ليلة النصف من شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة(٢٨).

الردهة والصحن :

يؤدى الباب الخارجى - وهو خشبى روعيت فيه البساطة مع الجمال - إلى ردهه مستطيلة مغطاة بقبو متقاطع (Cross Voult) من الآجر ، وعلى يمين الردهة نجد بابًا عليه عقد مدبب له (Pointed Arch) ، يؤدى إلى سلم

الحجرة التى كانت تعلو ردهه المدخل ، وفى مواجهة المدخل يوجد عقد على شكل حدوه الفرس Horse Shoe Arch يؤدى إلى ممر طوله متران مغطى بقبو من الآجر ومنه نخرج إلى صحن يبلغ مساحته ٣,٦٥ × ٥,٧٤م يزخرف جوانبه الأربعة عقود على هيئة حدوة الفرس ، وينتهى هذا الصحن إلى الممر الذى على شكل حرف (L) الذى يمر خلف الضريح ، ويبدأ من المدرسة الصالحية ، كما يفتح ضلعه الشمالى فى المدرسة الظاهرية ، وفى الجهة الجنوبية يفتح على المدخل الضريح ، وتبلغ فتحة الضريح ١,٣٨ × ٢,٩٥م ، ويعلوه عتب خشبى فوقه عقد عاتق Relieving Arch .

الضريح : لوحه (٣)

وهو مربع الشكل تقريبًا ، يبلغ طول ضلعه ١٠.٦٥م ، ولكنه فى وضع مائل حتى يتمكن المعمار من الحصول على زاوية المحراب الصحيحة وهى الجهة الجنوبية الشرقية ، الأمر الذى جعله يتخذ سمكًا مختلفًا للواجهة ، يتراوح ما بين ١,٩٧ إلى ٥,٣٤م ، وتعد هذه الظاهرة معروفة بالقاهرة فقط وغير معروفة خارج مصر(٢٩) ، ويتوسط الضريح تابوت من الخشب يزخرف جهاته أو جنباته الأربعة عناصر هندسية متكررة من أشكال نجمية داخل رسوم نباتية من فروع وأوراق ، أما أطار التابوت فقد زخرف بآيات قرآنية بخط النسخ على مهاد من الرسوم النباتية البسيطة وتشير هذه الكتابة إلى تاريخ وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب بالمنصورة فى سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م (شكل ٢) .

القبة ومنطقة الانتقال : لوحه (٤)

ومبانى القبة من الداخل والخارج تسودها البساطة وقد أقيمت القبة على جدران الضريح(٣٠) ، وهى ترتفع ٢٢ مترًا من أرضيته بواسطة ثلاث

حطات من المقرنصات عبارة عن ثـلاث حنايا فـى الحطتيـن الأولـى والثانيـة تعلوها أربع حنايا فى الحطة الثالثة . (شكل ٣ ، ٤) .

وفى الحقيقة لقد أقيمت دراسات حول النسب المعمارية للقباب الإسلامية وتأتى فى مقدمة هذه الدراسات قبـة الصـالح نجـم الديـن أيـوب ومـدى تناسـب تكوينها المعمارى من حيث أجزاء المبنى والأسلوب الذى استخدمه المعمـارى فى تحديد مقاساته والربط بين أجزائه(٣١) .

وترجع أهمية قبة الصالح نجم الديـن أيـوب إلـى تطـور المقرنـص فيهـا وزيادة حطاته وتغييرها تغييرًا كليًا عن القبـة الفاطميـة(٣٢) ، ويمكننـا حصـر ملامح هذا التطور الذى حدث لمناطق الانتقال الأيوبية فى هذه النقاط(٣٣) .

(أ) زيادة عدد حطات المقرنص من اثنتين فى العصر الفاطمى إلى ثلاث فى العصر الأيوبى .

(ب) تغيير شكل عقود الحنايا من العقد المدبب فى العصر الفاطمى إلـى العقـد المنكسر فى العصر الأيوبى .

(جـ) إتصـال حنايا منطقة الانتقال بفتحات الشبابيك بأواسط منطقة الانتقـال فـى العصر الأيوبى ، بعدما كان كـل منهـا مستقل عـن الآخـر داخـل إطـاره المحدد له فى العصر الفاطمى . (شكل ٥)

ويذكر د. أحمد فكرى(٣٤) أن زيادة عدد حطات المقرنص وكذا إتصـال حنايا منطقة الانتقال بفتحة الشبابيك فى العصر الأيوبى كان له أثـره الواضـح فى أن ارتفعت منطقة الانتقال وتداخلت فى رقبة القبة ، كما أن هذه الرقبة لـم تعد مستقلة عن منطقة الانتقال أو واضحة الانفصال عنها كما كان الحـال مـن قبل ، كما لم تعـد منطقـة الانتقـال تحـول المربـع إلـى الدائـرة مقصـورة علـى

الأركان . وخلاصة القول فإن هذا الاتصال قد ساعد على وضوح استداره رقبة القبة التى كانت من قبل ذات شكل مثمن أو مستدير .

وقد أضفى المعمار على هذه المنطقة جانبًا جماليًا وزخرفيًا بأن فتح بين زوايا المقرنصات شبابيك سداسية الشكل من الجص المعشق بالزجاج الملون(٣٥) – وهى ظاهرة معمارية وزخرفية نراها لأول مرة فى العمارة الإسلامية فى مصر – وألوانه غاية فى الفن والإبداع تتجلى فى زخارفه النباتية الجميلة الممثلة فى التفريعات والوريقات (شكل ٦) .

كما غُطيت فتحات الشبابيك الثمانية للقبة الصالحية بمصبعات نحاسية أفقية ورأسية فتعطى أشكالاً هندسية جميلة التكوين ، وهى كما سبق القول تُعد أول نموذج للشبابيك المصرية قبل شبابيك المدرسة الطيبرسية بالأزهر الشريف .

المحراب : شكل (٧)

يتوسط حائط القبلة محراب كبير ارتفاعه ٦,٠٦م وعرضه ١,٨١م ، وهو يُعد بذلك من أوسع المحاريب فى ذلك الوقت ، كما أنه أول محراب تمت تكسيته بالألواح الرخامية(٣٦) الرائعة التشكيل ما بين الأبيض والأسود مع الزخرفة الميمية فى الجزء الأسفل ، أما الجزء الأوسط فقد زخرف برسوم نباتية قوامها تفريعات ووريقات حُفرت بدقة وإتقان ومهارة تدل على حذق الفنان فى العصر الأيوبى ، وتفوقه فى زخرفة أول محراب رخامى ، وذلك بدلاً من الزخارف الجصية التى كانت معتادة من قبل ويكتنف هذا المحراب عمودان من الرخام الأخضر الداكن اللون(٣٧) ، وقد زخرف تاج وقاعدة كل عمود برسوم نباتية غاية فى الإبداع والجمال بحيث تشبه رسوم الدانتيللا (شكل ٨) .

وبالمحراب فسيفساء مذهبة تدل بقاياها على أنها من النماذج القيمة وهى أقدم قطعة لم تكن معروفة من قبل ، يليها محراب قبة شجر الدر ومن بعدها عدة محاريب فى العصر المملوكى وجدت بمصر فى فترة مائة عام فقط بداية بسنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م وانتهت سنة ٧٤٠هـ / ١٣٤٠م ، ويذهب العلامة الأثرى حسن عبد الوهاب(٣٨) بأن الفسيفساء استعملت فى زخرفة العمارة الإسلامية بمصر منذ القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، حيث وجدت فى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط وإن الوزير برجوان خلع كثيرًا من هذه الفسيفساء فى سنة ٣٨٧هـ / ٩٩٧م ويضيف حسن عبد الوهاب بأن هذه الصناعة بيزنطية الأصل ، استعان المسلمون بعمال من الروم لصناعتها فكانوا يستقدمون إلى دمشق والقدس والأندلس مع خاماتها لصناعتها ، وهناك نماذج كثيرة منها فى تلك البلاد ، فقد وجدت فى المسجد الأقصى وقبة الصخرة وصحن المسجد الأموى ومحراب وقبة الجامع الكبير بقرطبة .

أعمال الترميم والاكتشافات بقبة الصالح نجم الدين أيوب(٣٩) :

قامت هيئة الآثار المصرية بأعمال ترميم مهمة بضريح وقبة السلطان الصالح نجم الدين أيوب فى يناير سنة ١٩٩٠م ، وانتهت منها فى سبتمبر سنة ١٩٩٢م ، وذلك بالتعاون مع المعهد الألمانى للآثار بالقاهرة ، بعد ما وصلت حالة هذه القبة من الناحية الأثرية والمعمارية إلى وضع يرثى له من الإهمال والتدهور .

وقد تجلت أعمال الترميم فى القبة (لوحة ٥) أولاً بالواجهه حيث تم معالجة الشروخ وعمل الترميمات فى الكتل الحجرية ، كما تم ترميم المدخل المغطى بالقبو المتقاطع والرحبة أمام القبة ، والفناء الخارجى المكشوف ، والذى كان سابقًا الإيوان الجنوبى للمدرسة الظاهرية ، وأيضًا الممر المؤدى إلى المدرسة الصالحية .

كما رممت الأرضية الرخامية على أساس بقايا الرخام الأصلى (لوحة ٦) وقد تم أيضًا ترميم المحراب وإعادة تركيب كل القطع الصالحة للتركيب واستكمال الألواح الرخامية الناقصة (لوحة ٧) ، كما تم كذلك إعادة الشكل الأصلى للشبابيك الجصية ما بين ترميم واستكمال للزجاج الناقص وعمل الجديد على أساس النماذج المتبقية (لوحة ٨) .

وقد كشفت أعمال الترميم عن حجارة فرعونية منقوشة ، مقلوبة على ظهرها ممثلة فى درجات السلم المؤدى إلى السطح ، فتم إحلال بديل عنها وحفظت الأصلية بمخازن المتحف المصرى بالقاهرة .

كما قامت البعثة بإجراء حفائر فى داخل القبة ، وفى الإيوان المكشوف ، وفى الممر المؤدى إلى المدرسة الصالحية ، وقد تم الكشف عن بقايا معمارية من القصر الفاطمى الشرقى ، وكذلك كميات من الفخار الفاطمى ، وكتل منحوتة من المدرسة الظاهرية ، وتعد تلك الاكتشافات ذات أهمية كبرى وذلك بسبب ندرة المعلومات الأثرية عن القصر الفاطمى .

قبة وضريح شجر الدر : (أثر رقم ١٦٩)

يذكر ابن تغرى بردى(٤٠) أن هذه التربة قد أنشأتها الملكة شجر الدر فى سنة ٦٤٨هـ (سنة ١٢٥٠م) أى قبل وفاتها ، ولما توفيت فى سنة ٦٥٦هـ (سنة ١٢٥٨م) دفنت فيها ، ولا يوجد أسفل القبة نقش يثبت هذا ، ولا تزال هذه التربة موجودة حتى اليوم ، وتقع بالقرب من مشهد السيدة نفيسة(٤١) ، أمام مشهد السيدة رقية رضى الله عنهما ، بشارع الخليفة .

الواجهة :

تشبه هذه القبة أو ذلك الضريح من حيث تخطيطه ضريح يحيى الشبيه الفاطمى وبضريح الخلفاء العباسيين(٤٢) ، من حيث الزخارف الخارجية ، ولكنه أكبر إلى حد ما فى المساحة حيث يبلغ طول الضلع من الداخل ٧م ، وأيضًا فى أنه يتوسط ثلاثة من أضلاعه باب(٤٣) ، وهذه الأبواب مستطيلة ويعلوها عتب خشبى يعلوه عقد عاتق (شكل ٩) ، أما الضلع الرابع فى الجهة الجنوبية الشرقية فيوجد به المحراب ، والواجهة الشمالية الشرقية زالت منها الزخارف ، أما الواجهة الجنوبية الغربية ، فهى تتميز بوجود حنيتان صغيرتان مسطحتان على جانبى الباب الذى يتوسطهما ، كما يوجد ثلاث دوائر ومعين واحد على كوشة العقد (شكل ١٠) .

الضريح : لوحة (٩)

وهو مربع الشكل يبلغ طول ضلعه ٧م ، يتوسطه تابوت خشبى حديث وضع فى جوانبه أجزاء من التابوت القديم تحتوى على ثلاثة أشرطة من الكتابة النسخية تشتمل على آيات قرآنية ، ولم يذكر اسم المتوفى على التابوت .

يتوسط كل ضلع من أضلاعه الأربعة حنية جصية يبلغ عرضها حوالى مترين وترتكز العقود كلها على أفريز خشبى منقوش عليه (أو حفر عليه) اسم السلطانة شجر الدر مع عبارات دعائية لها لزوجها نصه :

" بسم الله الرحمن الرحيم عن الستر الرفيع والحجاب المنيع عصمه الدنيا والدين والده الملك المنصور خليل بن مولانا السلطان الملك الصالح نجم الدين أبى المظفر أيوب بن مولانا الملك الكامل ناصر الدين أبى المعالى محمد ابن أبى بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين(٤٤) قدس الله روحه ونور

ضريحه التى خطبت الأقلام بمناقبها على منابر الطروس ، وشهدت لها المغافر بالمجد الثابت فى أعلى العزيين الورى ، وأصبحت شموس المملكة بها طالعه ، وآراء الأمراء لأمرها مطيعة وسامعه ، وأعز الله أنصارها وضاعف اقتدارها وأعلى منارها ، وجعل النيرين فى العلا الأعلى خدامها ، ولم تزل مؤيدة منصورة على مر الليالى والأيام بمحمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين الكرام " .

وهناك طراز آخر من الحشوات الخشبية نقش عليه بالخط الكوفى أيات من سورة الفتح نصها ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم ، ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليمًا حكيمًا ﴾ آية ٤ .

ويعتبر هذا النوع من الزخرفة الكتابية والنقوش الخطية المحفورة على الخشب من أندر التحف الخشبية القاهرية من العصر الأيوبى وذلك على أرضية أو مهاد من الزخارف النباتية المورقة المعروفة بالأرابيسك(٤٥) ويعتقد الأستاذ كريزول أن هذه الحشوات الخشبية ، فاطمية الأصل وأخذت من القصر الغربى أو من بعض العمائر المعاصرة(٤٦) ، ولكن هذا الرأى وذلك الاعتقاد ليس صحيحًا ، لأن هناك ثمة ملحوظة مهمة لا ينبغى أن نغفلها وهى أن الخط الكوفى لم يبطل استعماله دفعة واحدة ، بل ظل مستعملاً إلى جانب الخط النسخ على الكثير من العمائر والتحف الأيوبية لمدة طويلة ، واستعمال كلاً النوعين معًا على تحفة واحدة من العلامات التى تعتبر مميزة للتحف الأيوبية ، والتى على أساسها نرجح فى أحيان كثيرة نسبة هذه التحف إلى ذلك العصر ، على أنه يلاحظ أيضًا أن استعمال الخط الكوفى بعد العصر الفاطمى ، إنما اقتصر على الآيات القرآنية والعبارات الدعائية ، أما النصوص التاريخية فكانت تكتب منذ العصر الأيوبى بخط النسخ(٤٧) .

القبة ومنطقة الانتقال : لوحة (١٠)

ويذكر ابن تغرى بردى(٤٨) أن " القبة التى أنشأتها شجر الدر فوق قبرها شكلها من أقدم أشكال القباب المعروفة فى مصر ولا زالت محتفظة بشكلها القديم " ، وتُعد هذه القبة ذات مميزات معمارية تعتبر الأولى من نوعها فهى ذات قاعدة مربعة زخرفت بعض واجهاتها بزخارف على هيئة شبابيك عقودها محارية ، وحولها صرر منها ما هو مستدير والبعض على هيئة معينات(٤٩) (شكل ١١) ، وزوايا البناء مشطوفة من أعلاها وينتهى الشطف بمقرنص ، ويشبه طراز هذه القاعدة طراز قبة الإمام الشافعى سنة ٦٠٨هـ / سنة ١٢١١م (شكل ١٢) .

وتتكون منطقة الانتقال من صفين أو حطتين من المقرنصات ذات العقود المنكسرة ، تحتوى كل حطة منها على ثلاث حنايا ، بين الأركان توجد نوافذ ذات ثلاث فتحات ، كما فتح فى القبة ثمان نوافذ على شكل زاوية عند القاعدة (شكل ١٣) .

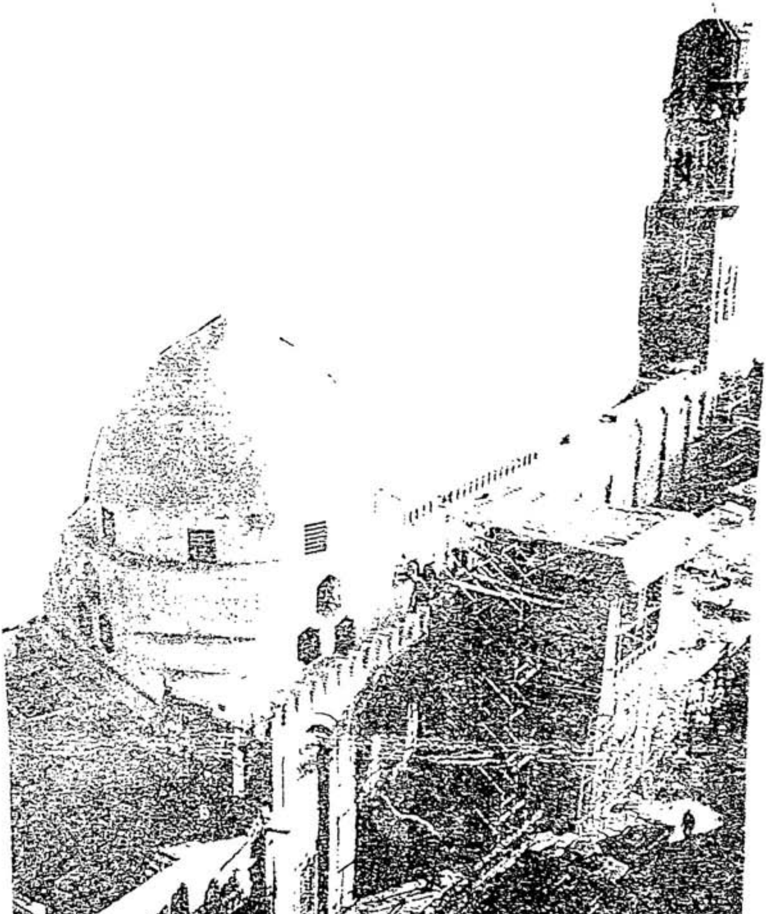
المحراب : لوحة (١١)

يُعد محراب قبة شجر الدر من المحاريب ذات الأهمية الخاصة ، إذ أنه يعتبر ثانى محراب فى مصر يحتوى على فسيفساء مذهبة بعد طاقية محراب قبة الصالح نجم الدين أيوب(٥٠) كما ذكرنا من قبل ، وتتكون هذه الفسيفساء من إطار يحيط بنصف القبة عبارة عن شريط مضفور Torsade يتوسطه شجرة خضراء متفرعة ومتشعبة تحمل ثمارًا متنوعة وملونة ومصدفة ، وهذه الزخرفة الفسيفسائية بحالة جيده وخاصة اللون الذهبى الذى يشع بريقًا عندما تسطع عليه أشعة الشمس .

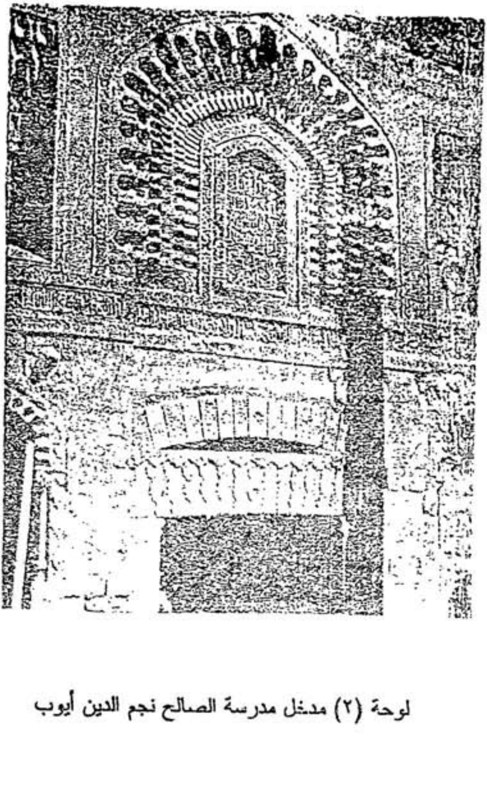
اللوحات



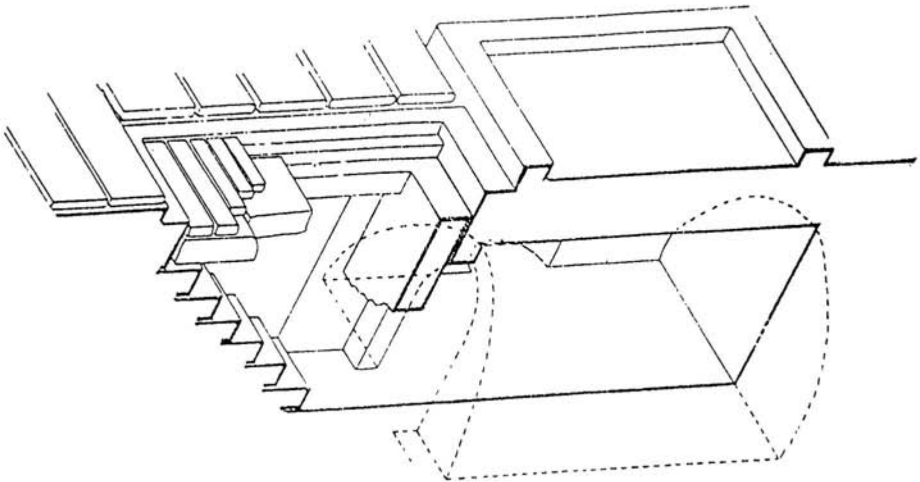
لوحة (١) مدرسة وضريح الملك الصالح نجم الدين أيوب



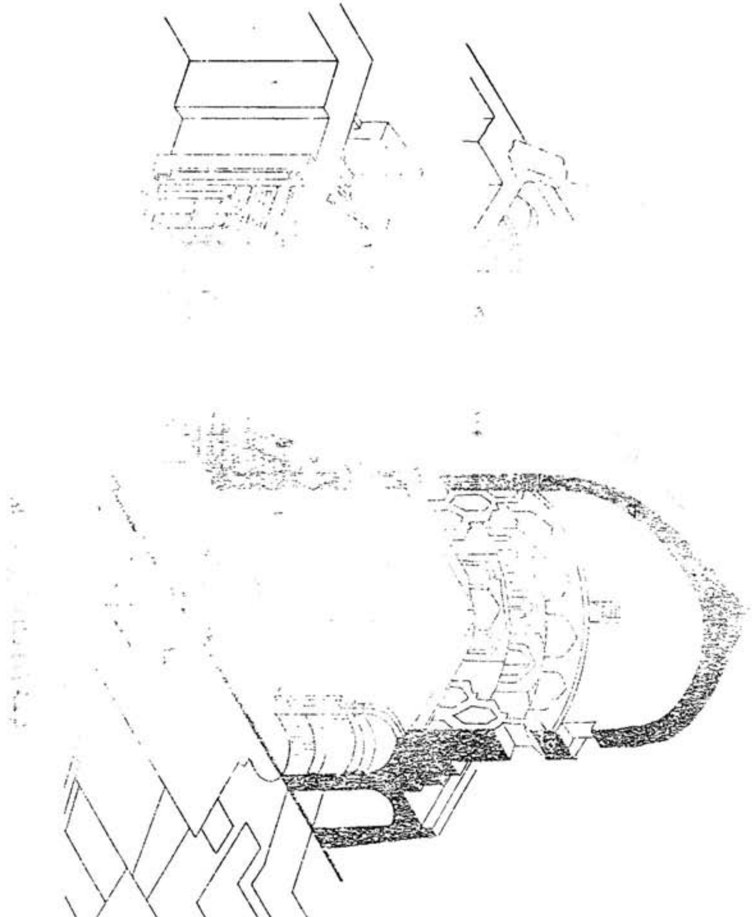
لوحة (١) مدرسة وضريح الملك الصالح نجم الدين أيوب

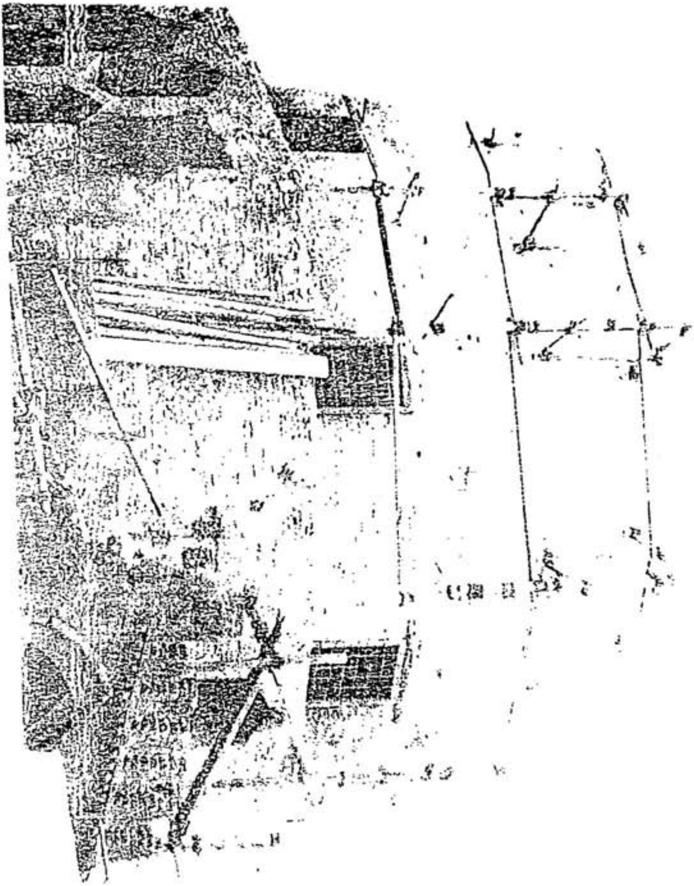


لوحة (٢) مدخل مدرسة الصالح نجم الدين أيوب

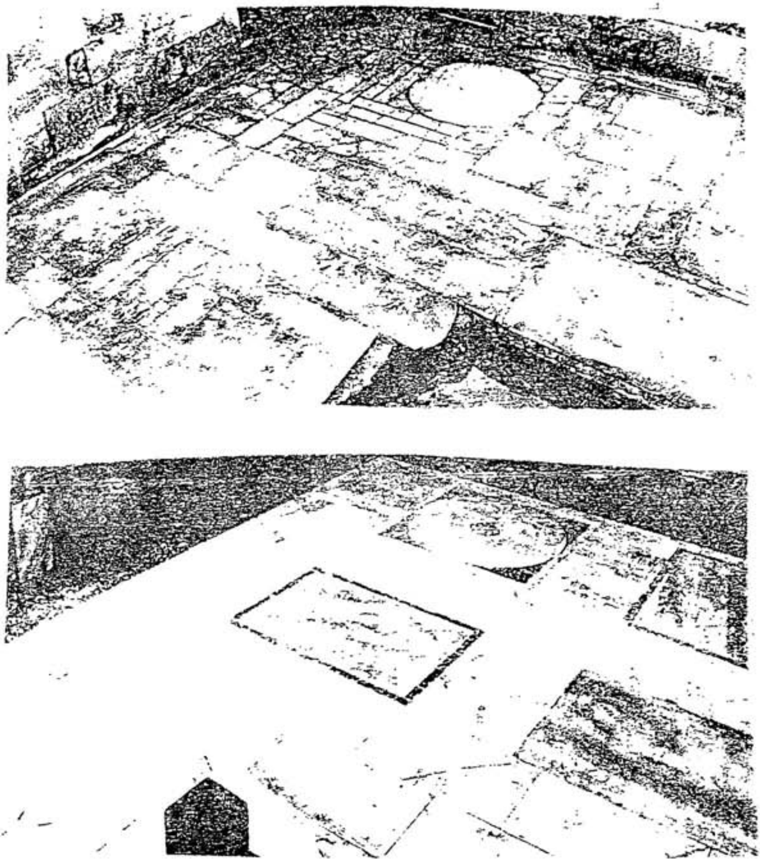


لوحة (٣) مقطع أيزومترى لحجره الدفن بضريح الصالح نجم الدين أيوب

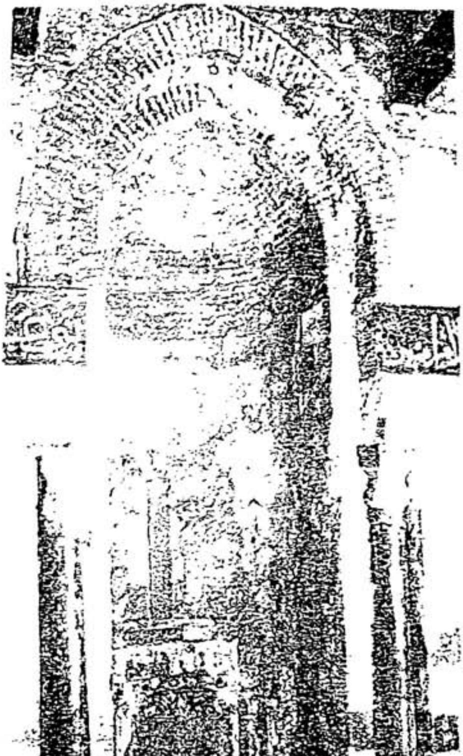




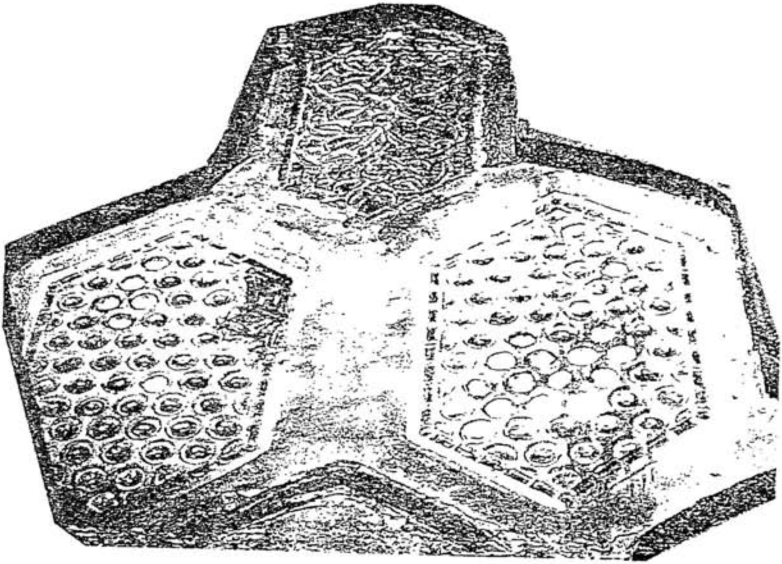
لوحة (٥) قبة الصالح نجم الدين أيوب من الخارج أثناء الترميم



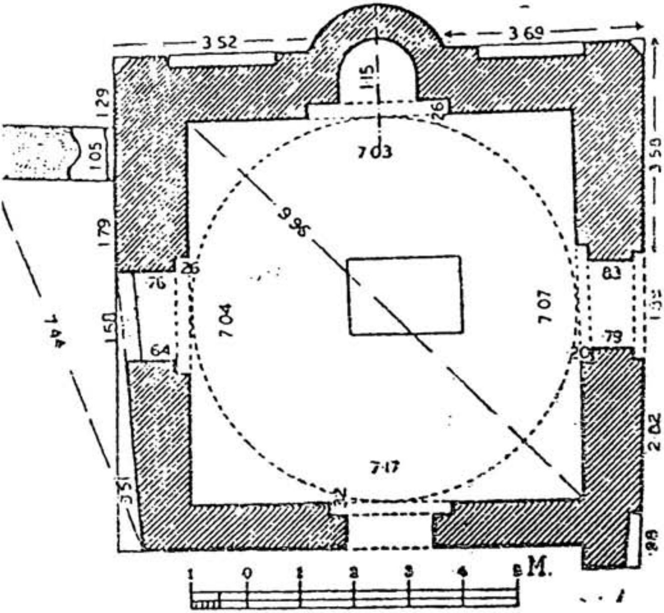
لوحة (٦) الأرضية الرخامية بقبة الصالح نجم الدين أيوب قبل وبعد الترميم



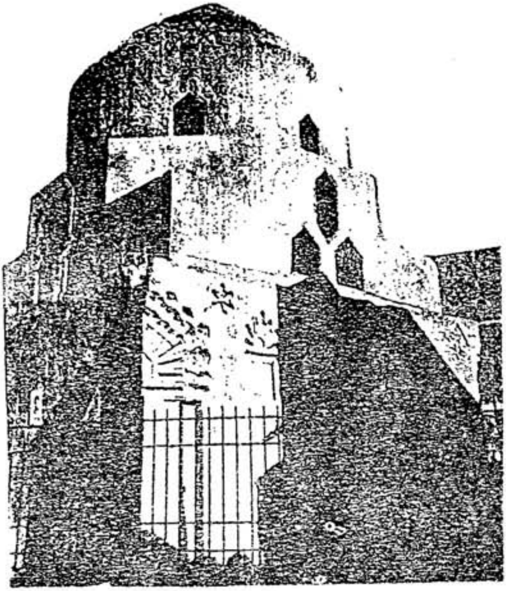
لوحة (٧) محراب قبة الصالح نجم الدين أيوب قبل الترميم



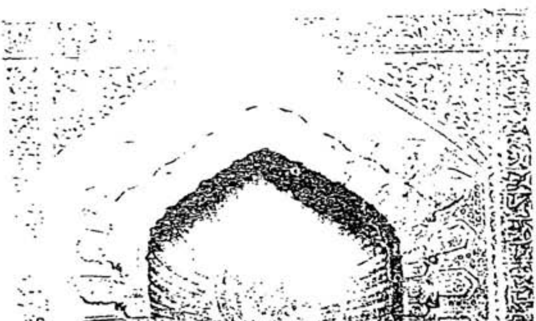
لوحة (٨) الشبابيك الجصية بقبة الصالح نجم الدين أيوب قبل الترميم



لوحة (٩) مسقط أفقى لقبة شجر الدر بشارع الخليفة

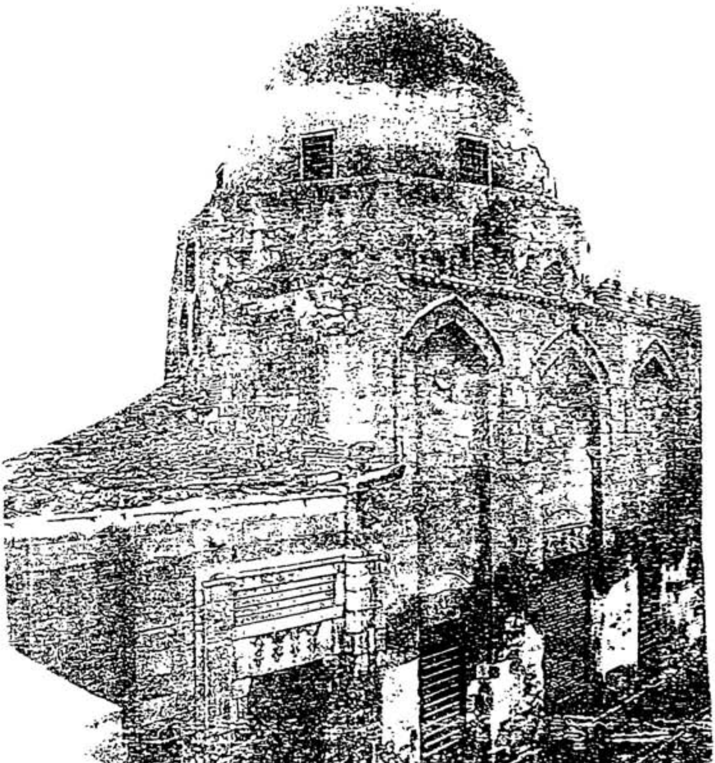


لوحة (١٠) ضريح شجر الدر وفوقه القبة

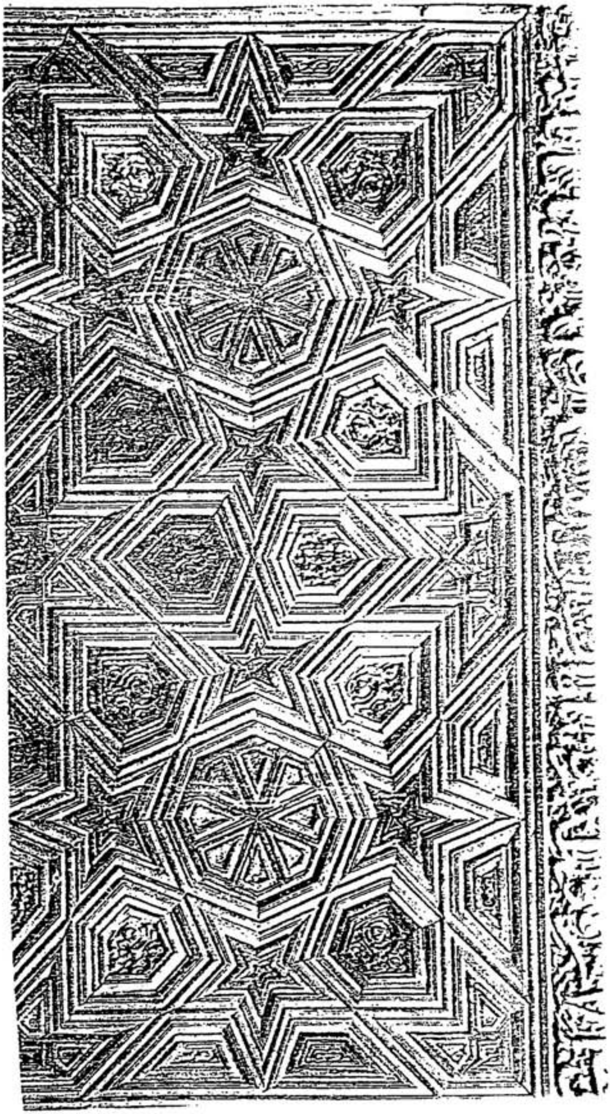


لوحة (١١) محراب ضريح شجر الدر

الأشكال



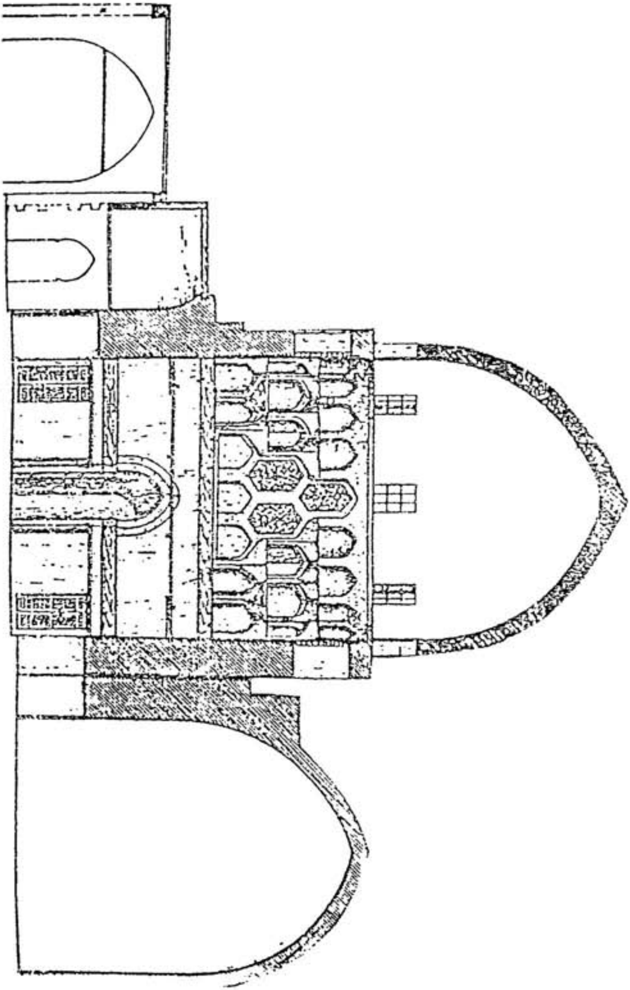
شكل (١) واجهة قبة الملك الصالح نجم الدين أيوب ذات الثلاث دخلات



شكل (٢) العناصر الهندسية والنباتية والكتابية على جنبات التابوت الخشبي لضريح الصالح نجم الدين أيوب



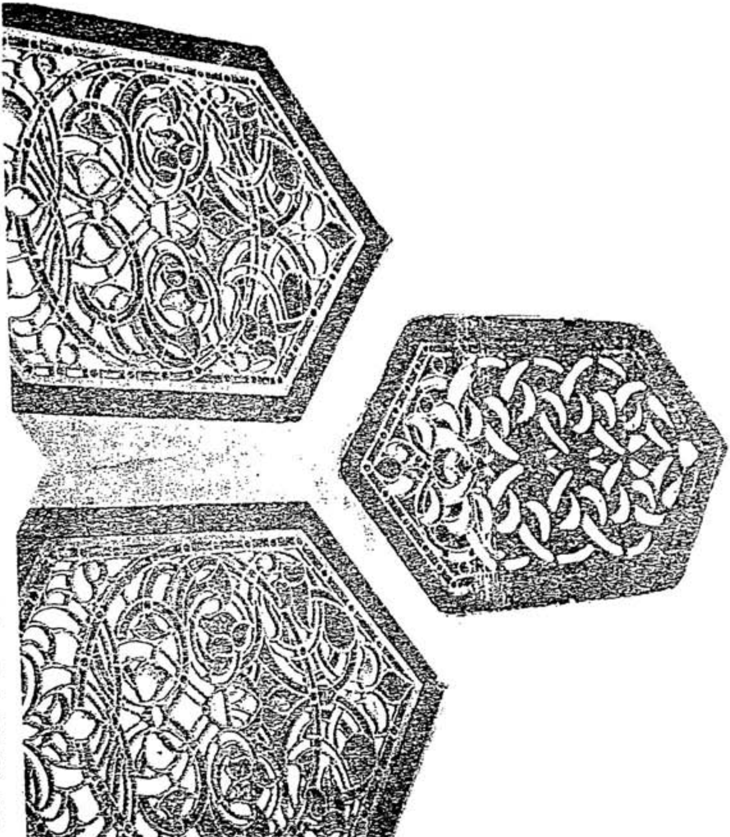
شكل (٣) منطقة انتقال قبة الصالح نجم الدين أيوب



شكل (٤) قطاع رأسى لقبة الصالح نجم الدين أيوب يبين منطقة الانتقال

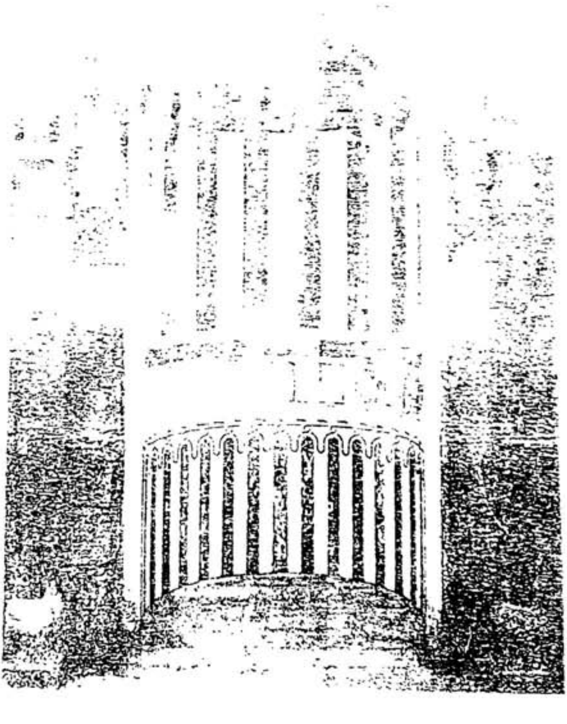


شكل (٥) منطقة الانتقال بقبة الصالح نجم الدين أيوب واتصالها بالشبابيك

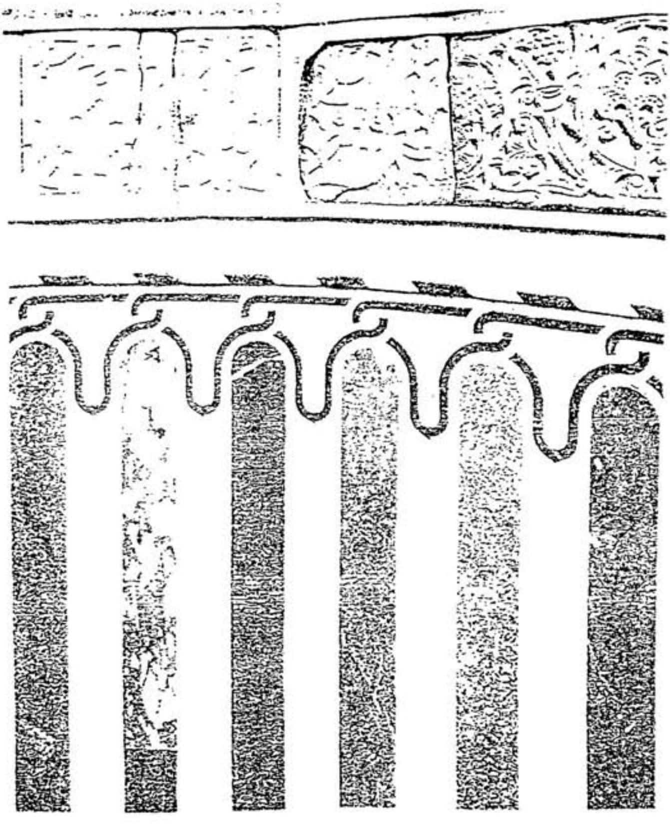


شكل (٦) الشبابيك الجصية المعشقة بالزجاج الملون بقبة الصالح نجم الدين أيوب

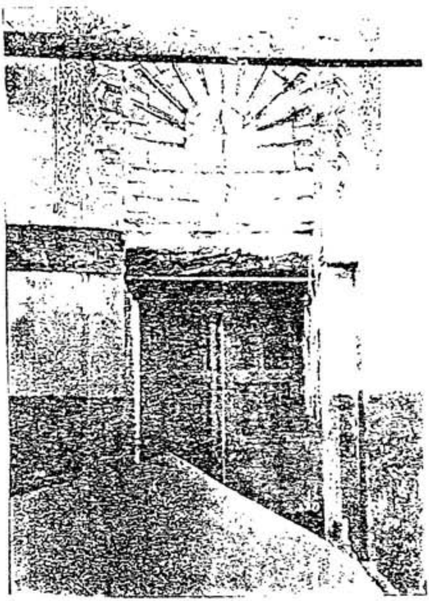




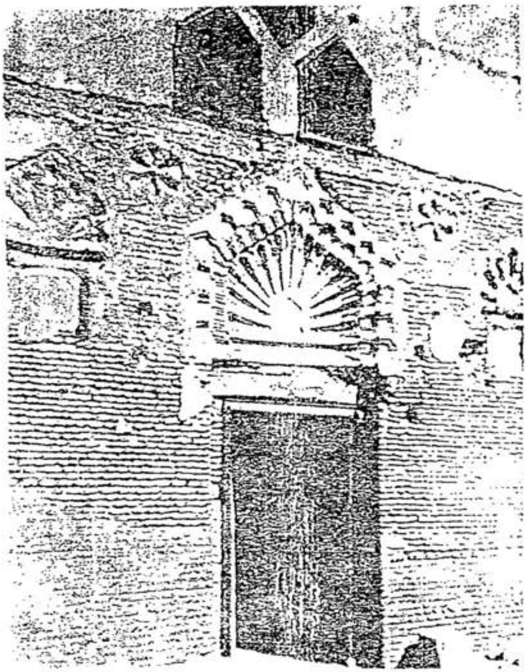
شكل (٧) المحراب الرخامى يكتنفه عمودان بقبة الصالح نجم الدين أيوب



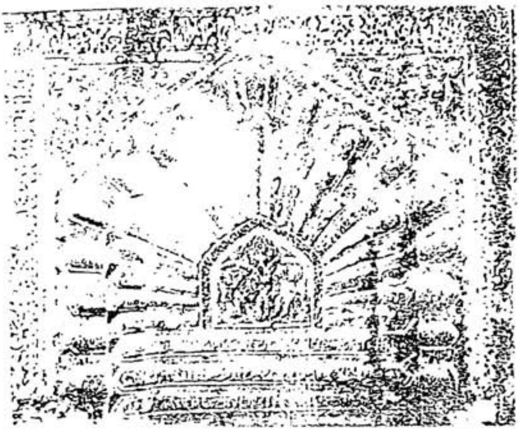
شكل (٨) الألواح الرخامية والزخارف النباتية بمحراب قبة الصالح نجم الدين أيوب



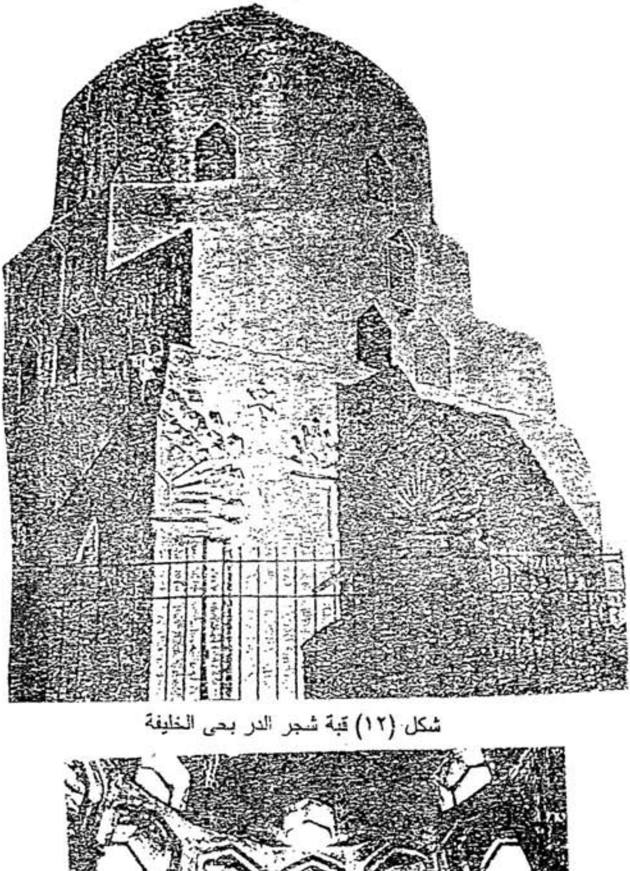
شكل (٩) الزخارف التى تعلو أبواب ضريح شجر الدر



شكل (١٠) المدخل الرئيسى لقبة شجر الدر



شكل (١١) الزخارف الجصية التى تعلو فتحات شبابيك قبة شجر الدر



شكل (١٢) قبة شجر الدر بحى الخليفة



شكل (١٣) منطقة انتقال قبة شجر الدر

الهوامش والتعليقات

١ – ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ٢ ، ص٣٧٦

– المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ، ق٢ ، ص٣٦٨ – ٣٦٩

– المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، ص٢٣٧

- Lane - Poole, History of Egypt in the Middle Ages, London, 1925, P. 225.

٢ – ابن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ١ ، ق١ ، ص٢٨٦ – ٢٨٧

٣ – ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٦ ، ص٣٧٣

٤ – ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، جـ٦ ، ص٣٧٥

٥ – عصمة الدنيا والدين ، هو لقب خاص بالنساء فى العصر الأيوبى ، وقد أطلق ولأول مرة على ضيفة خاتون ابنه السلطان العادل بمدرسة الفردوس بحلب ، كما أنه أطلق على السلطانة شجر الدر ، وورد ضمن ألقابها فى نقش بضريحها .

- Van Berchem, Materiaum Pour un corpus Inscriptionum, Arabicarum, Egypt, I, Paris, 1903, No. 70.

٦ – تدل هذه العبارة على أن السلطانة شجر الدر كانت جارية للخليفة العباسى المستعصم بالله ، ومن ثم عَرفت نفسها بالمستعصية تعبيرًا عن الانتماء إليه ، كما كانت تلقب بالصالحية نسبة إلى زوجها السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، وأم خليل لتظهر صلتها القوية بالبيت الأيوبى ، وخلاصة هذه التسميات ، فإن شجر الدر كانت ترى من وراء ذلك إلى صرف المعاصرين عن الحقيقة الكبرى وهى أن مقاليد الحكم غدت فى يد امرأة ، ولتضفى على سلطنتها هالة من الشرعية كما أنها تعبر

أيضًا عن شعور الاستخياء ، وحرص المرأة على عدم كشف اسمها مكتفية بأن تنسب إلى مولاها أو زوجها أو ولدها .

- Lane - Poole, History of Egypt in the Middle Ages - P. 225.

- وفاء محد على ، نفوذ النساء فى الدولة الإسلامية فى العراق ومصر ، دار الفكر العربى ، ١٩٨٦ ، ص١١٥

- سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٤م ص١٩

٧ - لم تنقش شجر الدر اسمها صراحة على الدنانير والدراهم التى ضربتها ، لذا فإن نقودها تُعد من أندر النقود الإسلامية فى العالم ، ولا يوجد منها إلا أعدادًا قليلة من النقود الذهبية والفضية والنحاسية . ومنها انظر :

- Lane - Poole, Catalogue of Oriental Coins in British Museum, London, 1887, IX, No. 469.

- ابن أيبك ، كنز الدرر وجامع الغرر ، جـ٧ ، تحقيق د. سعيد عاشور ، ص٣٨٣ .

- عبد الرحمن فهمى محمد ، النقود العربية ماضيها وحاضرها ، المكتبة الثقافية ١٩٦٤م ، ص٨٥ - ٨٦

- مهاب درويش البكرى ، النساء اللوانى ضربن النقود الإسلامية ، مجلة المسكوكات ، العدد ، المجلد الأول ، ١٩٦٩م ، ص٤٢

- سامح عبد الرحمن فهمى ، الوحدات النقدية المملوكية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، جدة المملكة العربية السعودية ، ص٣١ - ٣٤ ، لوحة (١) .

٨ - ملكة المسلمين ، تعد هذه الصفة المؤنثة من ألقاب النساء ، وقد أطلق هذا اللقب على شجر الدر حينما كان يُخطب باسمها على المنابر فى كل

من مصر والقاهرة عندما تسلطنت على العرش ، وأصبحت تدير شئون البلاد ، على الرغم من عم رضى الخليفة العباسى ورفضه هذا لمخالفته للتقاليد الإسلامية والأعراف الدينية .

حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية ، ص٥٠٦ - ٥٠٧

٩ - الستر الرفيع ، الستر فى اللغة بمعنى الستارة ، وقد أطلق للإشارة إلى المرأة الجليلة ، وكان الستر الرفيع هو أكثرها ورودًا على نساء العصر الأيوبى وبناتهم ، وقد كان الخطباء يلقبون شجر الدر بهذا الدعاء حينما دُعى لها على المنابر عند سلطنتها الديار المصرية سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م ، ووجد هذا اللقب على نص جنائزى فى ضريحها بالقاهرة .

- المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ ، ق١ ، ص٣٦٢ - حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية ، ص٣١٧ - ٣١٩

١٠ - الحجاب المنيع ، الحجاب فى اللغة بمعنى الستر ، وهو من ألقاب النساء وكان يوصف بالمناعة ، فيقال الحجاب المنيع " ، وانتشر هذا اللقب فى العصر الأيوبى ، حيث أطلق على نسائهم وزوجاتهم وبناتهم فى النصوص والنقوش ، وقد أطلق هذا اللقب على شجر الدر فى الدعاء لها على المنابر المصرية فى القاهرة سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م .

- حسن الباشا ، المرجع السابق ، ص٢٥٦ .

١١ - المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١ ، ق٢ ، ص٣٦٧ - ٣٦٨

- ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ص٢٨٧

١٢ - عبد الرحمن فهمى محمد ، شجر الدر ، مقالة فى القاهرة ، تاريخها . فنونها آثارها ، ص١٩١

١٣ – على مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ١ ، ص٧٨

١٤ – سعاد ماهر محمد ، مساجد مصر أولياؤها الصالحون ، جـ٢ ، ص١٠

١٥ – أحمد فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها ، جـ٢ ، ص٤١

١٦ – لقد عُرفت القباب منذ أقدم العصور ، أما فى العصر الإسلامى تعتبر قبة الصخرة ببيت المقدس والتى شيدها عبد الملك بن مروان سنة ٧٢هـ / سنة ٦٩٢م ، أقدم مثال فى العمارة الإسلامية .

– كمال الدين سامح ، تطور القبة فى العمارة الإسلامية فى مصر ، مجلد ١٢ ، جـ١ ، مايو ١٩٥٠م ، ص١٩٨

– فريد شافعى ، العمارة العربية فى مصر الإسلامية (عصر الولاة)، مجلد ١ ، الهيئة المصرية والعامة للكتاب ، ١٩٩٤م ، ص١٦٦

17- Kessler, Funerary Architecture whithin the City, Cairo, 1969, P. 259

– حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية القاهرة ، ١٩٦٥م ، ص١٠٥٤ ، ١٠٥٥ ، ١٠٦٨

– صالح لمعى ، التراث المعمارى الإسلامى فى مصر ، بيروت ، ١٩٧٥م ، صـ٣١

١٨ – المقريزى ، الخطط المقريزية ، جـ٢ ، ص٣٧٤ – ٣٧٥

– المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١ ، ق١ ص٣٧١

١٩ – التربة ، تعنى المقبرة ، وترب الميت أى صار ترابًا ، وقد تطور مدلول لفظ التربة واتسع معناه فى عصر دولة المماليك وبخاصة العصر الجركسى فأصبح يقصد به المنشأة الدينية بصفة خاصة وهى تشمل مكونات معمارية عديدة فيما بينها المقبرة أو المدفن ذى القبة .

- المقرى ، المصباح المنير ، جـ١ ، بولاق ١٣١٦هـ ، ص٣٥
- محمد حمزة الحداد ، قرافة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك ، رسالة ماجستير ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٦م ، ص١٥٩ - ١٦٨

٢٠ - سعاد ماهر ، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، جـ٢ ، ص٢٣٦

٢١ - حسن عبد الوهاب ، العمارة الإسلامية فى العصر الأيوبى ، مجلة العمارة ، العدد ٧ ، ٨ ، سنة ١٩٤٠م ، ص٤٠٤

٢٢ - العادل المجاهد ، العادل من ألقاب الملوك ونحوهم من ولاة الأمور ، لأنه بالعدل تُغمر الممالك ويأمن الرعية وتصلح الأمور ، المجاهد يستمد هذا اللقب من تعاليم الإسلام ، فقد ذكر الجهاد والمجاهدون فى آيات قرآنية كثيرة ، وأطلق هذا اللقب على الملك الصالح نجم الدين أيوب على عتبة ضريحة ، وهذا تسجيلاً لجهاد جيوشه ضد الصليبين وانتصاره عليهم .

- حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية ، ص٣٨٨ ، ٣٥٢ - ٣٥٣

٢٣ - المرابط المثاغر ، المرابط من الرباط وهو ملازمة ثغر العدو ، وهو من الألقاب التى ظهرت فى العصر الأيوبى ، والمثاغر أى القائم بسد الثغور ، وهى البلاد التى على الحدود بين الدول الإسلامية وما جاورها من الدول ، وهما من ألقاب السلطان فى عصر الأيوبيين وأطلقا على الملك الصالح لكفاحه وجهاده ضد الصليبيين .

- حسن الباشا ، المرجع السابق ، ص٤٦٦ ، ٤٤٩ - ٤٥٠

٢٤ - نجم الدنيا والدين ، لقد أطلق هذا اللقب على بعض سلاطين بنى أيوب ومنهم الصالح نجم الدين ، ذلك على ضريحة هذا ، وأيضًا على بعض النقوش الخاصة به .

Van Berchem, Corpus, Egypte, VOL. I, P103

٢٥ - سلطان الإسلام والمسلمين ، إن إضافة لفظ السلطان إلى " الإسلام والمسلمين " يُعطى الملقب صفة دينية إسلامية جاءت كأثر لتخلى الخلفاء عن حماية الدين لرجال الدولة من السلاطين ، وإن الأنظار قد أخذت تتحول من الخلفاء إلى السلاطين الأيوبيين حماة الإسلام من الصليبيين .

- حسن الباشا ، نفس المرجع السابق ، ص٣٣١ - ٣٣٣

٢٦ - سيد ملوك المجاهدين ، إن هذا اللقب يحوى معنى الجهاد الذى كان من مظاهر النهضة السنية ، وقد أطلق على الصالح نجم الدين أيوب فى نقش على ضريحة وهو الذى جاهد ضد الصليبيين وانتصر عليهم .

- حسن الباشا ، نفس المرجع السابق ، ص٣٥٠

٢٧ - وارث الملك ، أطلق هذا اللقب على الصالح نجم الدين أيوب لأنه أخضع الصليبيين وحاربهم فكأنه أصبح الوارث للملك ، واستحق لذلك هذا اللقب .

- نفسه ، ص٥٣٨

٢٨ - المقريزى ، الخطط المقريزية ، جـ٢ ، ص٣٧٤

٢٩ - سعاد ماهر ، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، جـ٢ ، ص٢٣٧

٣٠ - تحتفظ جبانة مدينة أسوان بعدد كبير من القبور والشواهد وبهذه الجبانة توجد أول محاولة لإقامة القباب على الأضرحة فى مصر وكان ذلك فى العصر الفاطمى .

- سعاد ماهر ، مدينة أسوان وآثارها فى العصر الإسلامى ، ١٩٧٧م ص٢ ، لوحة (٥)

٣١ - محمد حماد ، الإنشاء والعمارة ، المجلد الأول ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٤م ، ص١٢٧ ، شكل ٢١٩

- على غالب ، تناسب التكوين المعمارى لقبة الصالح نجم الدين أيوب ، المجلة المعمارية ، السنة الثالثة ، العددين ٧ ، ٨ ، ١٩٨٧م ، ص٩٠ - ٩٤ ، هامش ٦ ، شكل ٣ ، ٤

٣٢ - كمال الدين سامح ، تطور القبة فى العمارة الإسلامية فى مصر ، ص٢٠٩

- كمال الدين سامح ، العمارة الإسلامية فى مصر ، ص٣٣

٣٣ - محمد حمزة الحداد ، القباب ، ص١٠١

٣٤ - أحمد فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها ، جـ٢ ، ص٤٢ - ٤٣

- أحمد فكرى ، خصائص عمارة القاهرة فى العصر الأيوبى ، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، مارس - إبريل ١٩٦٩، جـ١ ، ١٩٧٠م ، ص١٦٧

٣٥ - محمد عبد العزيز مرزوق ، الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى ، ص١٠٣

٣٦ - حسين مصطفى حسين ، المحاريب الرخامية فى قاهرة المماليك البحرية ، رسالة ماجستير ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٨١م ، ص١٦٢ - ١٦٧

٣٧ - سعاد ماهر ، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، جـ٢ ، ص٢٣٧

٣٨ – حسن عبد الوهاب ، العمارة الإسلامية فى العصر الأيوبى ، ص٤٠٤

٣٩ – قبة الصالح نجم الدين أيوب ، المعهد الألمانى للآثار بالقاهرة مطبعة نوبار ، ١٩٩٣م

٤٠ – ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص٣٧٨ ، حاشية (١)

٤١ – ويذكر على مبارك فى خططه أنه كان يوجد بجهة السيدة نفيسة رضى الله عنها آثار أخرى لشجر الدر وهى حمام وبستان ودور أنشأتها هناك ، ولكنها اندثرت جميعها ولم يبق منها أى أثر .

– الخطط التوفيقية ، جـ١ ، ص٧٨

٤٢ – حسن عبد الوهاب ، العمارة الإسلامية فى العصر الأيوبى ، ص٤٠٦

43- Creswell, the Muslim Architecture of Egypt, vol. I, 1951, Fig . 40,71.

٤٤ – أمير المؤمنين ، الأمير فى اللغة ذو الأمر والسلطة ، وقد أطلق لقب الأمير على أفراد الأسرة الأيوبية ، أما أمير المؤمنين ، ويقصد بالمؤمنين المصدقين تصديقًا قلبيًا بعقيدة الإسلام ، ويعد أمير المؤمنين ثانى ألقاب الخلفاء ظهورًا وقد جاء بعد لقب خليفة ، وإضافة المؤمنين إلى أمير تُعطى اللقب صفة دينية إلى جانب سمته السياسية .

– حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية ، ص١٧٩ – ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٩٤

٤٥ – الأرابيسك ، لقد أطلق مؤرخو الفن من الأوربيين هذا اللفظ Arabesque على نوع معين من الزخرفة النباتية الإسلامية والتى شاع استخدامها لدى الفنانين المسلمين ، قوامها فروع نباتية وأوراق فى توازن وانسجام ، فأخرجوا لنا زخارف متداخلة ومتشابكة ، فأصبحت هى السمة المميزة للفن الإسلامى فى أوربا ، وقد شاع بين مؤرخى الفن

الإسلامى من العرب كلمة " التوريق " لأن هذه الكلمة أصدق فى الدلالة على هذا النوع من الزخرفة الذى أبرز ما فيه ظاهرة النمو والتوريق ، وما هو فى الحقيقة إلا نمو وتكاثر ، وقد وصلت زخارف إلا رابيسك إلى أوج عظمتها وقمة ذروتها فى كلا العصرين الأيوبى والمملوكى .

Encyclopaedi de L'lslam, Tom, I, 1913, PP. 362 - 67.

- زكى محمد حسن ، فى الفنون الإسلامية ، ص٣٥ – ٣٦

- محمد عبد العزيز مرزوق ، الفن الإسلامى تاريخه وخصائصه بغداد ، ١٩٦٥م ، ص١٨٣

- بشر فارس ، سر الزخرفة الإسلامية ، مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٢م ، ص١١ .

- سعاد ماهر ، كتاب الفنون الإسلامية ، ص٢٠١

- محمد عبد العزيز مرزوق ، الفنون الزخرفية الإسلامية ، ص١١

٤٦ – سعاد ماهر ، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، جـ٢ ، ص٢٦١

٤٧ – محمد عبد العزيز مرزوق ، الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى ، ص٢٥

٤٨ – النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص٣٧٨ ، حاشية (١)

٤٩ – عبد الرحمن فهمى ، شجرة الدر ، ص١٩٣ ، شكل ٤١

٥٠ – حسن عبد الوهاب ، تاريخ المساجد الأثرية ، جـ١ ، ص٣٧

- حسن عبد الوهاب ، العمارة الإسلامية فى العصر الأيوبى ، ص٤٠٤

المصادر والمراجع العربية والأجنبية

أولاً : المصادر العربية المطبوعة

-- **ابن إياس** (أبو البركات محمد بن أحمد الحنفى ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م) .

• بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، خمسة أجزاء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٢ - ١٩٨٤م .

-- **ابن أيبك الداوادار** (أبو بكر بن عبد الله)

• كنز الدرر وجامع الغرر ، تحقيق د. سعيد عاشور ، جـ٧ .

-- **ابن تغرى بردى** (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) .

• النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة عن دار الكتب تراثنا .

-- **ابن واصل** (جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧هـ/١٢٦٨م) .

• مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ٥ ، تحقيق د. حسنين محمد ربيع ، مراجعه د. سعيد عاشور ، ١٩٧٧م .

-- **المقرى** (أحمد بن محمد بن على المقرى ت ٧٧٠هـ/١٣٦٨م) .

• المصباح المنير ، ٤ أجزاء ، بولاق ١٣١٦هـ .

-- **المقريزى** (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) .

• كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١ ، جـ٢ تحقيق د. محمد مصطفى زيادة القاهرة ، ١٩٣٦م - ١٩٥٨م ، جـ٣ ، جـ٤ ، تحقيق د. سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٠م - ١٩٧٣م .

• المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق ، جزئين بدون تاريخ .

- على مبارك

• الخطط التوفيقية الجديدة لمصر . القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٤م .

ثانيًا : المراجع العربية

- أحمد فكرى (دكتور)

• مساجد القاهرة ومدارسها ، جـ٢ ، العصر الأيوبى ، القاهرة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩م .

• خصائص عمارة القاهرة فى العصر الأيوبى ، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة - مارس - إبريل ١٩٦٩م ، مطبعة دار الكتب ١٩٧٠م .

- بشر فارس

• سر الزخرفة الإسلامية ، مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٢م .

- حسن الباشا (دكتور)

• الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٦٥م - ١٩٦٦م .

• الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ، ١٩٨٩م .

- حسن عبد الوهاب

• العمارة الإسلامية فى العصر الأيوبى ، مجلة العمارة ، العدد ٧ ، ٨ ، سنة ١٩٤٠م .

• تاريخ المساجد الأثرية ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٤٦م .

- **حسين مصطفى حسين (دكتور) .**

• **المحاريب الرخامية فى قاهرة المماليك البحرية ، رسالة ماجستير كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٨١م .**

- **ذكى محمد حسن (دكتور) .**

• فى الفنون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٣٨م .

- **سامح عبد الرحمن فهمى (دكتور)**

• الوحدات النقدية المملوكية ، الطبعة الأولى ، جدة ، المملكة العربية السعودية ، ١٩٨٣م

- **سعاد ماهر محمد (دكتور)**

• مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، ٥ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٧٠م - ١٩٨٦م

• مدينة أسوان وآثارها فى العصر الإسلامى ، القاهرة ، ١٩٧٧م .

- **سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور)**

• **العصر المماليكى فى مصر والشام ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٤م .**

- **صالح لمعى مصطفى (دكتور)**

• **التراث المعمارى الإسلامى فى مصر ، بيروت ، ١٩٧٥م**

• القباب أشكالها - مصادرها - تطورها ، بيروت ، ١٩٧٧م

- **عبد الرحمن فهمى محمد (دكتور)**

• النقود العربية ماضيها وحاضرها ، المكتبة الثقافية ، ١٠٣ ، ١٩٦٤م

• شجر الدر ، مقالة من القاهرة . تاريخها . فنونها . آثارها ، ١٩٧٠م

- **على غالب (دكتور)**

• تناسب التكوين المعمارى لقبه الصالح نجم الدين أيوب ، المجلة المعمارية السنة الثالثة ، العددين ٧ ، ٨ ، ١٩٨٧م

- **قبة الصالح نجم الدين أيوب**

• المعهد الألمانى للآثار بالقاهرة ، مطبعة نوبار ، ١٩٩٣م

- **فريد شافعى** (دكتور)

• العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، المجلد الأول ، عصر الولاة ، ١٩٧٠م

- فهرس الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة ، مصلحة المساحة ، ١٩٥١م

- **كمال الدين سامح** (دكتور)

• العمارة الإسلامية فى مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٠م

• تطور القبة فى العمارة الإسلامية ، مجلة كلية الآداب ، مجلد ١٢ ، جـ١ مايو ١٩٥٠م

• العمارة الإسلامية فى مصر ، دار المعارف ، ١٩٧٧م

- **محمد حماد**

• الإنشاء والعمارة ، المجلد الأول ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٤م

- - **محمد حمزة إسماعيل الحداد** (دكتور)

• قرافة القاهرة فـى عصـر السـلاطين الممـاليك ، رسـالة ماجستير ، كليـة الآثار، جامعة القاهرة ، ١٩٨٦م

• القباب فى العمارة المصرية الإسلامية ، ١٩٩٣م

- - **محمد عبد العزيز مرزوق** (دكتور)

• الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى ، المكتبة الثقافية ، ٨٠ ، ١٩٦٣م

• الفن الإسلامى تاريخه وخصائصه ، بغداد ، ١٩٦٥م

• الفنون الزخرفية الإسلامية فى العصر العثمانى ، الهيئة المصرية العامـة للكتاب ، ١٩٨٧م

- **مهاب درويش البكرى**

• النساء اللواتى ضربن النقود الإسـلامية ، مجلـة المسكوكات العـدد ٢ ، المجلد الأول ، ١٩٦٩م .

- - **وفاء محمد على** (دكتور)

• نفوذ النساء فى الدولة الإسلامية فى العراق ومصر ، دار الفكر العربى ، ١٩٨٦م

ثالثًا : المراجع الأجنبية

- **Creswell (K. A. C.),**

  - The Muslim Architeclure of Egypt, Vol. I, 1951.

- Encyclopedie de L'Islam, Tome I, Paris, 1913.

- **Kessler** (c).

  - Funerary Architecture within the City, 1969.

- **Lane Poole,**

  - Catalogue of Oriental Coins in British Museum, London, 1887.
  - History of Egypt in the Middle Ages, London, 1925.

- **Van Berchem,**

  - Materiaum Pour un Carpus. Inscriptionum Arabicarum, Egypte, 1 Paris, 1903.

التناسب الهندسى والجمالى بالعمارة الإسلامية

منذ فجر الإسلام ، حتى القرن الرابع عشر الميلادى

د. عصام عرفه محمود

كلية التربية الأساسية – الكويت

مقـــدمة :

أن الأسس الهندسية للعناصر المعمارية والزخرفية الإسلامية ناجمة عن محاولات تحليل المحتوى الظاهرى للحياة والطبيعة ، وذلك برؤيتها ثم إدراكها ثم إعادة إخراجها بما يتفق والأحاسيس المختلفة من فنان لآخر ، ومن مهندس لآخر .

وذلك ناتج عن تشبع الفنان بعقيدته الداعية إلى تأمل الذات والكون . فالرائعة الفنية الإسلامية هى نتاج الفكر البشرى المشبع بالطبعية من خلال العقيدة . والفنان المسلم يستخدم الجمال فى حساباته إثارة للجمال لدى عقل ووجدان المشاهد ، كما يستخدم الدقة فى نسب وحداته لإثارة تحديد المفهوم ، وكذا التناسب بين أبعاد تكويناته وعمائره لإثارة الانتقال المرن من منطقة لأخرى وفق منهج التناسب الهندسى .

إن الروائع الفنية الإسلامية هى نتاج جهد فنان تشبع بمحصلات الماضى وتجارب المعاصر له ، أنه فنان أنتج أعمالاً بها من الجمال بقدر ما بها من الحقائق والأسس الرياضية .

وقد فهم الفنان وأدرك المقاييس السامية لهذه التناسبات رغم صعوبة التعامل معها ثم عبر من خلالها بأساليب وطرق تسامت إلى مستويات هذه

التناسبات الجمالية ، إن إدراك المفاهيم الأكثر تجريدًا والتعبير عنها أصعب وأشق من إدراك تلك الأكثر واقعية والتعبير عنها . فالفنان المسلم كان يسعى دائمًا إلى تطوير فكره وتنمية وجدانه ، من أجل تطوير فنه ومن ثم الوصول إلى قدرة أكبر على التعبير عن فكره المشبع بالدراسات الفنية والقيم العقدية ، فالفنان كان متعطشًا للفنون والعلوم السابقة عليه ، ومستجيبًا للقوى الاجتماعية والأيدلوجية السائدة . وربما كان لهذه الاستجابة من الفنان تجاه دراسة وتطبيق التناسب الهندسى أكبر الأثر فى إضافة اللمسة الجمالية على أعماله المختلفة .

وجدير بالذكر أنه عندما حاول الفنان الحديث دراسة النظريات الهندسية، والمنظور ، والتناسب الجمالى ، تحولت أسس تكويناته إلى الأشكال الهندسية بأنواعها ، ودفع شدة تأثر وحب وتكيف الفنان معها إلى تفننه فى استيحاء أشكال الطبيعة من خلال الأشكال الهندسية . فتأثير علم الرياضيات – لاسيما علم الهندسة – كان ولا يزال من العوامل الهامة التى هى موضع اهتمام الفنان ، والتى لها القدرة على صبغ فكر وإنتاج الفنان بالروح الهندسية الجمالية وهو مناخ رياضى هندسى عاش مثله الفنان المسلم نتيجة ما وصله من ترجمات لمخطوطات ورسائل هندسية تفيض بالنظريات الهندسية الهامة والرسوم الهندسية الدقيقة . فكان منطقيًا نتيجة لذلك أن يتشبع فكره ووجدانه بالطابع الهندسى ، وأن ينعكس ذلك على تكويناته فى صورة لمسة جمالية أضفت على أعماله المنقولة والمعمارية الدقة والبراعة فى نظم الأجزاء المكونة لها .

إن التناسب الجمالى لدى المهندسين يتخذ معنى يقوم على تناسب العناصر وخضوع أبعادها للنسب المثلى ، تلك النسب التى ينطوى عليها

تذوق الفنان وإحساسه بها سواء بطريقة لا شعورية أو واعية . وهى النسب التى كان من شأنها أن تدعم بقوة أعماله وتسمو بها إلى مصاف إبداعية راقية .

إن نسب الأشكال وأوضاعها وحركاتها تقوم فى جوهر التكوين الإسلامى على ذلك الأساس الرياضى ويقول هربرت ريد(١) : " أن القطاع الذهبى الذى يمكن التعبير عنه بأنه النسبة المثلى للأشكال ، تتخذ قاعدة ذات براهين رياضية هندسية فى نظريات كل من إقليدس (ت نحو ٢٧٥ ق . م) وفيثاغورث (٥٨٨ – ٥٠٣ ق م) ، إلا أن هذه النسبة فى نطاق العمل الفنى ، يستطيع الفنان تقديرها بحسب ذوقه الرفيع وخبرته فى دراسة (هندسة) الأشكال بحيث يصبح تقديرها لديه نظريًا بالتذوق سواء بطريقة واعية ... أو حتى لا شعورية " .

ويقول إخوان الصفا(٢) : إن " النسب العددية والهندسية ، والتأليفية(٣)، . وكيفية ترتيبها ... والوقوف على أن الموجودات المختلفة القوى المتباينة الصور ، المتنافرة الطباع ، إذا جمع بينها على النسبة المتعادلة ائتلفت وصحت وبقيت ودامت . وإذا كانت على غير النسبة المتعادلة اضطربت وتنافرت حتى اضمحلت وفنيت ... وذلك يعنى حتمية مراعاة الفنان للنسب الجمالية بين العناصر من أجل توافقها وتوافق أجزائها " .

التناسب الجمالى :

التناسب Proportion هو العلاقة بين الأجزاء المختلفة للتكوين أى العلاقة بين العنصر كجزء وبين ما حوله ككل . والتناسب قائم على النسبة Ratio . التى تعنى العلاقة بين شيئين من نفس النوع .

والتناسب فى هذه الدراسة ليس رياضيًا ، بقدر ما هو تناسب جمالى تدعمه كثير من النسب الرياضية لكن بصورة تقريبية أساسها حكم الوجدان والرؤية الجمالية وجمال التكوين . وعبر العصور استمر الصراع بين تحكيم النسب الرياضية البحتة ، أو تحكيم الوجدان عند بناء التكوين وتراص عناصره بداخله وفقًا لأبعاد وأحجام اختلفت نتيجة التردد فيما بين تطبيق التناسب الرياضى ، أو تطبيق التناسب الجمالى .

فالفنان المصرى القديم قد دعم أعماله الفنية بكثير من النسب الرياضية(٤) لكنها كانت ممزوجة بلمسة جمالية عند بناء تكويناته الكلية المسطحة أو المجسمة ويلاحظ ذلك فى تلك الأعمال التى تدور حول التجمعات البشرية بنسب شبه ثابتة تغيرت فيها نسب الجسم البشرى من أسرة لأخرى عبر عصور الأسرات المصرية ، مع التزام الفنان باللمسة الجمالية المتمثلة فى التغاضى النسبى عن قيود الحسابات الرياضية وإضفاء الانتقال الجمالى المرن من جزء لآخر والذى وصل ذروته فى عهد أخناتون بالأسرة الثامنة عشرة .

بينما الفنان الإغريقى قد تأثر فى أعماله بالمنطق الرياضى البحت متمثلاً ذلك فى أعماله ذات النسب الثابتة شبه المقننة بين الفنانين والخاصة بالجسم البشرى مهما اختلفت أوضاعه . وهو منطق رياضى خلى من حكم الوجدان والرؤية الجمالية ، بل ساده الجمود الهندسى .

وفى الفن الرومانى ارتدت الفنون إلى اقتران الأصول الرياضية والتناسب الهندسى باللمسة الجمالية ذلك الحيوية والحرية النسبية فى تقدير الأبعاد وهى الناتجة عن الأحكام الوجدانية والمشاعر التى أضفت على النسب الرياضية شيئًا من مرونة التطبيق وحرية التصرف فى النسب بالأعمال الفنية ذات البعدين أو ذات الثلاثة أبعاد .

والحقيقة أن التناسب الهندسي - كتراث رياضي بحت - والتناسب الجمالي الذى التزمه المهندس عبر بعض العصور - كتراث فني جمالي - كانا بمثابة الحقل الخصب الذى تأثر به الفنانون فيما بعد ، وخاصة في العصور الإسلامية ، بولاياتها المختلفة ، ومجالات فنونها المتعددة . عبر منافذ لتيارات متلاحقة من التأثيرات الفنية والعلمية . تمثلت في جماليات وتقاليد الفن البيزنطى المتأثر بدوره بالفنون الرومانية والإغريقية وأسس وتقاليد الفنون الشرقية الفارسية المتأثرة بالفن الساساني القديم ، وكذا جماليات الفنون المصرية القديمة كتراث على مرآى دائم المسلم بمصر ، كما كان للمخطوطات المختلفة - المحملة بعلوم الأوائل - التى وصلت مترجمة إلى الفنان عبر العصور الإسلامية أثرها الواضح الكبير في أعمال الفنان المسلم نتيجة للغوص فى أصولها ، والتعرف على علم هؤلاء الأوائل متوصلين عن طريق ذلك كله إلى تناسب جمالي استمد كثيرًا من أسسه وعلاقاته من التناسب الهندسي البحت أو " التناسب الذهبي الذى تتمثل فيه النسب المثالية لأبعاد الأشكال " . والذى يستمد براهينه الهندسية من نظريات المؤسسين الأوائل لعلم الهندسة أمثال إقليدس (ت : ٢٧٥ ق . م) ، وفيثاغورث (ت:٥٨٨-٥٠٣ ق.م) حيث دون علم الهندسة فيما بين (٣٣٠ - ٣٢٠ ق.م)(٥)، والتناسب الذهبي لا يستطيع الفنان تحويله إلى تناسب جمالي إلا بعد أن يضيف من فكره ووجدانه تعديلات يقدرها حسب ذوقه الرفيع وخبرته في أساليب بناء التكوينات الزخرفية كما لا يجب أن يكون التغير الحادث في النسب الهندسية كبيرًا حتى لا يفقد التكوين جمال الأبعاد الهندسية ، وإنما يكون التغير محدودًا من أجل أن تتوافق هذه النسب الرياضية مع أبعاد التكوين المتوافق بدوره وأبعاد المجال الموجود فيه .

ويقول كريسويل(٦) عند حديثه عن التناسب الذهبى أو القطاع الذهبى المطبق فى التكوينات الزخرفية بقبة الصخرة : " أننى سوف أنقد لعدم استطاعتى تقديم البعد المضبوط بالسنتيمترات ، والمليمترات للأشرطة (الزخرفية) المتوازية التى تزين بواطن العقود ... ومن ناحية أخرى لن تشكل المقاييس عامل حسم ، فهناك اختلاف يمكن تجاهله من منطقة هندسية لأخرى، والعامل الذى يجب أن يؤخذ فى الاعتبار قبل كل شئ فى هذه المسألة التى نحن بصددها هو عامل النسبة الكائن بين واحدة وأخرى من هذه الأشرطة . والنسبة فى هذه الحالة ملفتة للنظر جدًا ، لدرجة لا يمكن إهمالها ، فإنها من الوهلة الأولى تلفت نظر الفنان المتخصص فى الزخرفة المعمارية ".

فالبحث فى التناسب الجمالى وتطبيقاته الجمالية لابد أن يتضمن هذا المنطق القائم على التطبيق التقريبى لنسب القطاع الذهبى . ذلك القطاع أو التناسب الهندسى الذى اكتشفه الفنان عبر العصور الإسلامية وطبقه بشئ من التقريب بحثًا عن القيمة الجمالية .

ولم يكن ذلك التطبيق بصورة رياضية جافة ، بهدف اقتباس هذه الأصول الهندسية وحسب ، بل كان لرهافة حس الفنان المهندس المسلم الأثر الكبير فى تطبيقها تطبيقًا جماليًا . ولقد عرف القطاع الذهبى وطبق منذ زمن بعيد فى العصور القديمة . وهذا القطاع لم يثر اندهاش صناع الفسيفساء لدى عبد الملك (بن مروان) ، حيث أنهم كانوا مدربين على احترام التقاليد الفنية القديمة جدًا ، كما هو متمثل ليس فقط فى زخرفة رواق القبلة بالمسجد الأموى ، لكن أيضًا فى التشييد الأساسى للأثر "(٧) .

والحقيقة أن أصول هذه القطاعات الذهبية أو النسب الذهبية ، كانت بمثابة التمهيد الأساسى الذى فتح الطريق أمام الفنانين لتطبيق التناسب الجمالى

بالعصور الإسلامية ، وهى الأصول التى كانت قد اشتقت من نسب دقيقة ، لتأمل الطبيعة من قبل الفنانين والمكتشفين الأوائل لهذه النسب . فكانت الطبيعة بمثابة المنبع الأصلى الذى استقى منه الفنان قيمها وتناسباتها ، بعد تأملها ، حيث تتمثل الطبيعة فى ذهن الفنان ، ثم يعدلها مرة ويحورها أخرى ، ويتعاقب فيها الحذف والإضافة ، حتى تستحيل إلى عمل فنى يتمثل فيه كل من الإبداع والأصالة . إن الفنان عندما يصور الطبيعة فإنه يحذف منها ما ينتقص من جمالها ، أو قد يضفى إليها من مشاعره وإحاسيسه ودراساته وقيمة ومبادئه ما يزيد من جمالها ، وهو ما ينعكس بدوره على هيئتها وتركيبها ونسب عناصرها .

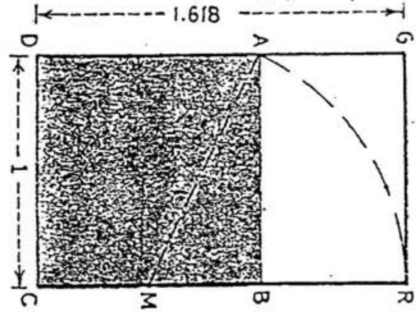
فالأصول الأولى للتناسب التى استخدمها الإغريق ، لم يكتشفها الفنان الإغريقى نتيجة لدراسات نظرية ، وإنما أوجدها نتيجة لملاحظة الطبيعة بعمق وفهم شديدين(٨) .

والتناسب الهندسى لم يكن وليد الصدفة لكنه كان نتاج تأمل متواصل للطبيعة وبحث مضنى رياضى من قبل مكتشفيه وعبر عصور شاع فيها التواصل البحثى الرياضى . تلك المكتشفات الرياضية التى توارثها المهتمون من المهندسين والفنانين واستغلوها وأقاموا عليها إبداعاتهم المعمارية والفنية تأسيسًا على أصولها النظرية وصولاً إلى قيم جمالية تربط بين العناصر المكونة لهذه الأعمال الفنية .

وقد تمثل هذا التناسب الجمالى فى إبداعات عديدة نخص منها بالذكر النسبة الذهبية . Golden Section وهى نسبة كانت معروفة " لدى المصريين والإغريق ... وتبدو متكررة النسبة الذهبية وفى عمارتهم(٩) وبدأت (لدى الإغريق) عند أفلاطون ، وطبق عليها تياتيتوس(١٠) نظرية التحليل ، والأرجح أن تكون النظريات قد كشفها تياتيتوس أو غيره من الرياضيين ثم

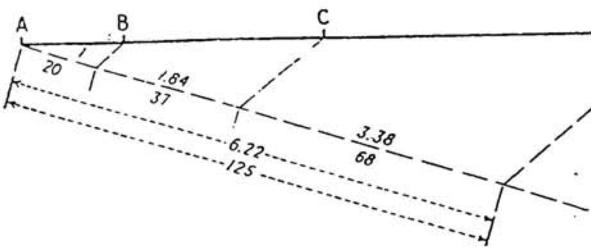
طبقها أفلاطون ... وإدخال آداه التعريف على " القسمة " يدل حتمًا على أن المراد قسمة خاصة ، هى تقسيم مستقيم قسمه ذات وسط وطرفين ... وفى عصر متأخر أطلق على هذه القسمة الشهيرة اسم القسمة المقدسة ، أطلق هذا عليها لوقا باتشيولى سنة ١٥٠٩م ، وسميت بعد ذلك القسمة الذهبية ، وراجت هذه القسمة رواجًا عظيمًا وتلقفها عدد من الفنانين والصوفيين ، فذهبوا إلى أن هذه القسمة سر من أسرار الجمال(١١) " ومفكروا عصر النهضة أرجعوها إلى معنى التناسب الإلهى Divine proportion وبواسطة فيبوناسى Fibonacci بالعصر نفسه – أعيد تمثيل النسبة الذهبية رقميًا بالتسلسل المتوافق (١ : ٢ : ٣ : ٥ : ٨ : ١٣ : ٢١ = ١,٦١٨)(١٢) (ش أ) " واسم المتوسط الذهبى شائع الاستعمال حاليًا ، ويبدو أنه نشأ فى سنة ١٨٣٠م والمتوسط الذهبى يبدو ملاحظًا فى الهيكل الداخلى للنبات ... ويتجلى فى نظام ترتيب أوراقه ، كما يتجلى فى الخطوط البنائية للمحار "(١٣) .

كما أن للخط المستقيم تناسبًا ذهبيًا آخر عند تقسيمه ، وهو (١ : ١,٨٤ : ٣,٣٨)(١٤) (ش . ب) .



ش أ – التناسب الذهبى (١ : ١,٦١٨ : ٠٠٠) .

Scott (Robert Gillam) ; Design Foundamentals, Mcgrw Hill, Book company, Inc . London, 1951, 55 .



ش ب – التناسب الذهبى (١ : ١.٨٤ : ١٠٠) .
Islamic Patterns, 1976, 55

وبالبحث عن أثـر تطبيـق المهنـدس المسـلم لهـذه التناسـبات الجماليـة – الأمر الذى يعكس بوضـوح علمـه ودرايتـه بهـا – ثبـت وجودهـا مطبقـة بدقـة وعناية فى بعض العمائر المختلفة ، والممتدة ، منذ فجر الإسلام وحتى القـرن الخامس عشر الميلادى .

التناسب الجمالى بالعمارة الإسلامية

فى هذا القطاع من الأعمال المعمارية تـم الكشـف عـن تطبيقـات الفنـان المسلم للتناسب الجمالى باستخدام أدوات قياس هندسية(١٥) وذلك تطبيقًا علـى المساقط الأفقية والقطاعـات الرأسية لأعمـال معماريـة إسـلامية . ترجـع إلـى فترة زمنيـة ممتدة منـذ القـرن السـابع الميـلادى ، وحتـى القـرن الخـامس عشـر الميلادى ، وتنسب إلى كل من القدس ، ودمشق وسامراء والقاهرة ، والقيروان ، وقرطبة وهى مجموعة بلغ عددها (اثنين وعشرين أثرًا)(١٦) . استطاع فيها الباحث اكتشاف ما طبقه المهندس الفنان المسلم من نسب وتناسب وقد صنـف الباحث هذه المجموعة – فى الجدول رقم (١) – وفقًا لتسلسلها التاريخى .

ش	الأثر	تاريخ الأثر	موقع التناسب	التناسب الجمالى	موقع المقياس على الشكل
١	قبة الصخرة	١هـ / ٧م	قطاع رأسى	من قمة القبة : حتى أعلى الرقبة : حتى أسفل الرقبة : حتى تيجان أعمدة قبة البوائك = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٥
٢	قبة الصخرة	١هـ / ٧م	زخارف باطن عقد البائكة المثمنة	من أسفل الشريط الزخرفى (A) حتى أسفل الشريط الزخرفى (c) : حتى أسفل الشريط الزخرفى (D) = ١,٦١٨ : ١	٤,٦
				من أسفل الشريط الزخرفى (A) حتى منتصف الشريط (C) : حتى منتصف الشريط (D) : حتى أسفل الشرط (D) = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٣,٧
٣	المسجد الأموى	١هـ / ٨م	المسقط الأفقى	من جدار القبلة : حتى البائكة المطلة على صحن الجدار المقابل = ١ : ١,٦١٨	٦,٣
٤	المسجد الأموى	١هـ / ٨م	البوائك المطلة على الصحن	من أعلى صف العقود العليا : حتى أسفل الطراز الكتابى : حتى الأرضية = ١: ١,٦١٨	٨,٥
				من أعلى الدعامات العليا : حتى أعلى الطراز الكتابى : حتى الأرضية = ١ : ١,٦١٨	٩,٣
٥	المسجد الأموى	١هـ / ٨م	قطاع رأسى للقبة	من أعلى القبة حتى قاعدتها : حتى أعلى البوائك : حتى تاج العمود الحامل لها = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٣,٥

ش	الأثر	تاريخ الأثر	موقع التناسب	التناسب الجمالي	موقع المقياس على الشكل
٦	المسجدالأموى	١هـ / ٨م	قطاع رأسى لرواق القبلة والقبة	من أعلى القبة : حتى أسفلها : حتى أسفل النوافذ = ١,٦١٨ : ١	٣,٥
	المسجد الأموى	١هـ / ٨م	قطاع رأسي لرواق القبلة والقبة	من أعلى القبة : حتى أعلى الواجهة : حتى تيجان الأعمدة : حتى الأرض = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٤
٧	مسجد سيدى عقبة	١هـ / ٧م	قطاع رأسى لبائكة مطلة على الصحن	من قاعدة العمود : إلى تاج العمود : إلى باطنة العقد : إلى أعلى كوشتى العقد = ١ : ١,٦١٨ : ٢,٦١٨	٥,٨
٨	جامع قرطبة	٢هـ / ٨م	المسقط الأفقى	من الجدار الشمالى الغربى : حتى البائكة المطلة على الصحن : حتى جدار القبلة = (١,٦١٨ : ١)	٨,٨
٩	جامع قرطبة	٢هـ / ٨م	مسقط رأسى لبائكة	من قاعدة العمود : حتى تاجه : حتى باطن العقد : حتى قمة العقد = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٥,٨
١٠	مقياس النيل بالروضة	٣هـ / ٩م	مسقط أفقى	من (أ ب) : إلى مركز العمود : إلى (حـ د) = ١,٦١٨ : ١	٦,٧
١١	مقياس النيل بالروضة	٣هـ / ٩م	قطاع رأسى	من أعلى المقياس : إلى منتصف الارتفاع الكلى : إلى أعلى الأرض الأصلية : إلى قاعدة العمود = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٨,٧

ش	الأثر	تاريخ الأثر	موقع التناسب	التناسب الجمالى	موقع المقياس على الشكل
١/١١	المسجد الكبير بسامراء	٣هـ / ٩م	مسقط أفقى	نسبة طوله = عرضه هى (١٥٦م : ٢٤٠م) أى (١ : ١,٦١٨) .	
١٢	جامع ابن طولـون	٣هـ / ٩م	قطاع رأسى للرواق المطل على الصحن	من أسفل قاعدة العمود : حتى أعلى تاج العمود : المكتنف لفتحات ما بين العقود : حتى أسفل الشريط الهندسى الممتد أعلى الواجهة = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٨,٩
١٣	جامع الحاكم (المئذنة الغربية)	٤هـ / ١٠م	قطاع رأسى	من (12) : حتى (10) : حتى (7) حتى المحور الأفقى للمربعات الزخرفية الثلاثة = ١ : ١,٦١٨ : ٢,٦١٨	٦,٣
	جامع الحاكم (المئذنة الغربية)	٤هـ / ١٠م	قطاع رأسى	من (2) : حتى (5) : إلى (6) إلى (7) = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٣,٣
١٤	المئـذنة (الشمالية)	٤هـ / ١٠م	قطاع رأسى	من أعلى الطراز النباتى : إلى أسفل التكوين الرئيسى الأوسط : إلى مركز التكوين المستدير : إلى البروز السفلى = ١ : ١,٦١٨ : ٢,٦١٨	٦,٤
١٥	مشهدالجيوشى	٥هـ / ١١م	المسقط الأفقى	من المدخل الرئيسى : حتى البائكة الثانية : حتى مركز القبة : حتى نهاية بروز حنية المحراب = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٧
١٦	جامع الأقمر	٦هـ / ١٢م	المسقط الأفقى	من جدار القبلة من الخارج : أول الصحن : حتى أخر الصحن = ١,٦١٨ : ١	٦,٢

ش	الأثر	تاريخ الأثر	موقع التناسب	التناسب الجمالى	موقع المقياس على الشكل
١٧	جامع الأقمر	٦هـ / ١٢م	قطاع طولى للواجهة الغربية	من أسفل الواجهة : حتى أسفل عتب باب المدخل : حتى مركز التكوين المستدير المتمركز بالعقد المنكسر حتى قمة العقد = ١ : ١,٦١٨ : ٢,٦١٨	٥,٦
	جامع الأقمر	٦هـ / ١٢م	قطاع طولى للواجهة الغربية	من أسفل الواجهة : حتى الطراز الكتابى الممتد أفقيًا بامتداد الواجهة : حتى تيجان الأعمدة المكتنفة عقد واجهة المدخل : حتى أعلى الواجهة = ١ : ١,٦١٨ : ٢,٦١٨	٩,٢
١٨	مسجد الصالح طلائع	٦هـ / ١٢م	مسقط أفقى	من جدار القبلة من الداخل : حتى منتصف طول المسقط (بدون الزيادة الجنوبية الغربية) : حتى البائكة الشمالية الغربية المطلة على الصحن : حتى الجدار الشمالى الغربى (قبل الزيادة) ٠ = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١ : ١	٨
١٩	مسجد الصالح طلائع	٦هـ / ١٢م	قطاع طولى للواجهة القبلية	من أعلى الشرافات المسننة : حتى البروز الممتد أفقيًا بامتداد الواجهة الذى يدنو النوافذ العليا : حتى أسفل عتب النوافذ السفلى : حتى الأرض = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨	٨
٢٠	قبة الإمام الشافعى	٧هـ / ١٣م	قطاع رأسى للواجهة الغربية	من أسفل الواجهة : حتى المحور الأوسط الفاصل بين شريط الزخارف الذى يعلو مربع القبة وبين الشريط الزخرفى الذى يدنو (أ) : حتى قمة الشرافات المسننة التى تتوج مرحلة انتقال القبة (ب) حتى بداية انحناء قوس القبة (المدبب ذو المركزين) (حـ) = ١ : ٦١٨ : ٢,٦١٨	٧,٤

ش	الأثر	تاريخ الأثر	موقع التناسب	التناسب الجمالى	موقع المقياس على الشكل
	قبة الإمام الشافعى	٧هـ / ١٣م	قطاع رأسى للواجهة الغربية	من أسفل الواجهة : حتى البروز المرتكز عليه فتحات الضريح : حتى أسفل الشريط الزخرفى المتوج لمربع القبة : حتى المحور الأفقى المرتكز عليه فتحات منطقة انتقال القبة = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٤,٣
٢١	قبة الإمام الشافعى	٧هـ / ١٣م	قطاع رأسى للقبة من الداخل	من خط الأرض : حتى المحور الأفقى المار بالطراز الكتابى الرئيسى المار بحنية المحراب : حتى الطراز الزخرفى الذى يعلو حنية المحراب : حتى المحور الأفقى المرتكز عليه الصف السفلى من حطات مرحلة الانتقال = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٢,٨
٢٢	قبة شجر الدر	٧هـ / ١٣م	قطاع رأسى للواجهة	من أسفل الواجهة : حتى أعلى مربع القبة : = حتى أعلى منطقة انتقالها : حتى زاوية انكسار عقد القبة المنكسر = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٧,٨
٢٣	جامع الظاهر بيبرس	٧هـ / ١٣م	المسقط الأفقى	من أقصى بروز لبرجى جدار القبلة : حتى محور المدخلية الجانبيين : حتى أقصى بروز للمدخل الرئيسى الجنوبى الغربى = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٨,٨
٢٤	جامع الظاهر بيبرس	٧هـ / ١٣م	الواجهة الشمالية الشرقية	من أعلى التكوين المربع العلوى : حتى مركز التكوين النباتى المستدير : حتى أعلى التكوين المربع السفلى : حتى أسفله = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٦,٩
٢٥	جامع الظاهر بيبرس	٧هـ / ١٣م	قطاع رأسى للجدار	من المدماك ٣٦ السفلى : حتى العتب السفلى للنوافذ : حتى البروز الذى يدنو الشرافات : حتى أعلى الشرافات المسننة = ١ : ١,٦١٨ : ٢,٦١٨	٦,٤

ش	الأثر	تاريخ الأثر	موقع التناسب	التناسب الجمالى	موقع المقياس على الشكل
٢٦	مدرسة وقبة المنصور قلاون	٧هـ / ١٣م	الواجهة الرئيسية	من أعلى الشرافات المسننة: حتى أسفل النافذة القنديلية العليا صغيرة الحجم: حتى البروز الفاصل أسفل . الطراز الكتابى الممتد بامتداد الواجهة : حتى أسفل النافذة السفلى = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٩
				من أعلى الشرافات حتى أعلى الطراز الكتابى الممتد بالواجهة : حتى أسفل الواجهة = ١,٦١٨ : ١	١٢,٥
٢٧	مدرسة وقبة المنصور قلاون	٨هـ / ١٤م	المئذنة (الدورة المربعة)	من أعلى الشكل المستدير : حتى أسفله : حتى أعلى العقد المنكسر : حتى باطن العقد = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٣,٨
	مدرسة وقبة المنصور قلاون	٨هـ / ١٤م	(الدورة المربعة)	من أعلى الشكل المستدير الأيمن : حتى العقد المنكسر : حتى تاج العمود الركنى بالنافذة الصماء : حتى قاعدة العمود = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	١٠,٦
٢٨	مدرسة وقبة المنصور قلاون	٧هـ / ١٣م	المئذنة	من أعلى الدورة المستديرة العليا : حتى أعلى الطراز الكتابى الممتد بالدورة المربعة السفلى : أسفل الشرافات = ١,٦١٨ : ١	١٣,٤
٢٩	مدرسة وقبة المنصور قلاون	٧هـ / ١٣م	القبة من الخارج	من قمة القبة حتى الإطار البارز الذى يعلو منتصف منطقة الانتقال المثمنة : حتى أعلى الشرافات المسننة : حتى أعلى العقود المزدوجة المحيطة بالنوافذ القنديلية = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٧,٥

ش	الأثر	تاريخ الأثر	موقع التناسب	التناسب الجمالى	موقع المقياس على الشكل
٣٠	مدرسة وقبة المنصور قلاون	٧هـ / ١٣م	قطاع رأسى للقبة من الداخل	من قمة عقد القبة : حتى قمة صف العمود التى تفتح بالرقبة : حتى قاعدة النوافذ القنديلية العليا التى تفتح بالقبة = ١,٦١٨ : ١	٧,٥
				من قمة عقد القبة : حتى النوافذ (القنديلية) العليا التى تفتح بالقبة : حتى أعلى الطراز الكتابى الممتد أعلى الوزرة : حتى قرب أرضية الضريح = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	١٢,٢
				من قمة عقد القبة : حتى مركز النافذة القنديلية : حتى أرضية الضريح = ١,٦١٨ : ١	١٤,٨
				من أسفل النوافذ القنديلية التى تفتح بالقبة : حتى أسفل النوافذ القنديلية التى تفتح بجدار القبلة : حتى الطراز الكتابى الممتد بجدار القبلة : حتى أعلى الوزرة الرخامية = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٥
٣١	مدرسة وقبة المنصور قلاون	٧هـ / ١٣م	قطاع رأسى بالصحن	من أسفل الواجهة (أ) : إلى باطن العقد السفلى (ب) :إلى باطن العقد الأوسط (حـ) : إلى قمة العقد (د) = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٩
٣٢	مدرسة وقبة المنصور قلاون	٧هـ / ١٣م	المحراب	من أعلى عقد النافذة التى تعلو المحراب : حتى أسفل الشريط الكتابى الذى يدنو طاقية المحراب : حتى الأرض = ١,٦١٨ : ١	١٢,٣

ش	الأثر	تاريخ الأثر	موقع التناسب	التناسب الجمالى	موقع المقاس على الشكل
٣٢	مدرسة المنصور قلاون	٧هـ / ١٣م	المحراب	من أعلى عقد النافذة التى تعلو المحراب : حتى أسفل طاقية المحراب : حتى أعلى الأشرطة الرخامية الرئيسية التى تدنو حنية المحراب : حتى الأرض = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	١٠
٣٣	مسجد أحمد المهمندار	٨هـ / ١٤م	حنية المدخل	من القمة المدبية لعقد حنية المدخل : حتى منتصف صفوف المقرنصات : حتى أعلى فتحة الطاقة المستديرة بالصدر : حتى أسفل الطاقة المستديرة : ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٥,٥
				من القمة المدبية لعقد حنية المدخل : حتى أعلى الشريط الكتابى المنحنى فوق الطاقة المستديرة : حتى أعلى العتب المتوج لفتحة الباب = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٧,٥
٣٤	مسجد أحمد المهمندار	٨هـ / ١٤م	قطاع رأسى للواجهة الشرقية	من أسفل الواجهة : حتى أسفل عتب الباب : حتى مركز النافذة المستديرة: حتى أعلى الطراز الكتابى المنحنى الذى يعلو النافذات = ١ : ١,٦١٨ : ٢,٦١٨	٤,١
				من أسفل الواجهة : حتى أسفل الطراز الكتابى الممتد بالواجهة : حتى مركز التكوين المستدير الذى يتوسط العقد المنكسر (أ) : حتى قمة الشرافات = ١ : ١,٦١٨ : ٢,٦١٨	٧,١

ش	الأثر	تاريخ الأثر	موقع التناسب	التناسب الجمالى	موقع المقياس على الشكل
٣٥	مسجد أحمد المهمندار	٨هـ / ١٤م	قطاع رأسى للواجهة	من أسفل الواجهة : حتى أعلى ارتفاع الطراز الكتابى : حتى أسفل صفوف المتدليات : حتى أعلى القاعدة المربعة للقبة = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٧
٣٦	مسجد الماس	٨هـ / ١٤م	مسقط أفقى	من بروز حنية المحراب : إلى مركز تقاطع قطرى الصحن : إلى بروز حنية محراب القبة = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٩,٢
٣٧	مسجد الماس	٨هـ / ١٤م	قطاع رأسى بالمدخل	من أعلى واجهة المدخل : حتى قاعدة العمود الركنى بالنافذة العليا : حتى منتصف المسافة بين أعلى العقد العاتق الذى يعلو النافذة السفلى وبين أسفل النافذة : حتى أسفل الواجهة = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	١٠,١
				من أعلى الواجهة : حتى أعلى الصنج المعشقة : حتى أسفل الواجهة = ١,٦١٨ : ١	١٢,٣
٣٨	مسجد الماس الحاجب	٨هـ / ١٤م	قطاع رأسى لرواق القبلة المطل على الصحن	من خط الأرض : حتى أعلى التكنة المرتكز عليها رجل العقد : حتى مركز الفتحة المستديرة فيما بن العقود حتى أعلى الواجهة = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٦,٣
٣٩	جامع الناصر محمد بالقلعة	٨هـ / ١٤م	مسقط أفقى	من الجدار الشمالى الغربى من الداخل : حتى الجهة الجنوبية الشرقية للصحن : حتى جدار القبلة من الداخل = ١,٦١٨ : ١	٦,٥

ش	الأثر	تاريخ الأثر	موقع التناسب	التناسب الجمالى	موقع المقياس على الشكل
٤٠	جامع الماردانى	٨هـ / ١٤م	مسقط أفقى	من بروز حنية المحراب : حتى مركز الميضأة المتوسطة للصحن : حتى الجدار الشمالى الغربى = ١,٦١٨ : ١	١٢,٥
				من أقصى بروز للمدخل الجنوبى الغربى : حتى مركز الميضأة : حتى دكة المبلغ : حتى مركز القبة التى تتقدم المحراب = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٩
٤١	جامع الماردانى	٨هـ / ١٤م	مسقط رأسى للواجهة الشمالية	من القمة المدببة لعقد قبو المدخل : حتى تاج العمود العلوى الركنى المكتنف لتجويف المدخل : حتى أعلى العقد العاتق : حتى أسفل العقد المستقيم الذى يعلو فتحة الباب = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٧,٢
				من سطح الأرض إلى تاج العمود الجانبى السفلى : إلى قاعدة العمود الركنى العلوى : إلى تاج العمود نفسه = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٦
				من أعلى الشرافات المسننة : إلى أسفل فتحة النافذة العليا : إلى أعلى فتحة النافذة السفلى : إلى أسفل فتحتها = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٩,٥
				من أسفل الشرافات المسننة : إلى أسفل الشريط الكتابى الممتد بالواجهة : إلى منتصف النافذة العليا : إلى أسفلها = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٣,٨
٤٢	جامع الطنبغا الماردانى	٨هـ / ١٤م	تكوين بصدر المدخل	من أعلى التكوين الزخرفى : حتى مركزه : حتى أسفل الورقة النباتية ثلاثية الفصوص : حتى أسفل التكوين = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٥ ٧,٣

ش	الأثر	تاريخ الأثر	موقع التناسب	التناسب الجمالى	موقع المقياس على الشكل
٤٣	جامع الطنبغا المارداني	٨هـ / ١٤م	قطاع رأسى للقبة	من سطح الأرض : حتى أعلى منطقة انتقال القبة : حتى قمة عقد القبة من الخارج = ١,٦١٨ : ١	١٤
				من سطح الأرض : حتى الروابط الخشبية : حتى باطن عقد البائكة : حتى أعلى الشريط الكتابى = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٤
				من سطح الأرض : حتى أسفل الشريط الكتابى : حتى أسفل مرحلة انتقال القبة : حتى أعلى مرحلة الانتقال = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٧,٢
				من قمة عقد القبة من الخارج : حتى أعلى مرحلة انتقال القبة : حتى أعلى الشريط الكتابى : حتى منشأ عقود البائكة = ٢,٦١٨ = ١,٦١٨ : ١	٨,٧
٤٤	جامع الطنبغا المارداني	٨هـ / ١٤م	المحراب	من أسفل النافذة التى تعلو المحراب : حتى أسفل طاقية المحراب : حتى أسفل التكوين الهندسى الرأسى المكتنف لحنية المحراب : حتى الأرض = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٧,٢
٤٥	جامع الطنبغا المارداني	٨هـ / ١٤م	قطاع رأسى للمئذنة	من قمة المئذنة : حتى أسفل أعمدة الشرفة الوسطى : حتى أسفل أعمدة سور الشرفة السفلى = ١,٦١٨ : ١	٩,١
				من أسفل الدورة المربعة : إلى أسفل الشرفة السفلى : إلى أسفل الشرفة الوسطى = ١,٦١٨ : ١	٩,٣

ش	الأثر	تاريخ الأثر	موقع التناسب	التناسب الجمالى	موقع المقياس على الشكل
٤٦	المدرسة الأقبغاوية الملحقة بالجامع الأزهر	٨هـ / ١٤م	المحراب	من أعلى الطراز الكتابى الممتد أعلى المحراب : حتى أسفل طاقية المحراب : حتى أعلى الأشرطة الرخامية الرأسية التى تدنو حنية المحراب : حتى الأرض = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٨,٨
٤٧	جامع أصلم السلحدار	٨هـ / ١٤م	صدر المدخل	من أعلى التكوين الهندسى المربع حتى أسفله : حتى منتصف العقد العاتق ذو الصنج المعشقة = ١,٦١٨ : ١	٨,٣
				من أعلى التكوين الهندسى المربع : حتى منتصف التكوين الكتابى الذى يدنو التكوين الهندسى السابق : حتى أسفل عتب باب المدخل = ١,٦١٨ : ١	٩,٥
٤٨	مسجد أيدمر البهلوان	قبل ٨هـ/١٤م	المئذنة	من أسفل القاعدة المربعة : حتى أعلاها : حتى أعلى شرفة الدورة المثمنة : حتى قمة المئذنة = ١,٦١٨ : ١,٦١٨ : ٢,٦١٨	١١,٥
٤٩	مدرسة السلطان حسن	٨هـ / ١٤م	المساقط الأفقية للأيوانات المطلة على الصحن	من الجدار (أ) من إيوان القبلة : حتى الخط الواصل بين الإيوانين الجنوبى الغربى والشمالى الشرقى (ب) : حتى الخط (حـ) بفتحة الإيوان الشمالى الغربى المطلة على الصحن : حتى الجدار (د) بالإيوان نفسه = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٩,٦

ش	الأثر	تاريخ الأثر	موقع التناسب	التناسب الجمالى	موقع القياس على الشكل
٥٠	مدرسة السلطان حسن	٨هـ / ١٤م	الواجهة الجنوبية الشرقية	من أعلى الشرافات : حتى أسفل الدائرة التى تتوسط التكوين الهندسى المستدير : حتى أعلى فتحتى النافذتين السفلتين حتى الأرض : ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	١٠,٥
				من أعلى الشرافات المسننة : حتى أسفل صفوف المتدليات التى تتوج الواجهة : حتى أسفل حنيتى العقدين اللذين يدنوان المتدليات : حتى أسفل المتدليات التى تدنو العقد سالف الذكر = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٤
				من أعلى الشرافات : حتى أسفل المتدليات المتوجة لحنية الواجهة : حتى أسفل النافذة القنديلية : حتى أعلى العتب المتوج لفتحة النافذة السفلية : ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٨
				من أعلى الشرافات المسننة : حتى أسفل العقد المتوج لحنية الواجهة : حتى أسفل الطاقة المستديرة التى تفتح بالنافذة القنديلية : حتى أسفل النافذة القنديلية = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٦,٥
				من أعلى الشرافات المسننة : حتى مركز الطاقة المستديرة : حتى أعلى عتب النافذة السفلية : حتى أسفل فتحة النافذة السفلية = ٢,٦١٨: ١,٦١٨ : ١	١٠
				من أعلى الشرافات المسننة : حتى أسفل النافذة القنديلية وأعلى تاج العمود الركنى للواجهة : حتى أسفل الواجهة ١,٦١٨ : ١	١٣

ش	الأثر	تاريخ الأثر	موقع التناسب	التناسب الجمالى	موقع المقياس على الشكل
٥١	مدرسة السلطان حسن بالقاهرة ، والجامع الأموى بدمشق	٨هـ / ١٤م	الدرقاعة	من أعلى التكوين حتى مركزه : حتى قمة الورقة ثلاثية الفصوص السفلية : حتى أسفل التكوين = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	
٥٢	مدرسة السلطان حسن	٨هـ / ١٤م	قطاع رأسى للطرقة ودورة المياة	من قمة القبة : حتى قمة العقد المتقدم للطرقة المودية إلى دورة المياة : حتى أعلى العقد العاتق : حتى أسفل عتب الباب =٢,٦١٨: ١,٦١٨ : ١	٦
٥٣	مدرسة السلطان حسن	٨هـ / ١٤م	باب الدخول إلى الصحن	من أعلى الشريط الحجرى المحيط بواجهة الباب : حتى أسفل العتب ذو الصنج المعشقة الذى يعلو عتب الباب : حتى منتصف فتحة الباب : حتى الأرض = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٩,٣
				من أسفل حتى أعلى العتب المتوج لفتحة الباب : حتى أعلى النافذة التى تعلو الباب : حتى نهاية الشريط البارز الحجرى المحيط بالواجهة = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٩,٥
٥٤	مدرسة السلطان حسن	٨هـ / ١٤م	باب الدخول إلى المدرسة المالكية	من أعلى البروز الحجرى المحيط بواجهة باب الدخول : حتى أسفل النافذة التى تفتح فى صدر الواجهة : حتى منتصف المسافة بين الطراز الكتابى والعقد العاتق : حتى أسفل العقد العاتق = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٧,٥
				من أعلى البروز الحجرى المحيط بواجهة الباب : حتى أعلى العقد العاتق : حتى أسفل الطراز الكتابى المكتنف لفتحة الباب : حتى الأرض = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	١٣

ش	الأثر	تاريخ الأثر	موقع التناسب	التناسب الجمالى	موقع المقياس على الشكل
	مدرسة السلطان حسن	٨هـ / ١٤م	قاعة الضريح	من أسفل النوافذ التى تعلو مقرنصات مرحلة الانتقال : حتى أسفل النافذة المستديرة التى تدنو مرحلة الانتقال : حتى أسفل عقود المحاريب الثلاثة : حتى الأرض = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	أ٥
٥٥	مدرسة السلطان حسن	٨هـ / ١٤م	إيوان القبلة	من أعلى الشريط الكتابى الممتد بجدار القبلة : حتى أسفل الشريط الكتابى الممتد أسفل عقد المحراب : حتى الأرض ١,٦١٨ : ١	١٣,٣
				من الأرض حتى مركز الدائرة التى تتوسط تجويف المحراب والمذكور بها لفظ الجلالة : حتى أسفل الشريط الكتابى الممتد أعلى كوشتى العقد : حتى أعلى الشريط الكتابى الممتد بجدار القبلة = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٨,٥
				من الأرض حتى أسفل الشريط الكتابى الممتد أسفل عقد المحراب : حتى مركز واجهة العقد العلوى للمحراب : حتى أعلى الطراز الكتابى الذى يعلو كوشتى عقد المحراب = ٢,١٦٨ : ١,٦١٨ : ١	
				من الأرض : حتى قمة العقد السفلى لطاقية المحراب : حتى نهاية الشريط الزخرفى الممتد فوق الشريط الكتابى أعلى حدار القبلة = ١,٦١٨ : ١	

ش	الأثر	تاريخ الأثر	موقع المتناسب	التناسب الجمالى	موقع المقياس على الشكل
٥٦	مدرسة السلطان حسن	٨هـ / ١٤م	قاعة الضريح	من قمة القبة من الداخل :حتى أعلى النوافذ التى تفتح بالقبة : حتى أسفل الصفوف الثلاثة العليا للمقرنصات حتى أعلى النافذة المستديرة = ١,٦١٨ : ٢,٦١٨	٥
				من قمة القبة : حتى أسفل النوافذ التى تفتح بالقبة : حتى أعلى النافذة المستديرة : حتى أعلى الشريط الكتابى الممتد بجدار القبلة = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٦,٥
				من قمة القبة : حتى أسفل منطقة انتقال القبة (من الثمن إلى المستدير) حتى منتصف ارتفاع الشريط الكتابى الممتد بجدار القبلة : حتى الأرض = ٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١	٨,٥

نتائج الدراسة :

من الجدول سالف الذكر رقم (١) يمكن استنتاج الحقائق التالية :

١ - شاع بالعمائر الإسلامية - موضع البحث التناسب الجمالى الهندسى (١ : ١,٦١٨ : ٠٠٠) دون غيره ، حيث أمكن اكتشاف تطبيق هذا التناسب بكل المواقع الأثرية الستة والخمسون المذكورة بالجدول(١) ، دون غيرها من العمائر المتعددة التى جرى عليها البحث عن هذا التناسب ، والتى ترجع إلى الفترة الزمنية ذاتها .

٢ - استخدم المعمار هذا التناسب الهندسى بالعمائر عبر فترة زمنية امتدت منذ فجر الإسلام وحتى القرن (١٤م) ، وإن ندرت فى بعض مراحل هذه الفترة الممتدة ، كما هو مبين فى الجدول (رقم ٢) التالى :

جدول (رقم ٢)

القرن هـ	١هـ	٢هـ	٣هـ	٤هـ	٥هـ	٦هـ	٧هـ	٨هـ	الإجمالى
عدد الآثار	٣	٢	٢	١	١	٢	٤	٨	٢٢ أثرًا
عدد حالات التناسب	٩	٣	٣	٥	١	٥	١٨	٤٦	٩٠حالة
ترتيب كثافة تطبيق التناسب عبر العصور	٣	٦	٥	٤	٧	٤	٢	١	

وقد تمثل تطبيق هذا التناسب فى القرن السابع الميلادى بقبة الصخرة بالقدس (٧٢هـ - ٦٩١م) بنسب أجزاء القطاع الرأسى للقبة (ش ١) ، وبزخارف باطن عقد البائكة المثمنة (١٧) (ش ٢) . وبالمسجد الأموى بدمشق (٨٨ - ٩٦هـ / ٧٠٧ - ٧١٤م) بأقسام المسقط الأفقى للأثر (لوحة٣) . وبالبوائك المطلة على الصحن (ش ٤ ، ٥ ، ٦) .

وهو القرن الذى تمثلت فيه بوضوح تأثيرات فنون الحضارات السابقة بما تضمنته من ظواهر فنية وأسس هندسية ، ومنذ ذلك الحين انطلقت الفنون الإسلامية إلى آفاق فنية ، تميزت فيها بتطبيقاتها وأسسها الهندسية عن غيرها من فنون الحضارات المختلفة .

لقد اهتم الفنان منذ فجر الإسلام بالقيم الجمالية الهندسية وبتطبيقه لها وذلك يعكس قناعته وإدراكه للأثر الجمالى الذى يتركه تطبيق هذا التناسب الهندسى فى الأعمال المعمارية ، فضلاً عما لذلك من أثر فى تحقيق الارتياح النفسى تجاه نسب الأجزاء المعمارية المكونة للأثر والمقسمة – عند تصميمها – وفقًا للأساس الهندسى المتمثل فى التناسب الجمالى (١ : ١,٦١٨ ...) .

٣ – تبين من هذه الدراسة ومن الجدول رقم (١) أن الفنان استغل هذا التناسب الجمالى فى مواقع مختلفة بالأثر الواحد ، اختلفت بدورها من أثر لآخر ، فمن الجزء الخاص " بموقع التناسب من الأثر " بالجدول رقم (١) يمكن استنتاج ما يلى :

(أ) طبق هذا التناسب الجمالى (١ : ١,٦١٨ ...) بالواجهات الخارجية فيما بين التقسيمات الرئيسية لها وقد تمثل ذلك فى بعض آثار ترجع إلى عصور مختلفة ، يعد أقدمها الواجهة الخارجية للجامع الأقمر (٥١٩هـ/١١٢٥م) ، فيما بين سطح الأرض ، وعتب الباب وحتى أعلى صدر المدخل (ش ١٧) وكذا بواجهة جامع الصالح طلائع (٥٥٥هـ/١١٦٠م) ، فيما بين التقسيمات الرئيسية للواجهة أى فيما بين أسفل الواجهة ، والشرافات المتوجه لها (ش ١٩) . وكذا بواجهة قبة الإمام الشافعى (٦٠٨هـ/١٢١١م) فيما بين أسفل الواجهة وأعلى مربع القبة ، ثم أعلى الشرافات المسننة المتوجه لمرحلة انتقالها ، (ش ٢٠) ، وكذلك تكرار التقسيم ذاته بقبة شجرة

الدر (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) ، (ش ٢٢) . كما هو متمثل كذلك فى جامع الظاهر بيبرس (٦٦٥-٦٧هـ/١٢٦٦-٦٩م) بالواجهة الشمالية الشرقية منه (ش٢٤) حيث استغل الفنان هذا التناسب فى تقسيم أبعاد التكوينات الزخرفية عن بعضها وكذلك بالجدار الشمالى الغربى (ش ٢٥) فيما بين أسفل الواجهة وحتى الشرافات المسننة . وفى مدرسة وقبة المنصور قلاون (٦٨٣-٨٤هـ/١٢٨٤-٨٥م) (ش ٢٦) ، قسم المعمار واجهة الأثر من أعلى الشرافات المسننة وحتى النافذة السفلى على أبعاد متوافقة أساسها ذلك التناسب الهندسى ، كما طبق هذا التناسب فيما بين أبعاد القبة وبين قاعدتها وأعلى واجهة الأثر من الخارج (ش ٢٩) وفى جامع أحمد المهمندار (٧٢٥هـ/١٣٢٤-٢٥م) طبق المصمم هذا التناسب على أبعاد الواجهة ، فيما بين سطح الأرض ، والشريط الكتابى الممتد بامتداد الواجهة ، وحتى الشرافات المتوجه لها (ش ٣٤ ، ٣٥). وفى جامع الماردانى (٧٣٩-٤٠هـ/ ١٣٣٩-٤٠م) استغل المعمار هذا التناسب الهندسى فى توزيع عناصر الواجهة توزيعًا هندسيًا جماليًا ، حيث قسمت الواجهة الشمالية للأثر من قمة قبو المدخل حتى العمود الركنى العلوى ، حتى أعلى العقد العاتق ، حتى أسفل العقد المستقيم المتوج لفتحة الباب ، وفقًا للتناسب الهندسى (٢,٦١٨ ١,٦١٨: ١) ، وكذلك عند قياس نسب أجزاء الواجهة من أسفل إلى أعلى وجدان المعمار قد راعى تطبيق التناسب ذاته من سطح الأرض إلى تاج العمود الركنى السفلى ، وحتى قاعدة العمود الركنى العلوى ، ثم إلى تاج العمود نفسه ، وكذلك من أعلى الشرافات المسننة إلى أسفل النافذة المزدوجة العليا ، وحتى أعلى وأسفل فتحة النافذة السفلى ، ومن أسفل الشرافات المسننة إلى أسفل الشريط الكتابى الممتد بالواجهة ، وحتى منتصف النافذة العليا ، ثم إلى أسفلها . وكذلك طبق

التناسب نفسه فيما بين الشرافات المسننة ، وإلى أسفل النافذة العليا ، وحتى أعلى العقد المستقيم الذى يعلو النافذة السفلى ، (ش ٤١) . وفى مدرسة السلطان حسن (٦٥٧-٦٤هـ/١٣٥٦-٦٢م) التزم المعمار تطبيق ذلك التقسيم الجمالى فى عدة واجهات ، متمثل ذلك فى الواجهة الجنوبية الشرقية (ش ٥٠) حيث قسمت من أعلى الشرافات المسننة حتى أسفل الواجهة وفقًا للنسبة الهندسية (١ : ١,٦١٨) . وفى الواجهة الجنوبية الشرقية بالأثر نفسه طبق المعمار التناسب الجمالى (١ : ١,٦١٨ : ٢,٦١٨) عند تقسيمه لأبعاد الواجهة من أعلى الشرافات المسننة حتى خط الأرض ، مراعيًا تطبيق هذا التناسب عدة مرات فيما بين العناصر المعمارية المكونة للواجهة والمتمثلة فى الشرافات المسننة ، والتكوينات الزخرفية ، والنوافذ (ش ٥٠) ، أو فيما بين الشرافات، وصفوف المتدليات ، والعقود . أو فيما بين الشرافات المسننة والمتدليات ، والنوافذ ، والأعتاب . أو فيما بين الشرافات المسننة ، والعقود ، والفتحات ، والنوافذ ، أو فيما بين أعلى الشرافات ، والنوافذ ، وحتى خط الأرض .

وبالدراسة المقارنة للتناسبات الجمالية لواجهات الآثار عبر العصور ، ثبت أن هناك ظاهرة شائعة تمثلت فى تطابق التصميم بين المهندسين من حيث تقسيم الواجهات - المقسمة وفقًا للتناسب الجمالى (١ : ١,٦١٨ : ...) وذلك من حيث موقع التقسيم ، فقد تمثل ذلك منذ عهد بناء واجهة الجامع الأقمر (ش ١٧) ، حيث قسم المهندس الواجهة وفقًا للتناسب الجمالى ، (أسفل الواجهة : حتى أسفل عتب الباب الرئيسى : حتى مركز التكوين أو النافذة المتمركزة بصدر المدخل : حتى أعلى العقد المتوج للباب) . فتمثل ذلك أيضًا فى مسجد الصالح طلائع (ش ١٩) ، ومسجد أحمد المهمندار (٣٤) ، وجامع الماردانى (ش ٤١) .

أو وفقًا للتقسيم سالف الذكر لكن منهيًا التناسب عند الشرافات المتوجه للواجهة . كما هو متمثل فى واجهة قبة الإمام الشافعى (ش ٢٠) وواجهة قبة شجرة الدر (ش ٢٢) ، والواجهة الشمالية الغربية لجامع الظاهر بيبرس (ش ٢٥) وواجهة مسجد أحمد المهمندار (ش ٣٥) .

(ب) اتخذ المعمار من التناسب الجمالى – موضع البحث أساسًا لتحديد نسب أجزاء المئذنة إلى بعضها ، وقد تحقق ذلك فى مئذنتى جامع الحاكم (٣٨٠ – ٤٠٣هـ/٩٩٠ – ١٠١٣م) ، فيما بين التقسيمات الرئيسية المتمثلة فى الأشرطة الزخرفية الممتدة بواجهاتهما (ش ١٣ ، ١٤) ، حيث الأشرطة الكتابية الكوفية والأشرطة النباتية وغيرها من التكوينات المربعة والمستديرة ، كما تمثل ذلك فى مدرسة المنصور قلاون ، بالدورة المربعة منها (ش ٢٧). عند توزيع المعمار لأبعاد العناصر المكونة لها ، وكذلك طبق هذه النسبة بحيث شملت أبعاد المئذنة ككل من أعلى الدورة المستديرة العليا ، وحتى أسفل الشرافات (ش ٢٨) وفى جامع الماردانى طبق المعمار المسلم التناسب الهندسى نفسه فيما بين الأجزاء المكونة لدورات المئذنة ، متمثل ذلك فيما بين قمة المئذنة حتى أسفل أعمدة الشرفة الوسطى ، حتى مثيلاتها بالشرفة السفلى، وكذلك فيما بين أسفل الدورة المربعة ، وإلى أسفل الشرفة الوسطى (ش٤٥) كذلك تمثل هذا التناسب بمئذنة مسجد أيدمر البهلوان (قبل٧٤٧هـ/١٣٤٦م) فيما بين أسفل القاعدة المربعة ، وأعلاها ، وحتى أعلى الشرافات الدورة المثمنة (ش ٤٨) .

وبالدراسة المقارنة للحالات النادرة من التناسب الجمالى المطبق بالمآذن موضع الدراسة ثبت أن المصمم قد قسم المحاور الأفقية الرئيسية بالمآذن وفقًا للتناسب الجمالى وقدتمثل ذلك فى جامع الحاكم (ش ١٣) ، ومدرسة وقبة قلاون (ش ٢٧ ، ٢٨) ، وذلك فيما بين الأشرطة الزخرفية الرئيسية الأفقية .

كما وأن المصمم قد قسم أبعاد الدورات المكونة منها المئذنة وفقًا للتناسب الهندسى وذلك فى نسبة ارتفاع القاعدة المربعة : إلى ارتفاع الدورة المثمنة : إلى باقى ارتفاع المئذنة ، كما هو متمثل فى جامع الماردانى (ش٤٥) ، ومسجد أيدمر (ش ٤٨) .

(جـ) كذلك تمثل التزام المعمار ذلك التناسب الجمالى بتطبيقه له بالقباب من الداخل عند تصميم تفاصيل العناصر المكونة لها كما هو متمثل فى أول قبة بنيت فى الإسلام ، بقبة الصخرة المشرفة (٧٢هـ / ٦٩١م) حيث بنى المعمار القبة وفقًا للتناسب الهندسى (٢,٦١٨ : ١,٦١٨ : ١) فيما بين الأجزاء المكونة لها ، من قمة القبة إلى أعلى الرقبة الحاملة لها ، ثم إلى أسفل الرقبة ، وحتى تيجان الأعمدة الحاملة للبوائك المثمنة (ش ١) .

وفى الجامع الأموى بدمشق (٨٨ - ٩٦هـ / ٧٠٧ - ١٤م) ، تمثل التناسب الهندسى نفسه فيما بين قمة القبة ، وبين قاعدتها ، وحتى أعلى البوائك ، ثم إلى تيجان الأعمدة الحاملة لها (ش ٥) ، وكذلك من قمة القبة إلى أسفلها وحتى أسفل النوافذ (ش ٥ ، ٦) ، ومن قمة القبة إلى أسفل عقد الواجهة ، حتى تيجان الأعمدة ، وحتى مستوى الأرض ، (ش ٥ ، ٦) ، كما تمثل فى مصر بقبة الإمام الشافعى (ش٢١) ، فيما بين المجاور الأفقية الرئيسية المقسمة لزخارف وحطات مرحلة الانتقال . كما تمثل ذلك بقبة مدرسة المنصور قلاوون من الداخل (ش ٣٠) ، من قمة القبة حتى النوافذ التى تفتح بجدار القبلة ذلك من أجل أن يربط المعمار بين نسب عناصر القبة، وبين نسب ما ترتكز عليه من عناصر معمارية .

كما تمثل ذلك بالأثر نفسه فى العلاقة التناسبية بين ارتفاع القبة وبين ارتفاع منطقة انتقالها ، وحتى أسفل الشرافات ، وفى جامع الماردانى تمثل

التناسب نفسه فيما بين الأجزاء المكونة للقبة ، وبين رقبتها والبوائك التى تدنوها ، كما هو متمثل فيما بين سطح الأرض ، وإلى أعلى منطقة انتقال القبة ، وحتى قمتها ، وفيما بين سطح الأرض وإلى قاعدة العقد (عند الروابط الخشبية) ، وإلى باطن العقد ، وحتى أعلى الشريط الكتابى ، وكذلك فيما بين سطح الأرض ، وحتى أسفل ثم أعلى مرحلة انتقال القبة . ومن قمة القبة حتى منشأ عقود البائكة مرورًا بأعلى مرحلة الانتقال وأعلى الشريط الكتابى (ش ٤٣) . وفى مدرسة السلطان حسن التزم المعمار ذلك التناسب عند تصميم قبة المدرسة من الداخل ، حيث حقق التناسب الهندسى بين ارتفاعات أجزاء القبة ، وبين منطقة انتقالها ، بالإضافة إلى أجزاء من جدار القبلة ، من أجل أن يتدرج ذلك التناسب الجمالى ويتكامل فيما بين أجزاء القبة والعناصر المكونة لجدار القبلة أى فيما بين كل من العناصر المعمارية ، والعناصر الزخرفية (ش٥٠،٥٦) ، فضلاً عن امتداد ذلك التناسب الجمالى من قمة القبة وحتى سطح الأرض (ش٥٦) فى علاقات تناسبية متدرجة . وبمقارنة الحالات الخاصة بنسب أجزاء القباب من الخارج ثبت أن المصمم عمد إلى هذا التقسيم فى بعض الآثار وفقًا للتناسب الجمالى فيما بين أعلى القبة أو (عند زاوية انكسار قوسها) : حتى أسفلها : حتى أسفل مرحلة انتقالها : حتى قاعدتها . كما هو متمثل فى قبة الصخرة (ش ١) ، وبالجامع الأموى (ش ٥) ، وقبة الإمام الشافعى (ش٢٠) .

وبمقارنة الحالات الخاصة بنسب أجزاء القباب من الداخل ، ثبت أن المصمم عمد إلى هذا التقسيم فى بعض الآثار وفقًا للتناسب الجمالى ، فيما بين المحاور الأفقية الرئيسية ، المتمثلة فى مستوى سطح الأرض : حتى الطراز الكتابى المار بحنية المحراب : حتى مرحلة الانتقال : حتى قمة القبة ، كما هو متمثل فى قبة الإمام الشافعى (ش ٢١) ، وقبة مدرسة المنصور قلاون

(ش ٣٠) ، وقبة جامع المارداني (ش٤٣) ، وقبة مدرسة السلطان حسن (ش٥٦) .

(د) طبق المعمار هذا التناسب الهندسي عند تصميمه لأبعاد العناصر المكونة للمدخل كما هو متمثل في مسجد أحمد المهمندار (٧٢٥هـ/١٣٢٤-٢٥م) ، حيث استغل الفنان هذا التناسب الجمالي في تحديد أبعاد العناصر المعمارية المكونة لحنية المدخل ، أي لأبعادها من قمة العقد المدبب المتوج للحنية ، حتّى منتصف صفوف المقرنصات ، حتى أعلى فتحة الطاقة المستديرة وحتى أسفلها ، أو من قمة العقد المدبب وحتّى عتب فتحة الباب (ش ٣٣) . كما تمثل ذلك التناسب بمسجد الماس (ش ٣٧) فيما بين التقسيمات الرئيسية لقطاع المدخل . وتكرر التناسب كذلك بجامع المارداني بتكوين زخرفي بصدر المدخل متمثل ذلك في الأبعاد المختلفة فيما بين أعلى التكوين الزخرفي، وحتى مركزه وإلى نهاية التكوين من أسفل (ش ٤٢) . وفي جامع اصلم السلحدار (٧٤٥-٧٤٦هـ/١٣٤٤-٤٥م) حقق المعمار ذلك التناسب تطبيقًا على الأبعاد المحصورة فيما بين أعلى التكوين الهندسي المربع ، وحتى منتصف العتب ، (ش ٤٧) .

(هـ) اتخذ المعمار من التناسب الجمالي أساسًا لتصميم الأجزاء المكونة لجدار القبلة بما فيها المحراب ، وقد تمثل ذلك في مدرسة المنصور قلاون ، عند حساب الأبعاد فيما بين أعلى عقد النافذة التي تعلو المحراب ، حتى أسفل الشريط الكتابي الذي يدنو طاقية المحراب ، حتى سطح الأرض (ش ٣٢) . وتمثل كذلك التزام الفنان بذلك التناسب الجمالي في جامع الطنبغا المارداني عند تطبيقه لهذا التناسب في الأبعاد المحصورة فيما بين أسفل النافذة التي تعلو المحراب وحتى أسفل طاقيته حتى سطح الأرض (ش ٤٤) ، وقد حقق

مهندس هذا الأثر (١٨) تطبيق التناسب الجمالى لأثر آخر ينسب إليه وهو المدرسة الاقبغاوية (٧٤٠هـ / ١٣٤٠م) الملحقة بالجامع الأزهر ، ويتمثل ذلك فى أبعاد بعض العناصر الزخرفية المزينة لجدار القبلة ، كما هو فى الأبعاد الخاصة بارتفاع الطراز الكتابى الممتد أعلى المحراب ، حتى أسفل طاقيته ، حتى سطح الأرض (ش ٤٦) متخذًا المهندس فى هذا الأثر مواقع لقياس وتطبيق التناسب الهندسى بصورة مشابهة لما بجامع الماردانى .

كما تمثل بمدرسة السلطان حسن بإيوان القبلة حيث حقق المهندس التناسب الجمالى عن حسابه لأبعاد الشريط الكتابى بالنسبة لسطح الأرض (ش٥٥) ، وعند حسابه لأبعاد العناصر الزخرفية كالشريط الكتابى الممتد أسفل عقد المحراب ، وبعده عند منتصف واجهة العقد العلوى للمحراب ، حتى الشريط الكتابى الذى يعلو كوشتى عقد المحراب .

وعند حسابه للأبعاد فيما بين سطح الأرض وبين العناصر المختلفة المزينة لحنية المحراب وحتى أعلى الشريط الكتابى الممتد بجدار القبلة (ش٥٥) .

وبالدراسة المقارنة للتناسب الجمالى لأبعاد تقسيمات جدار القبلة بالآثار المختلفة موضع البحث التزم المصمم بالمحاور الأفقية الرئيسية الممتدة بحنية المحراب ، والشاغلة للأجزاء العليا من الجدار والمتمثلة فى مدرسة المنصور قلاون (ش ٣٢) حيث طبق التناسب فيما بين المحاور الأفقية الخاصة بسطح الأرض ، وأعلى الجزء السفلى من التكوينات الرخامية الشاغلة لأسفل حنية المحراب ، وحتى الطراز الكتابى المار بأسفل طاقية المحراب ، وحتى أعلى جدار القبلة ، وهو ما تكرر فى جامع الماردانى (ش ٤٤) ، والمدرسة الأقبغاوية (ش ٤٦) ، ومدرسة السلطان حسن بإيوان القبلة (ش ٥٥) ،

ولكن التناسب فى هذه الحالات الثلاث كان ينتهى عند الطراز الممتد أعلى كوشتى عقد المحراب ، وليس أعلى جدار القبلة كما هو بمدرسة المنصور قلاون (ش ٣٢) .

(و) التزم الفنان ذلك التناسب الجمالى عند تقسيم أبعاد الأجزاء المكونة للبوائك ، كما هو متمثل بالتكوينات الزخرفية الشاغلة لبواطن عقود البوائك المثمنة بقبة الصخرة (٧٢هـ / ٦٩١م) حيث قسمت من أسفل الشريط الزخرفى (A) حتى أسفل الشريط الزخرفى (c) ، حتى منتصف وأسفل الشريط الزخرفى (D) (١٩) ، (ش ٢) . كما تمثل ذلك فى أمثلة مبكرة أخرى بالمسجد الأموى (٨٨ - ٥٦هـ / ٧٠٧ - ٧١٤م) بالبوائك المطلة على الصحن . تطبيقًا على الأبعاد المحصورة فيما بين أعلى صف بالعقود العليا ، حتى أسفل الطراز الكتابى ، وحتى سطح الأرض (ش ٤) .

كما تمثل التناسب الهندسى نفسه ببوائك رواق القبلة بمسجد سيدى عقبة بالقيروان (٧٦هـ / ٦٩٥م) ، وذلك بالأبعاد فيما بين قاعدة العمود ، وتاجه ، إلى باطن العقد ، وحتى قمة العقد (ش ٧) . وفى المسجد الجامع بقرطبة (١٦٩ - ١٧٠هـ / ٧٨٦م) تمثل التناسب الهندسى فى الأبعاد فيما بين قاعدة العمود وإلى تاجه ، وحتى باطن العقد ، ثم إلى قمته (ش ٩) وفى مصر تمثل هذا التناسب بالجامع الطولونى (ش ١٢) بالبائكة المطلة على الصحن من الرواق الشرقى ، فيما بين قاعدة العمود وتاجه ، وحتى أسفل الشريط الهندسى الزخرفى الممتد أعلى البائكة . كما تمثل بمصر مثال نادر آخر ، بمدرسة وقبة المنصور قلاون بالواجهة المطلة على الصحن (ش ٣١) ، تعمد فيه المصمم بناء العقود المتدرجة فى الارتفاع وفقًا للتناسب موضع البحث ، أى فيما بين قاعدة العمود الحامل للعقد ، وبين باطن العقد السفلى ،

وحتى باطن العقد العلوى ، ثم قمة العقد ذاته ، كما تمثل بمسجد الماس الحاجب (٧٣٠هـ / ١٣٢٩ - ٣٠م) ، فيما بين قاعدة العمود وتاجه ، وحتى الشرافات المتوجه للبائكة من أعلى (ش ٣٨) .

وبدراسة أبعاد الأجزاء المتناسبة المكونة للبوائك بالآثار المختلفة عبر العصور ، ثبت أن المصمم عمد إلى تقسيم متناسب تمثل بين سطح الأرض : وتيجان الأعمدة الحاملة للبائكة : وباطن العقد : وأعلى العقد : وحتى أعلى واجهة العقد المشغول بشريط زخرفى ، أو شرافات . كما هو فى المسجد الأموى (ش ٤) ، حيث انتهى التناسب عند أعلى عقود الصف العلوى . بينما تشابه أسلوب التقسيم سالف الذكر ، فى مسجد سيدى عقبة (ش ٧) ، وجامع قرطبة (ش ٩) ، والجامع الطولونى (ش ١٢) ، وجامع الماس (ش ٣٨) .

(ل) لم يقتصر استخدام الفنان المصمم لذلك التناسب الجمالى بالاجزاء الظاهره والخارجيه فقط من الاثر - عبر العصور - بل امتد ذلك الاستخدام إلى مناطق داخليه ، أعطاها الفنان من الأهميه بقدر ما أعطى للواجهات والمآذن والقباب وغيرها . وقد تمثل ذلك فى تكوين زخرفى يزين أحد جدران الدرقاعة بمدرسة السلطان حسن ، وهو تكوين أعطاه الفنان أهميه خاصه حيث كرره بالجامع الأموى بدمشق (ش ٥١) ، وقد تحقق فيه التناسب الجمالى بالمسافات المحصوره فيما بين أعلى التكوين ، وبين مركزه ، وحتى قمة الورقه ثلاثية الفصوص السفليه ، وإلى أسفل التكوين .

كما تمثل ذلك الأهتمام -من قبل المهندس - بالمناطق الداخليه فى المحافظه على العلاقات الجاليه فيها بين الأجزاء المعماريه المختلفه للأثر ويتمثل ذلك فى مدرسة السلطان حسن ، عند قياس العلاقه الجماليه فيما بين

ارتفاعات الأجزاء المعماريه المكونه للطرقه المؤدية إلى دورة المياه وبين إرتفاع القبة ، أى فيما بين قمة القبة وحتى قمة العقد المتقدم للطرقه ، حتى أعلى العقد العاتق ، وإلى أسفل عتب الباب (ش ٥٢) .

كما تمثل إهتمام ألمهندس بالاجزاء الداخلية من الأثر فى ضبط إبعاد الأبواب الداخلية وفقا للتناسب ألجمالى بما يتناسب جماليا مع ما حولها من عناصر معمارية وتكوينات زخرفيه ، كما هو فى مدرسة السلطان حسن بباب الدخول إلى الصحن ، حيث التزم ألمهندس ذلك التناسب الجمالى عند تصميم الأبعاد فيما بين أعلى الشريط الحجرى المحيط بواجهة الباب ، حتى أسفل العتب ، وحتى منتصف فتحة الباب ، وحتى سطح الارض (ش ٥٣) .كما وجد أن ألمهندس قد طبق ذلك التناسب بصورة عكسية ، أى عند قياس الأبعاد من أسفل إلى أعلى ويتمثل ذلك بهذا الباب –موضع البحث –وذلك من سطح الأرض ، وحتى أعلى عتب الباب ، وإلى أعلى فتحة النافذه ، وحتى نهاية الشريط الحجرى البارز المحيط بالواجهة .

وبالاثر نفسه تمثل التناسب الهندسى بالابعاد المكونه لباب الدخول إلى المدرسة المالكية ، وما حولة من عناصر معمارية ، كما هو فى الأبعاد فيما بين أعلى البروز الحجرى المحيط بواجهة باب الدخول حتى أسفل النافذه ، وحتى منتصف المسافة فيما بين الطراز الكتابى والعقد العاتق حتى أسفل العقد العاتق ، وحتى سطح الارض (ش ٥٤) .

(ى) كما ثبت بالقياس ان الفنان المسلم قد التزم تطبيق التناسب الجمالى موضع البحث – بالمساقط الافقيه للاثارمن اجل ضبط ابعاد الاثر– جماليا – على المحورين الافقى والراسى . فقد طبق المعمار هذا التناسب بالمسقط الافقى منذ فجر الاسلام متمثل ذلك فى الجامع الاموى بدمشق ،

وذلك فيما بين جــدار القبلة ،والى الباتكه المطله على الصحن ، ثم الى الجدار المقابل (ش ٣) .

كما تمثــل الالتزام بهذا التناسب الهندسى بالمسجد الكبير بقرطبـه(٢٠) عند انشائه (١٦٩-١٧٠هـ /٧٨٦م) فيما بين الجدار الشـمالى الغربى حتى الباتكه المطله على الصحن ،وحتى جدار القبله (لوحه٨) . وقد تمثــل هذا التناســب كذلك بمصــر فى العصـر العباسى (١٠ش) ، بالمسقط الافقــى لمقياس النيل بالروضه (٢٤٧هـ/٨٦١م) فـى تقسيــم أبعـاده ، وكذلـك بمشـهد الجيوشى (٤٧٨هـ/١٠٨٥م) ، وفـى تقسيم أبعـاد الأثـر فيمـا بيـن المدخـل وحتى مركــز القبــة ، ثم بروز حنيــة المحـــراب (ش١٥) . كما تمثــل ذلـك التناسـب الهندســـى بالعصـــر الفاطمــى فى المسقط الأفقى لجامــع الأقمــر (٥١٩هـ/١١٢٥م) ، فيما بين جـدار القبله من الخارج والــى أول الصحن ، وحتى اخر الصحن (ش١٦) . وكذلك بجامــع الصالح طلائـــع (٥٥٥هـ / ١١٥٧م) . فيما بين جــدار القبلــة مـن الداخــل ، وإلــى منتصـف طـول الأثـر ، (بـدون الزيـاده الشماليـة الغربيـــة) ، (ش١٨) . وفــى عصـــر المماليك البحـريـــة تمثــل هتذا التناسب الهندســـى فـى جامــع الظاهــر بيبرس ، حيـث ثبـت بالقياس أن المهندس قد طبق هذا التناسب الهندسى فـى الأبعـاد المحصــورة فيمـا بيـن أقصـــى بـروز لـبرجى جدار القبلـة : حتـــى المحور الأفقــى للمدخليـن الجـانبين : حتـى أقصـى بـروز للمدخـل الرئيســى الجنوبـى الغربـــى (ش ٢٣) . كمـا الـتزم المعمـار التناسب ذاتـــــه بمسـجد الماس فيما بين بروز حنيـــة المحراب ، وحتى مركز الصحن ، وحتــى بـروز حنيـــة محـراب القبـــة (٣٦) . كمـا تمثــل فـــى جـامع النــاصر محـــمد

بالقلعة (٧٣٥هـ/١٣٣٥م) فيما بين الجدار الشمالى الغربى (من الداخل) ، والى الجهه الجنوبيه الشرقيه للصحن ، وحتى جدار القبله (ش٢٩) . وأيضا تمثل بجامع الماردانى فيما بين بروز حنية المحراب ، والى مركز قبة الوضوء المتوسطة للصحن ، وحتى الجدار الشمالى الغربى (ش٤٠) ، وكذا بالمسقط الأفقى لمدرسة السلطان حسن (ش٤٩) ، فيما بين جدار القبلة ، ومحور الايوانين الشمالى والجنوبى المطلين على الصحن، ثم بداية الايوان الغربى ، فجداره الغربى .

وبالدراسة المقارنه لابعاد المساقط الأفقية عبر العصور ، ثبت أن المعمار قد صمم بعض المساقط وفقا للتناسب الجمالى ، حيث تمثل ذلك فى المسجد الأموى (ش٣) ، ومسجد قرطبة (ش٨) ، فيما بين جدار القبلة : وحتى بانكة رواق القبلة المطلة على الصحن : وإلى الجدار المقابل لجدار القبلة . وفى سامراء فى نسبة طول المسقط الافقى إلى عرضه(٢١) بينما فى مصر التزم المعمار ابعاد المسقط الافقى وفقا للتناسب الجمالى سالف الذكر- من جدار القبلة : وحتى الباتكه الشرقية المطله على الصحن : والى الجدار الغربى . كما هو فى جامع الأقمر (ش١٦) ، وجامع الناصر محمد بالقلعه (ش٣٩) . والتناسب قد انتهى هنا عند البائكة الغربية ، وليس الجدار الغربى بينما فى جامعى الماس (ش٣٦) ، والماردانى (ش٤٠) طبق التناسب ذاته لكن مرورًا بمركز الصحن . وفى مشهد الجيوشى (ش١٥) مرورًا بمركز القبة المتقدمة المحراب ، وفى جامع الظاهر بيبرس (ش٢٣) مرورًا بمحور المدخلين الجانبيين الشمالى والجنوبى ، وحتى بروز المدخل الرئيسى الغربى .

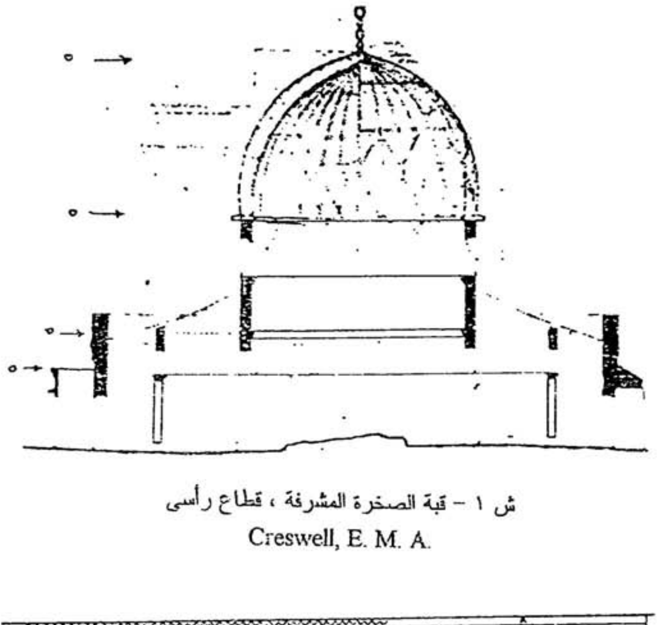
كما امتـد استخـدام المعمـار لهذا التناسـب الهندسـى الى أحد الآثـار المدنيـة وهو مقيـاس النيـل بالروضـة (٢٤٧هـ/٨٦١-٨٦٢م) ، حيث تمثـل فيما بين عمود المقياس (بالجزء المضاف فوق تاج العمـود) ، وحتى منتصف الارتفاع الكلـى للعمود، وإلى أعلى الأرضيـه الأصليـة ، ثم إلى قاعدة العمـود (ش١١). فضلا عن تطبيـق ذلـك التناسب فـى بعـض التكوينات الزخرفيـه كبيرة المساحه الشاغلة لاجزاء مختلفة من الأثـر ، طبـق المصمم التناسب الجمالى بهـا وذلك من أجـل أن تتوافـق أبعـاد هذه التكوينـات جماليًا مـع أبعـاد الأجـزاء المكونـة لجوانـب مختلفـة من عمـارة الأثـر ، وقد تمثل ذلك فى قبة الصخره (ش٢) ، بزخارف باطن عقد البائكة المثمنـة ، وفـى جـامع الظـاهر بيبرس (ش٢٤) ، بالواجهة الرئيسية . وفـى منذنـة مدرسـة المنصور قـلاون ، بـالدورة المربعة منها (ش٢٧). وفـى جامع الماردانى ، (ش٤٢) بتكوينين يكتنفان صـدرالمدخـل . وفـى مدرسـة السلطان حسن بالدرقاعة (ش٥١) بتكوين لـه مثيـل بالمسجـد الأمـوى بدمشـق .

ومن ثم فقـد تبين بالقياس الدقيـق ان كل مـن المهندس والفنان عبر العصور والولايـات الإسلامية - كانا علـى علم ودرايـة بالاهمية الجمالية للتناسب الجمـالي (١: ١,٦١٨ : ...) ، نتيجـة ما تم الكشـف عنـه مـن تطبيقـات دقيقـه لذلك التناسـب بأجزاء شملت معظـم أنحـاء الأثر رأسيـًا وأفقيـًا ، داخليًا وخارجيًا ، فضـلاً عن مسقطه الأفقـى .

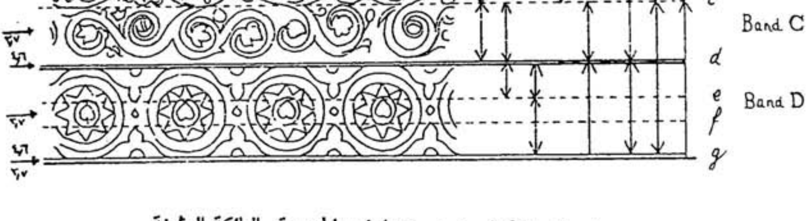
وعليـه فقـد حاول الباحـث فـى هذه الدراسـة الكشـف عن أحـد الأسـرار الهندسيـة الجماليـه الهامـة فـى كـل مـن الفنـون والعمـارة الإسـلامية .

ولما كان اهتمـــام المعمار عبر العصور الإسلامية ، جليًا فـــى تطبيق هذا التناســب الجمالى ، لما له من أثر فــى إضفاء القيم الجمالية المعماريــة ، فيمـا بين أجــزاء الأثـــر ، فـإن الباحـــث يوصـــى بضـرورة إقتداء كـل مـن المعمار والفنان بمنهج الأوائل المتمثل فـــى مراعــاة تطبيــق هذا التناســب ، كوسيلة ومعيـار لخلـق علاقـــات جماليـة تناسبية فيمــا بيـن أجـزاء العمـل المعمارى ، عند التصميم .

اللوحات



ش ١ – قبة الصخرة المشرفة ، قطاع رأسى
Creswell, E. M. A.

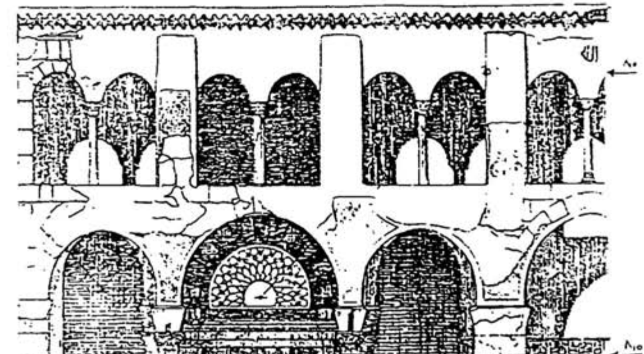


ش ٢ – قبة الصخرة ، زخارف باطن عقد البائكة المثمنة
Creswell, E. M. A. P 298



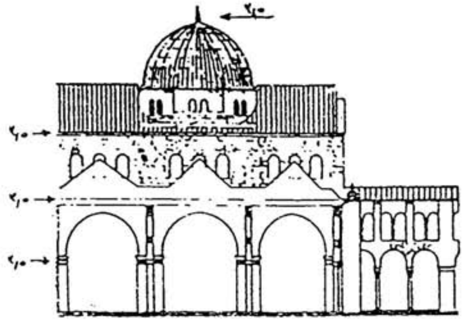
ش ٣ – المسقط الأفقى للمسجد الأموى بدمشق

Creswell, E. M. A. P 298

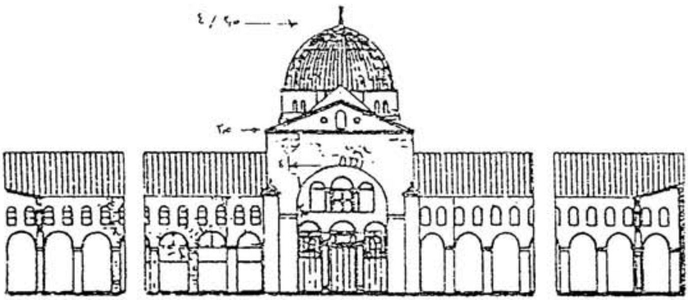


ش ٤ – المسجد الأموى بدمشق ، "بائكة الجنوبية من الرواق الغربى

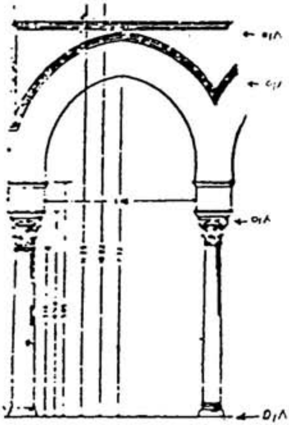
Creswell, E. M. A. Fig. 88



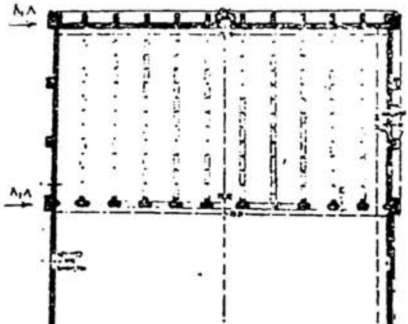
ش ٥ – الجامع الأموى ، قطاع رأسى للقبة ورواق القبلة
Creswell, E. M. A. P, Fig 88



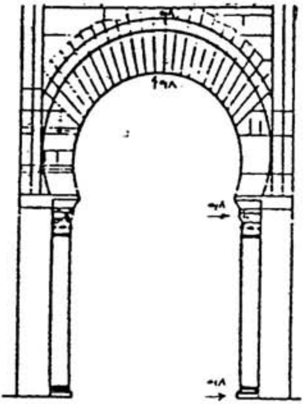
ش ٦ – الجامع الأموى قطاع رأسى لمدخل بيت الصلاة والقبة
Creswell, E. M. A, Fig 88



ش ٧ – مسجد سيدى عقبة بالقيروان
قطاع رأسى للبائكة المطلة على الصحن
توفيق عبد الجواد ، تاريخ العمارة

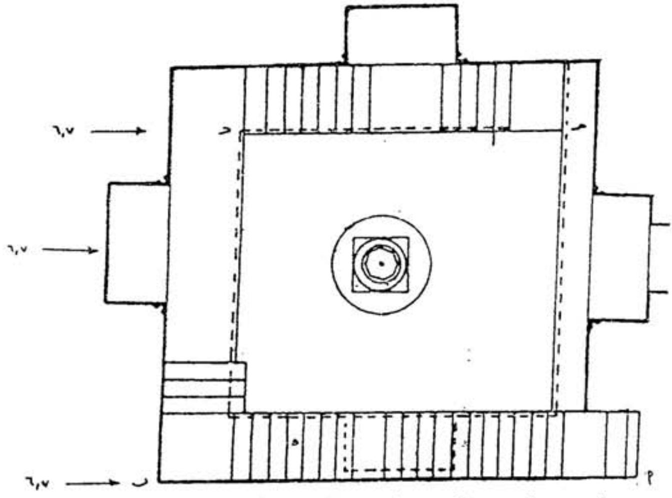


ش ٨ – المسجد الكبير بقرطبة عند إنشائه ، مسقط أفقى
كريسويل ، الآثار الإسلامية الأولى ، ش ٤٤

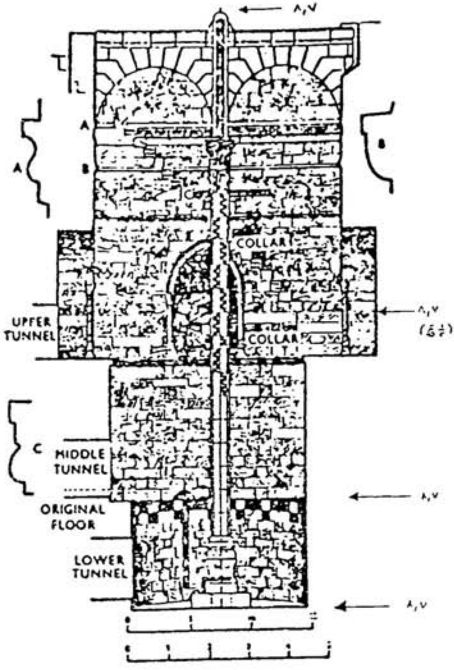


ش ٩ – المسجد الجامع بقرطبة ، بائكة متكررة بالأروقة .

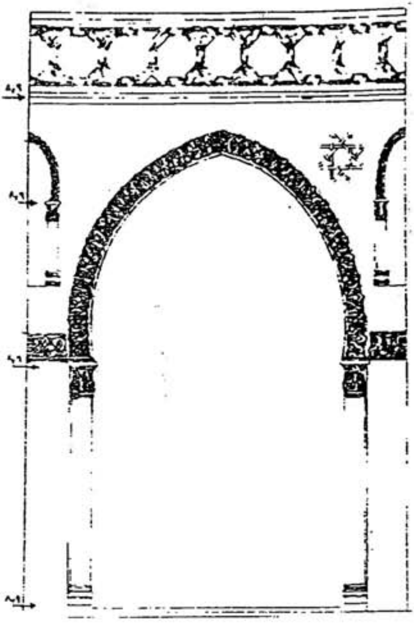
مانويل ، الفن الإسلامي فى أسبانيا .



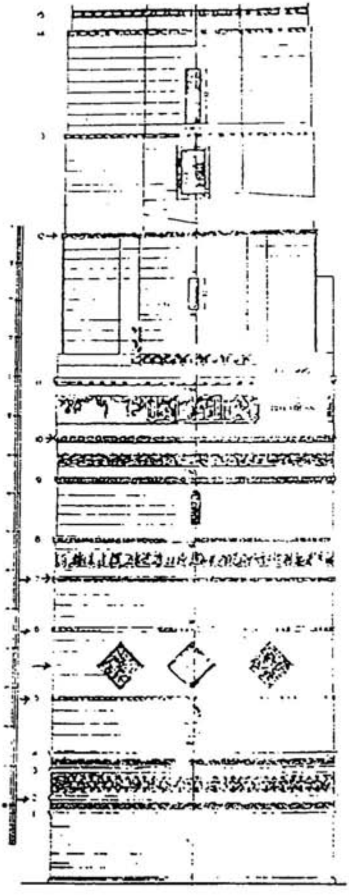
ش ١٠ – مقياس النيل بالروضة ، مسقط أفقى .



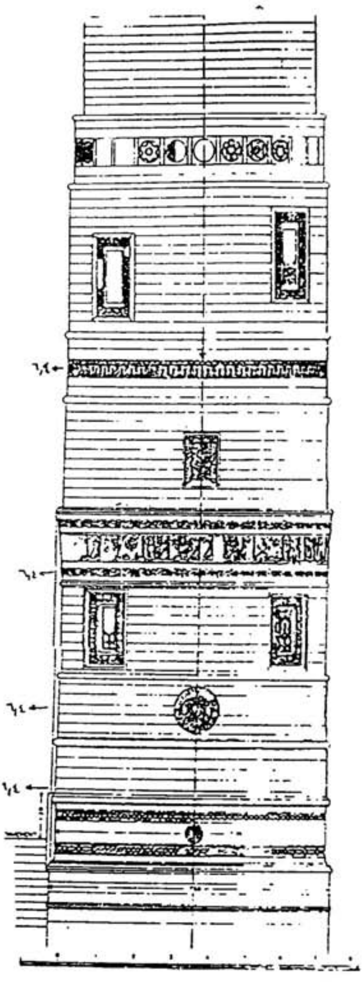
ش ١١ - مقياس النيل بالروضة
كريسويل الآثار الإسلامية الأولى ، ش ٦٠



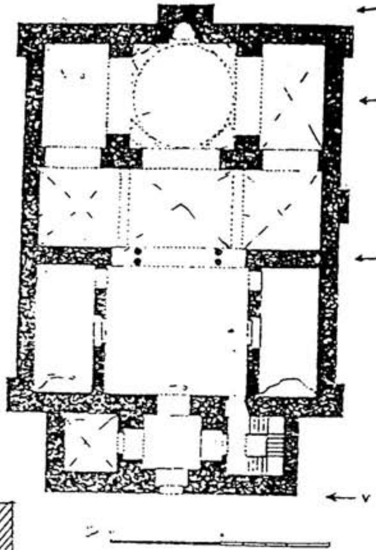
ش ١٢ – جامع ابن طولون
قطاع رأس للبائكة المطلة على الصحن
وزارة الأوقاف ، مساجد مصر ، جـ١



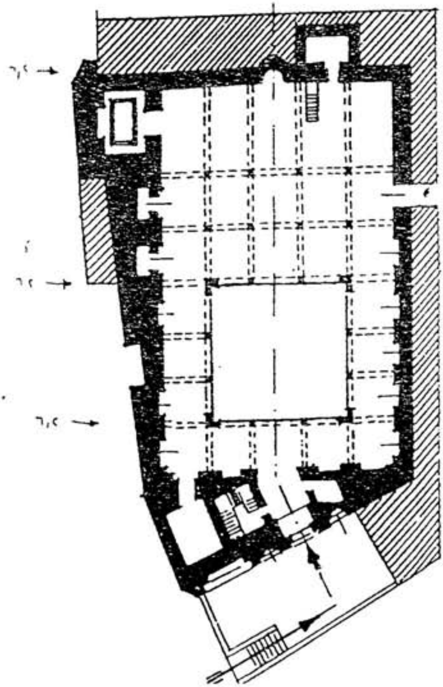
ش ١٣ – جامع الحاكم ، المئذنة الغربية
هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية



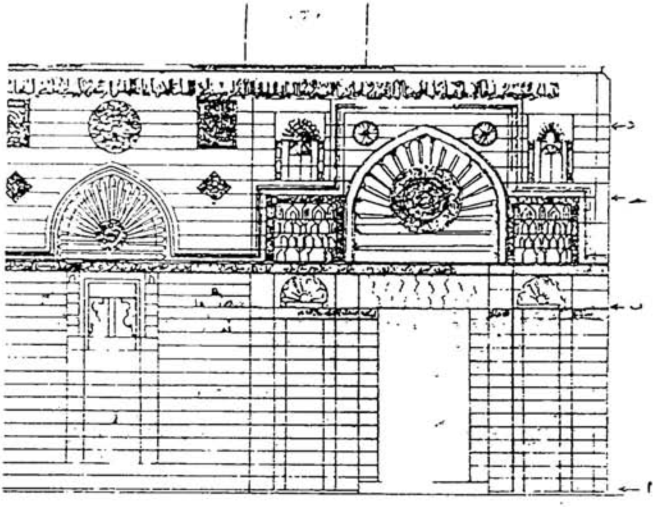
ش ١٤ – جامع الحاكم
المئذنة الشمالية
هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية



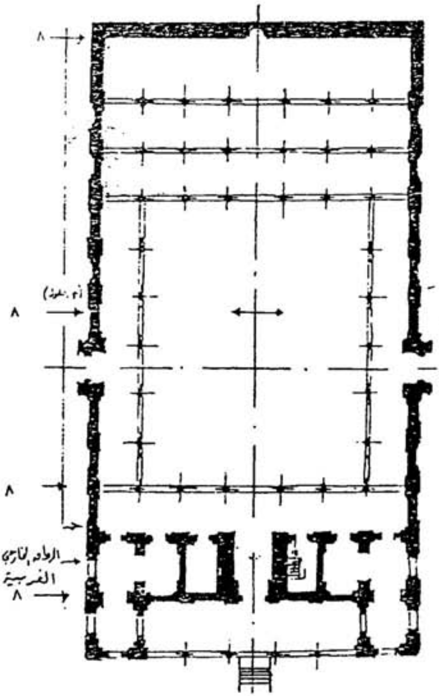
ش ١٥ – مسجد الجيوشى
المسقط الأفقى
هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية



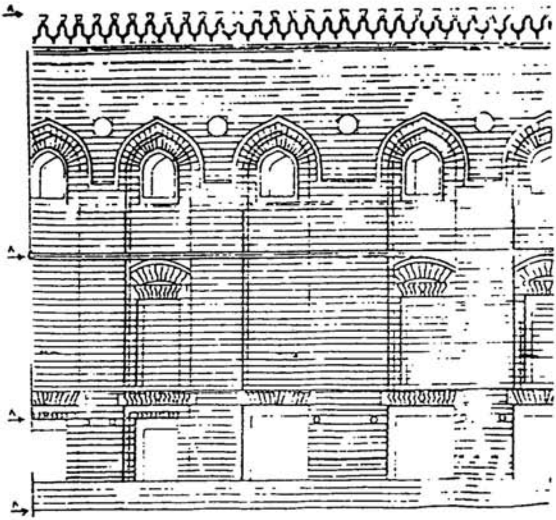
ش ١٦ – جامع الأقمر
مسقط أفقى
هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية



ش ١٧ - جامع الأقمر   الواجهة الشرقية   هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية



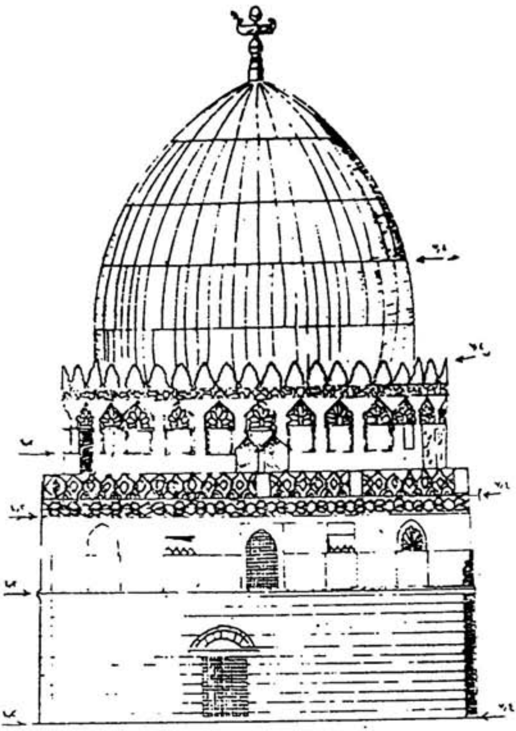
ش ١٨ - مسقط أفقى لجامع الصالح طلائع
هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية .



ش ١٩ - مسجد الصالح طلائع

قطاع طولى للواجهة الجنوبية

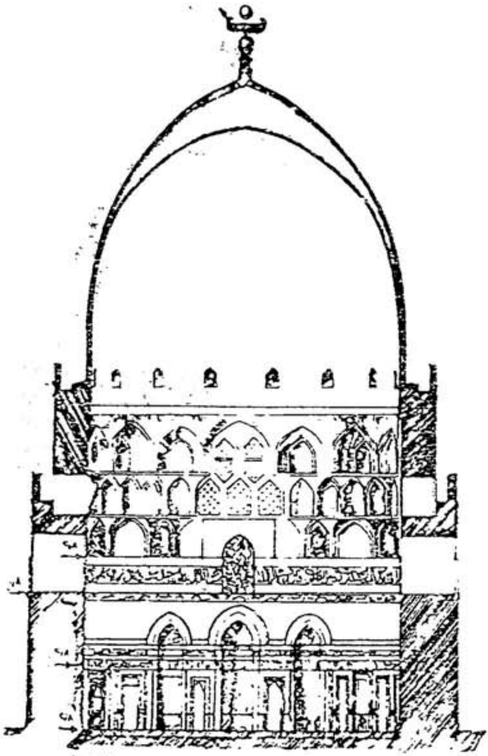
هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية



ش ٢٠ - قبة الإمام الشافعى

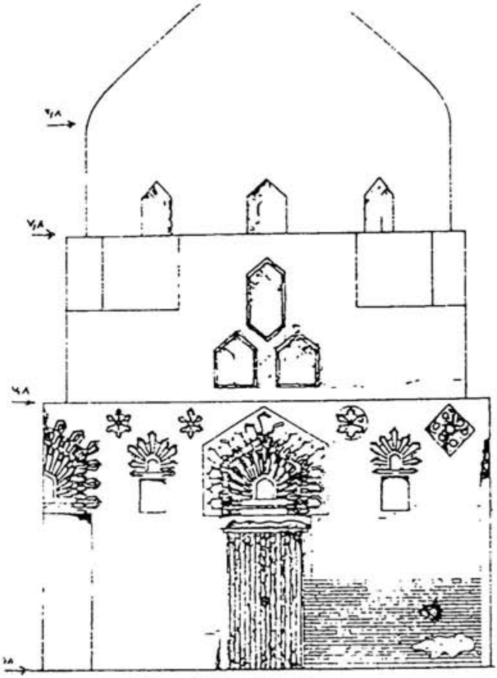
الواجهة الغربية

هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية



ش ٢١ – قبة الإمام الشافعى من الداخل

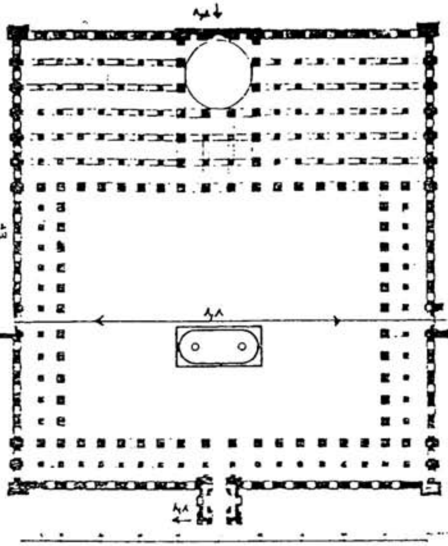
هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية



ش ٢٢ - قبة شجر الدر

قطاع رأسى

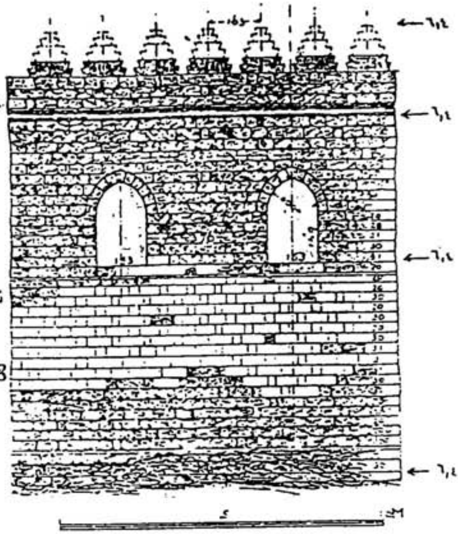
هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية



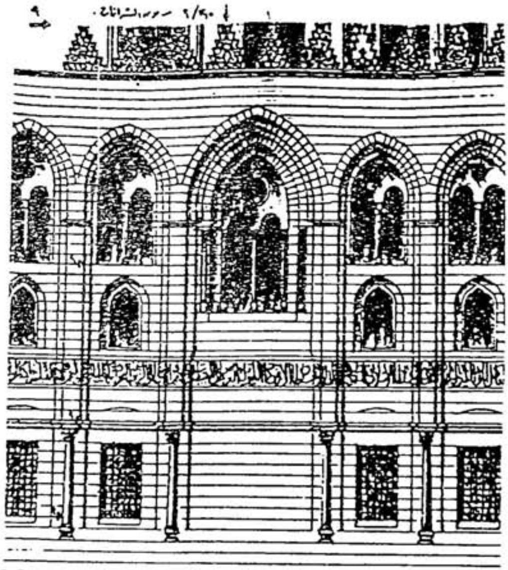
ش ٢٣ – جامع الظاهر بيبرس
المسقط الأفقى
هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية



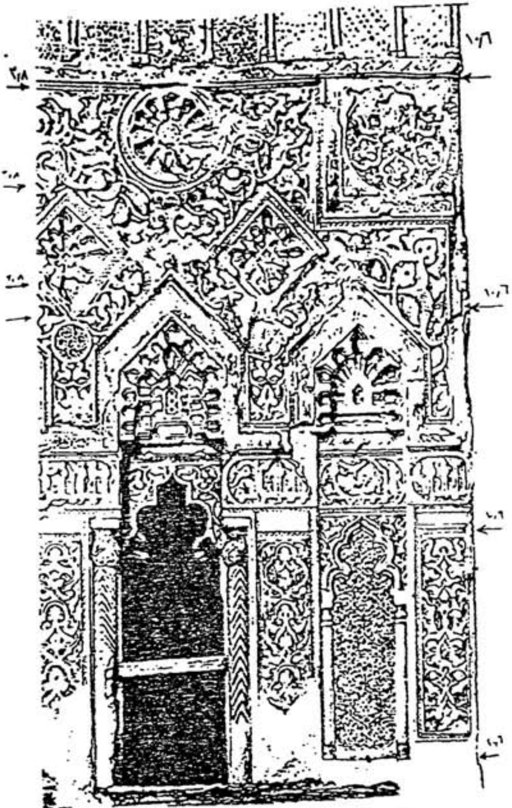
ش ٢٤ – جامع الظاهر بيبرس
تكوين جدارى بالمدخل الرئيسى الشمالى الغربى
creswell, M . A . E ., plate. 50



ش ٢٥ - جامع الظاهر بيبرس
الجدار الشمالى الغربى
creswell, M A E ., p.158



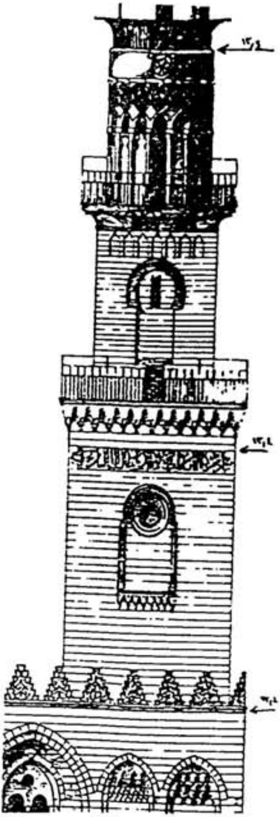
ش ٢٦ - مدرسة وقبة المنصور قلاون
الواجهة الرئيسية
هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية



ش ٢٨ – مدرسة وقبة المنصور قلاون

الدورة المربعة من المئذنة

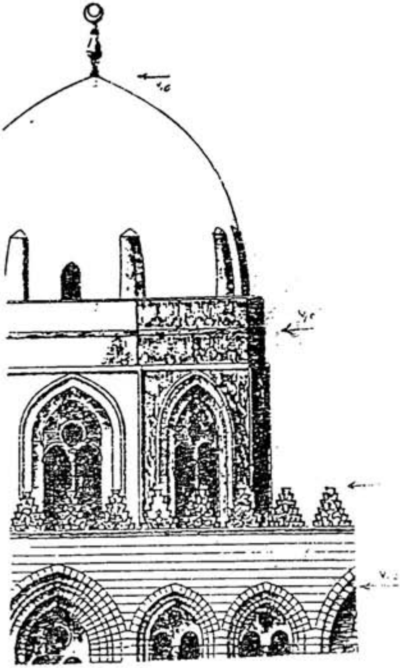
وزارة الأوقاف ، مساجد مصر ، جـ١



ش ١٢٨أ – مدرسة وقبة المنصور قلاون

المئذنة

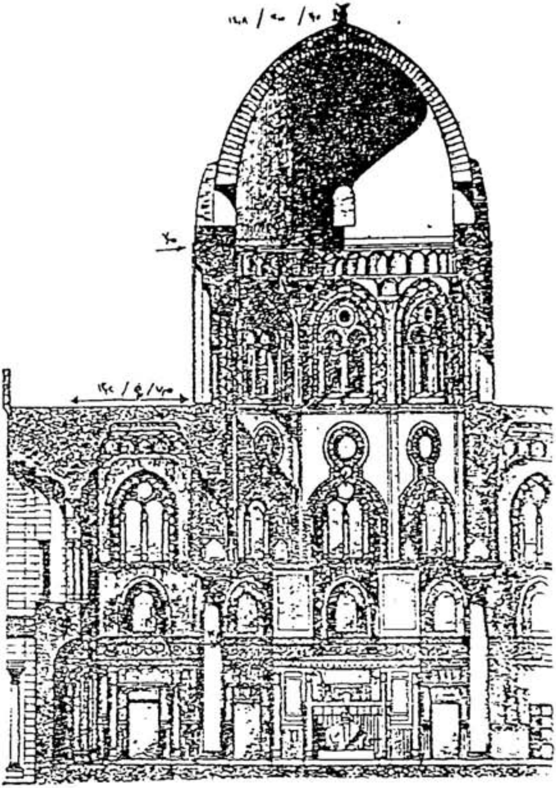
هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية



ش٢٩ – مدرسة وقبة المنصور قلاون

القبة من الخارج

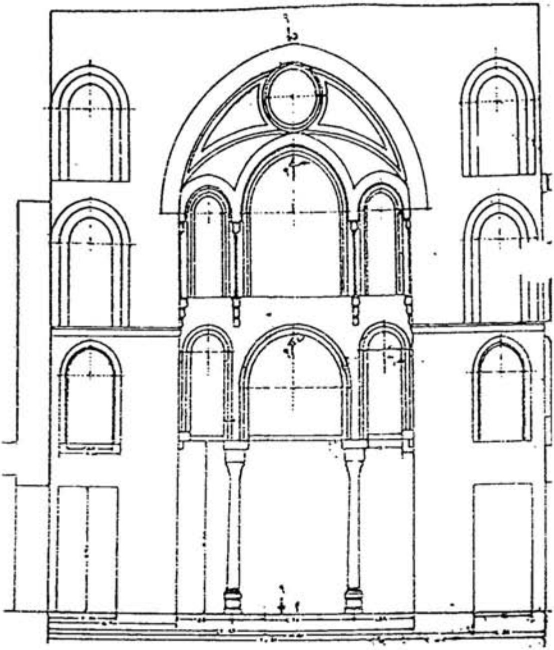
هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية .



ش٣٠ – مدرسة وقبة المنصور قلاون

قطاع رأسى للقبة من الداخل

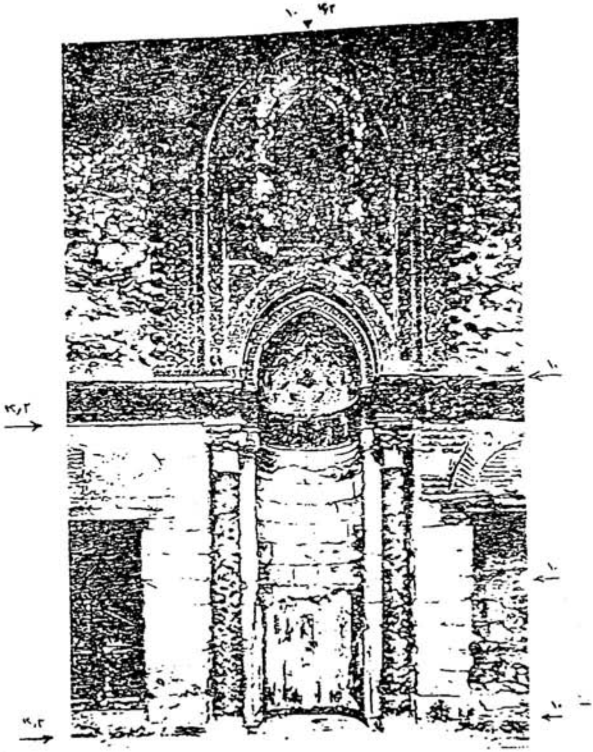
هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية



ش٣١ - مدرسة وقبة المنصور قلاون

قطاع رأسى للواجهة المطلة على الصحن

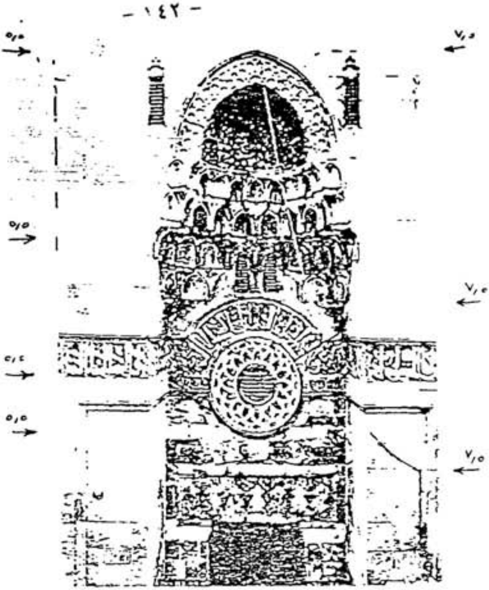
هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية



ش٣٢ – مدرسة المنصور قلاون

محراب المدرسة

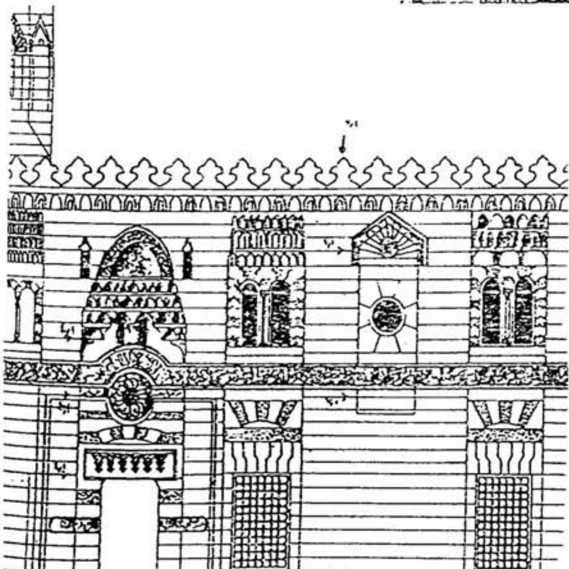
creswell, M . A . E ., plate.III



ش٣٣ - مسجد أحمد المهمندار

المدخل

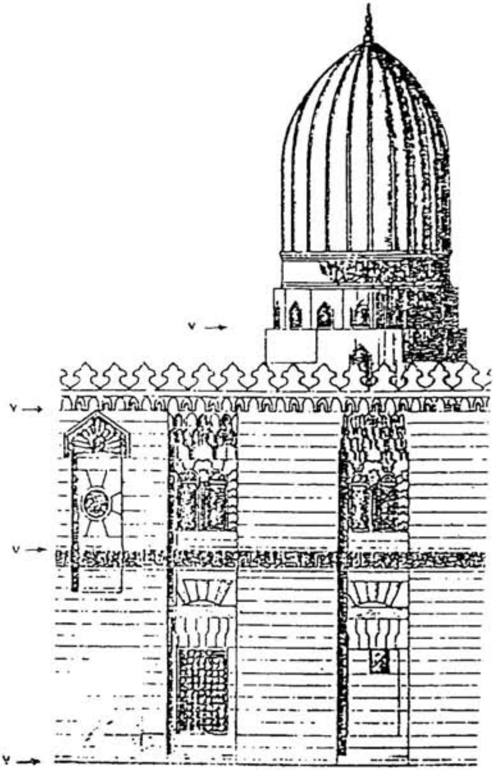
creswell, M . A . E ., plate. 104



ش٣٤ - مسجد أحمد المهمندار

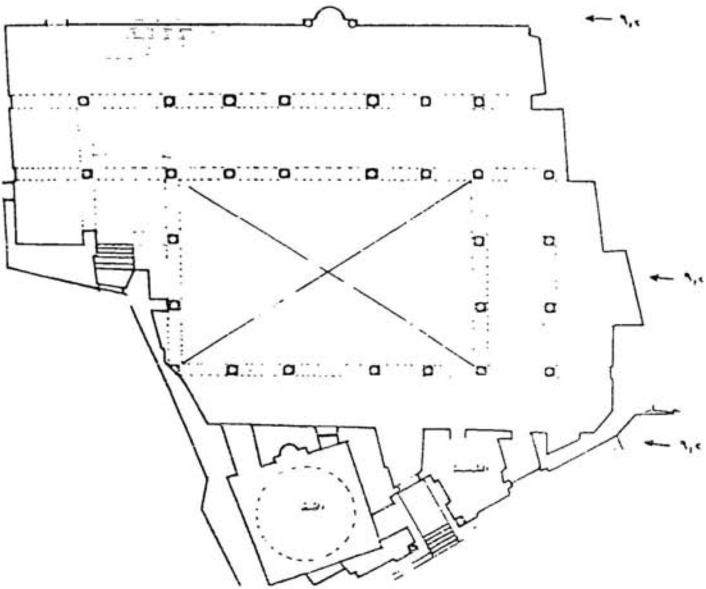
الواجهة الشرقية

هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية



ش٣٥ - مسجد أحمد المهمندار

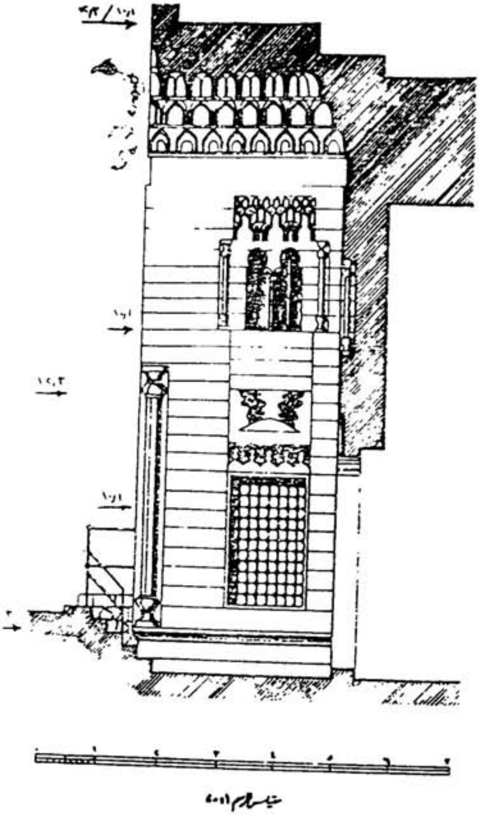
هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية



ش ٣٦ - جامع الماس الحاجب

مسقط أفقى

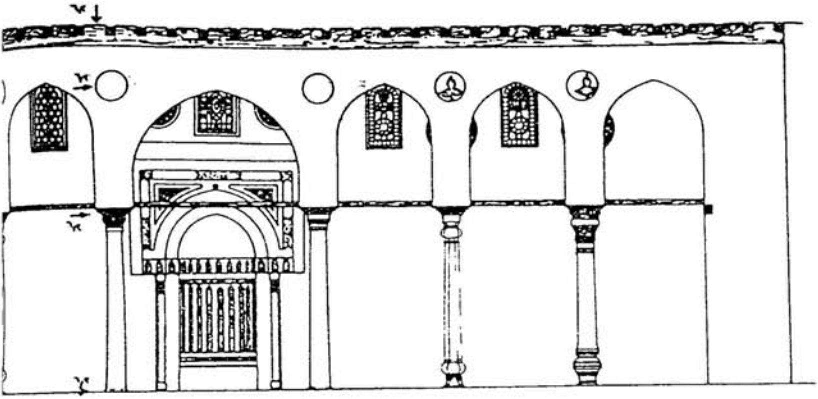
هيئة الآثار ، الإدار الهندسية



ش ٣٧ - مسجد الماس

قطاع رأسى فى المدخل

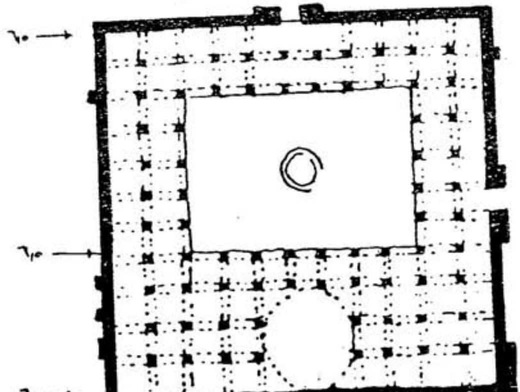
هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية



ش ٣٨ - مسجد الماس الحاجب

رواق القبلة

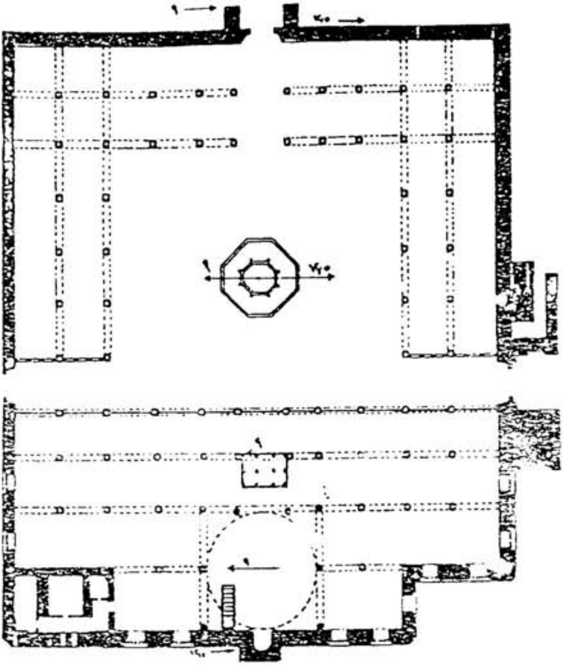
هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية



ش ٣٩ - جامع الناصر محمد بالقلعة

مسقط أفقى

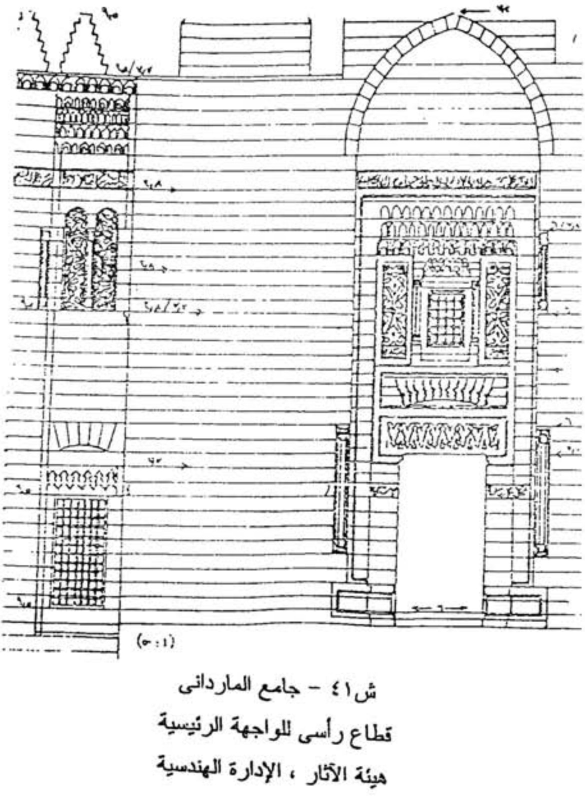
هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية



ش ٤٠ - السقط الأفقى لمسجد الطنغا الماردانى

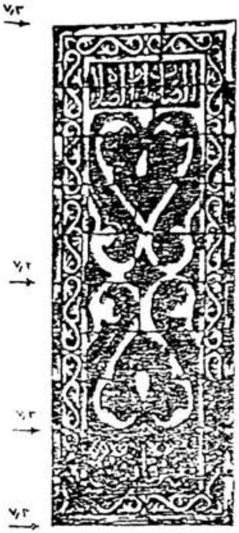
مقياس الرسم ١ : ٢٠٠

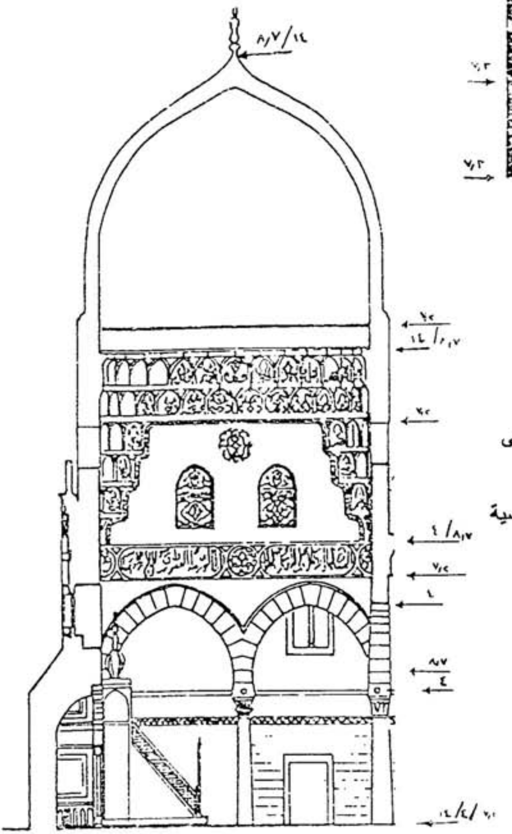
هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية



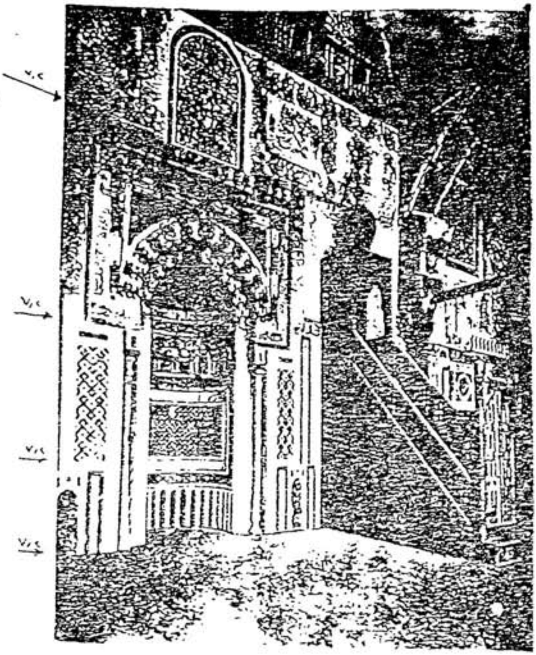
ش ٤١ - جامع الماردانى
قطاع رأسى للواجهة الرئيسية
هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية

ش٤٢ - جامع الماردانى
تكوين زخرفى بصدر المدخل الرئيسى
وزارة الأوقاف ، مساجد مصر ، لوحة ٦١





ش ٤٣ - جامع الماردانى
القبة من الداخل
هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية

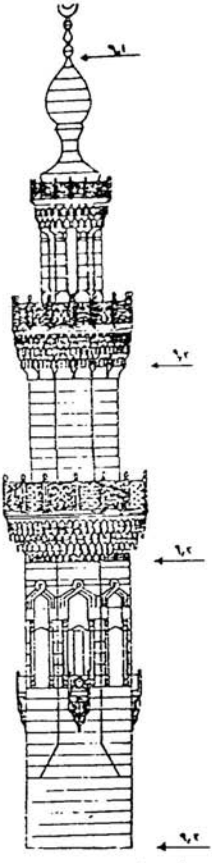


ش ٤٤ - جامع الماردانى

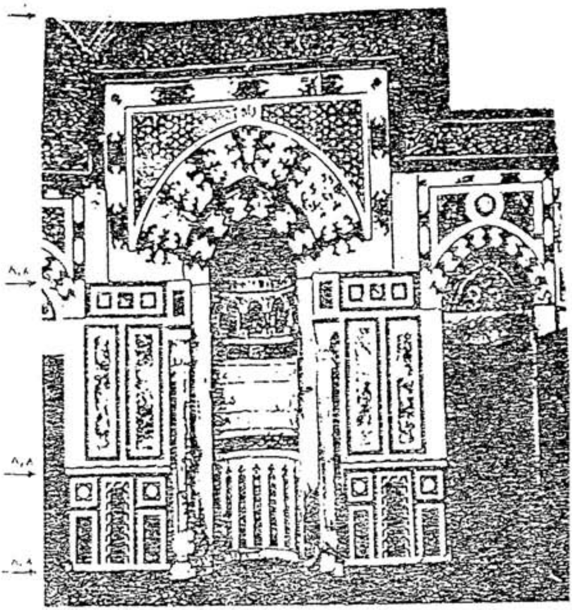
جدار القبلة

(ملاحظة: بعض اللوحات المشار إليها ذات منظور، ولكن الدراسة، تمت على الآثار فى مواقعها)

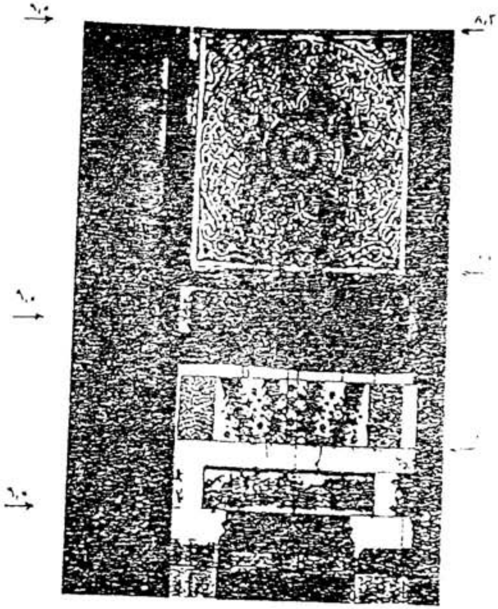
وزارة الأوقاف ، مساجد مصر ، لوحة ٦٧



ش ٤٥ - جامع الماردانى
قطاع رأسى للمئذنة
هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية



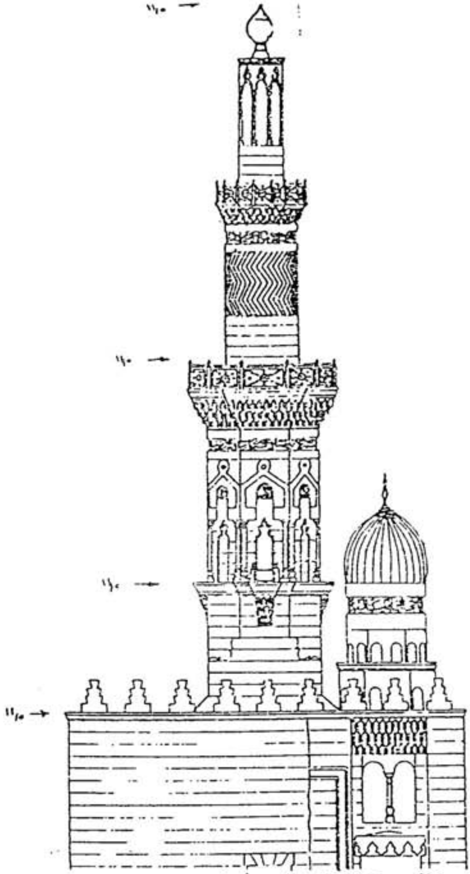
ش ٤٦ – المدرسة الأقبغاوية بالجامع الأزهر
جدار القبلة
هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية



ش ٤٧ – مسجد أصلم السلحدار

صدر المدخل

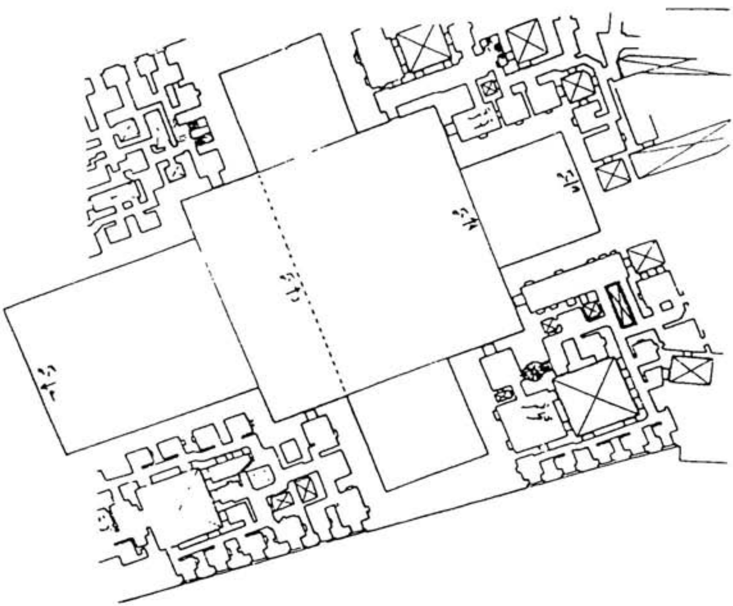
وزارة الأوقاف ، مساجد مصر



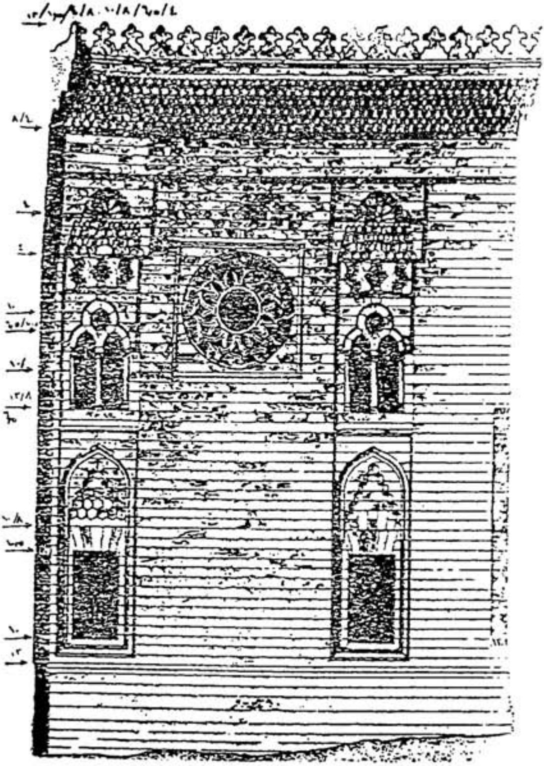
ش ٤٨ – مسجد أيدمر البهلوان

المئذنة

هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية



ش ٤٩ - مدرسة السلطان حسن
المسقط الأفقى للايوانات المطلة على الصحن
هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية

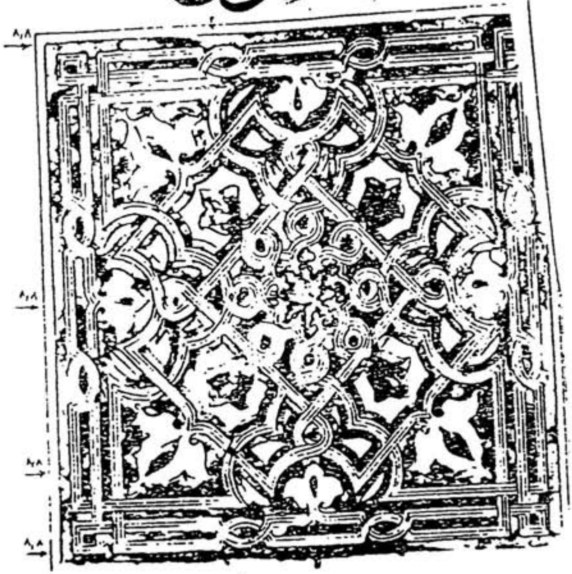


ش ٥٠ - مدرسة السلطان حسن

الواجهة الجنوبية الشرقية

هرتز باشا ، جامع السلطان حسن

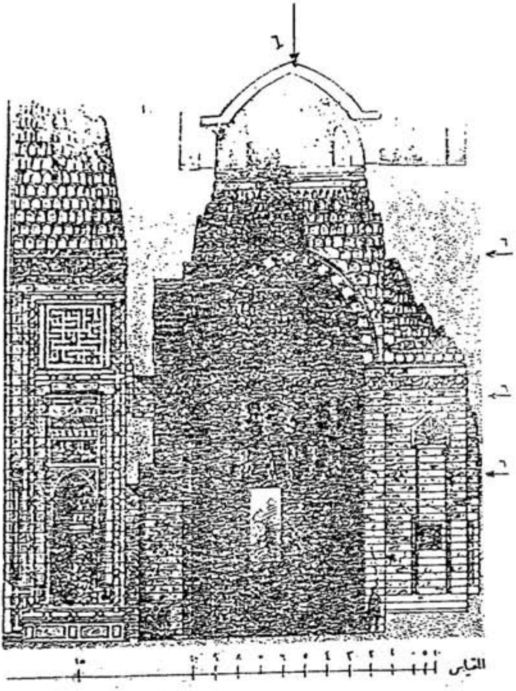
الجامع الأموى بدمشق



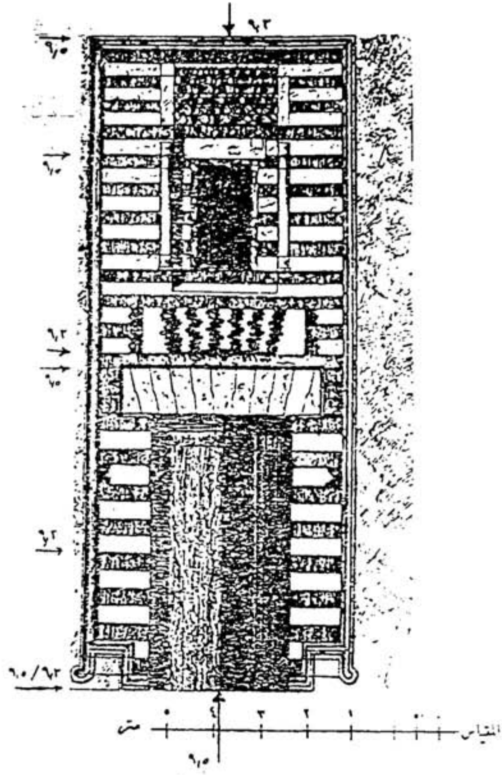
ش ٥١ – المسجد الأموى بدمشق

تكوين زخرفى مماثل لأخر بمدرسة السلطان حسن

هيئة الآثار ، الإدارة الهندسية



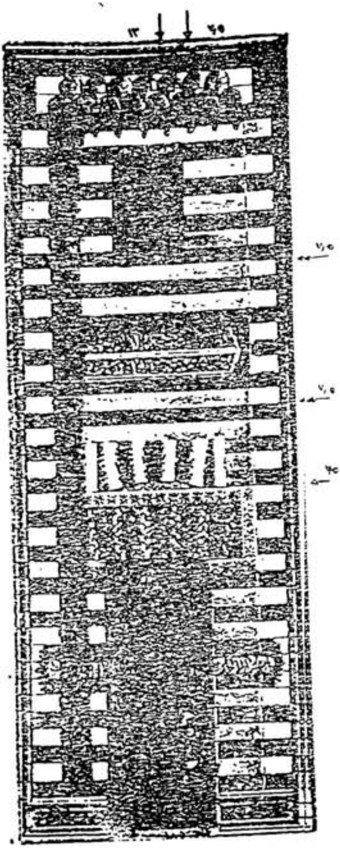
ش ٥٢ - مدرسة السلطان حسن
قطاع الطرقة ودورة المياه
هرتز باشا ، جامع السلطان حسن



ش ٥٣ - مدرسة السلطان حسن

باب الدخول إلى الصحن

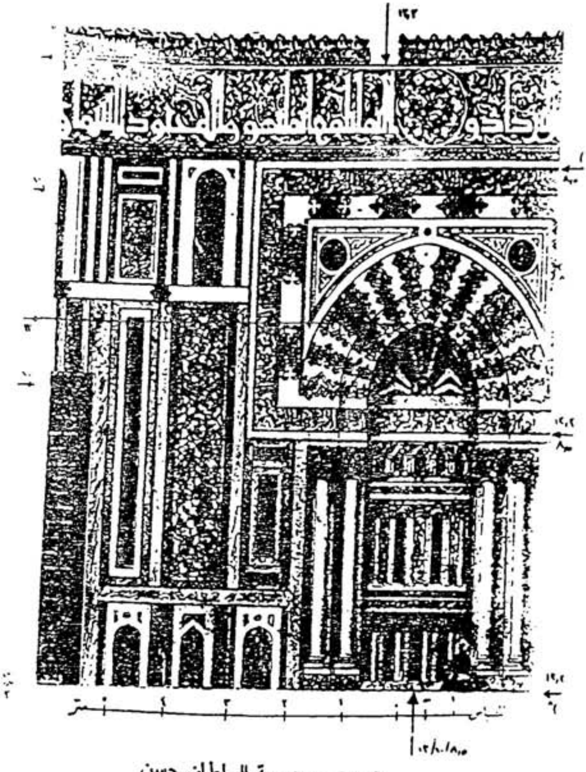
هرتز ، باشا جامع السلطان حسن



ش ٥٤ - مدرسة السلطان حسن

باب المدرسة المالكية

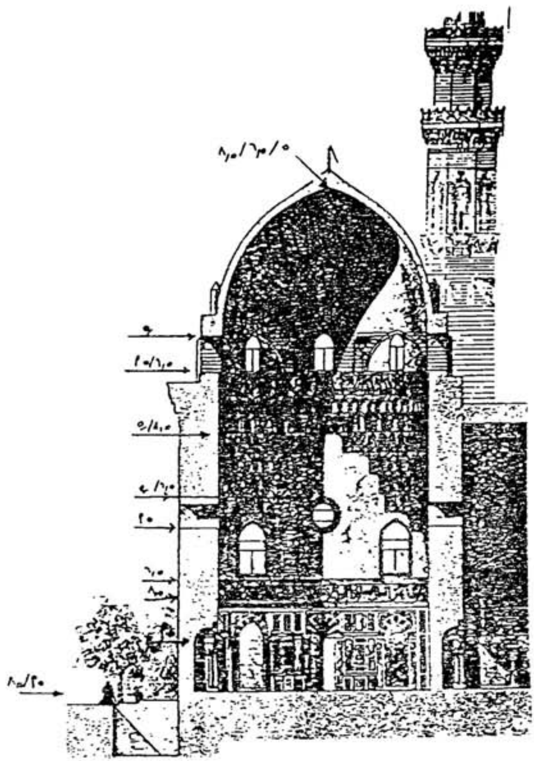
هرتز باشا ، جامع السلطان حسن



ش٥٥ – مدرسة السلطان حسن

إيوان القبلة

هرتز باشا ، جامع السلطان حسن



ش ٥٦ – مدرسة السلطان حسن

قاعدة الضريح

هرتز باشا ، جامع السلطان حسن

هوامش البحث

(١) معنى الفن : ترجمة سامى خشبة ، ومصطفى حبيب ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص٤٤

(٢) رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا ، المجلد الأول ، القسم الرياضى ، دار صادر ودار بيروت ١٩٥٧ ، ص٢٣

(٣) " النسب التأليفية هى المركبة من الهندسية والعددية " رسائل إخوان الصفا ، ص٢٤٧ إن التراث الإسلامى المنقول والمعمارى ، وما به من مساحات وأجزاء ذات أبعاد مدروسة ، كانت نتاج أعمال فكرى متواصل ، لابد أنه تأسس على سر هندسى ، قائم على النسبة ، أو التناسب ، الأمر الذى يحتم الكشف عنه لما له من أهمية إذا ما التزم به المعمار والمصمم عند تصميم عمل ما .

(٤) " وقد أمكن التعرف على (ذلك) من التقسيمات الشبكية المتساوية المسافات طولاً وعرضها لجسم الإنسان ، والتى ما زالت مرسومة بوضوح إلى اليوم فى كثير من الآثار المصرية "

د. أحمد راشدان ، القيم الفنية فى أعمال محمود مختار ، رسالة دكتوراه ١٩٧٨ ، ص٥٩

(٥) عمر فروخ ، تاريخ العلوم عند العرب ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص١٤٦

6 - Creswell (K . A . c .) ; Eraly Muslim Architecture, vol. 1, part 1, Oxford, 1932 - 40, P . 297

(٧) E . M . A ., 1940 297 ولقد جرى التحقق من تطبيق التناسب الهندسى على المسقط الأفقى للمسجد الأموى وإثباته هندسيًا فى مكان لاحق من البحث .

(٨) أحمد رشدان ، التصميم فى الفن التشكيلى ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ ، ص٨١

(٩) Graves (Mait Land) ; The Art of color and design, second edition, Mc . Graw Book and Company . New York . London . 1957, p237

(١٠) " من أهل أثينا (٤١٥ – ٣٦٩ ق.م) وإنه تتلمذ لسقراط ... وعاصر أفلاطون " .

جورج سارتون ، تاريخ العلم ، جـ٤ ، القرن الرابع (ق . م) ، ترجمة لفيف من العلماء، دار المعارف ، ١٩٦١ ، ص٩٢ .

(١١) تاريخ العلم ، ١٩٦١ ، ص ١٠١ .

(12) El-Said (Issam) , and Ayse Parman; Geometric Concepts in Islamic Art, World of Islam festival publishing company 1 td ., October,1975 . P82

(13) The art of color and design , 1957 , P. 237

(14) Critchlow (Keith) ; Islamic Pattern, Hudson, London 1975, P31

(١٥) هى أداة هندسية يسهل من خلالها الكشف عن أية نسب أو تناسب فى أى أعمال فنية .

(١٦) جرى البحث عن النسبة والتناسب فى معظم الأعمال المعمارية التى امتدت عبر القدس ودمشق والقاهرة وسامراء والقيروان وقرطبة ، والتى ترجع إلى الفترة من القرن (٧ – ١٥م) ، ولم يجد الباحث تطبيقًا للنسبة أو التناسب الجمالى سوى بالمواقع المعمارية السبعة وخمسون المذكورة بالجدول رقم (١) .

(١٧) ذكر كريسول إن " أجزاء القطاع الذهبى متكررة فى تقسيم الأشرطة الزخرفية ببواطن العقود " أى فى نسبة عرض كل شريط مع الآخر المجاور له . ولكن لم يذكر هذه النسبة (١ : ١,٦١٨) التى توصل الباحث إليها . Creswell, E M A., P. 299

(١٨) ابن السيوفى كبير مهندسى دولة الناصر محمد بن قلاون ، ويرى الباحث أن الفنان كان دوره محصورًا فى تصميمه لكل تفاصيل العناصر والتكوينات الزخرفية ، بينما كان دور المهندس ممتدًا إلى توزيع هذه العناصر أو التكوينات وفقًا لأبعاد تتوافق مع التناسب الجمالى الذى التزمة ووفقا لأحجام وأبعاد العناصر المعمارية التى يتضمنها الأثر .

(19) creswell, E . M . A 1940, P. 299

(٢٠) لقد تشابه أسلوب تطبيق التناسب الهندسى فى كل من المسجد الأموى بدمشق ، ومسجد قرطبة ولا عجب فى هذا فلقد " استند فى تخطيط المسجد الكبير فى قرطبة ... إلى تخطيط المسجد الكبير فى دمشق ... وكانت هندسة المساجد قد انتقلت إلى الأندلس مع الفاتحين من أهل الشام وغيرهم ، وأخذت هذه المساجد كثيرًا من الأفكار التى كانت سائدة فى جامع دمشق " .

عفيف بهنسى ، الشام ، لمحات آثارية وفنية ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٨٠، ص١٣٥ .

(٢١) المسجد الكبير بسامراء الذى بناه الخليفة المتوكل ، الذى حكم فى سنة (٢٣٢هـ/٨٤٧م) والمسجد أبعاده هى (١٥٦م : ٢٤٠م) ، أى النسبة بينهما هى (١:١,٦١٨) ، وليست (٢ : ٣) ، كما ذكر كريسويل فى مرجعه ، الآثار الإسلامية الأولى ، ص ٣٦١

المراجع العربية والأجنبية

المراجع العربية :

١ – د. أحمد رشدان ، القيم الفنية فى أعمال محمود مختار ، رسالة دكتوراه ، مخطوطة ، ١٩٧٨ ، التصميم فى الفن التشكيلى ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ .

٢ – إخوان الصفا وخلان الوفا ، المجلد الأول ، القسم الرياضى ، دار صادر ودار بيروت ، ١٩٥٧م .

٣ – جورج سارتون ، تاريخ العلم – جـ٤ ، ترجمة لفيف من العلماء ، دار المعارف بمصر ١٩٦١م .

٤ – د. عفيف بهنسى ، الشام ، لمحات أثارية وفنية ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٩٨٠م .

٥ – عمر فروخ ، تاريخ العلوم عند العرب ، دار العلم للملايين ، ببيروت ١٩٧٠م .

٦ – ك . كريسويل ، الآثار الإسلامية الأولى ، ترجمة عبد الهادى علبة ، تعليق أحمد غسان ، دار قتيبة ، دمشق ، ١٩٨٤م .

٧ – ما نويل جوميث مورينو ، الفن الإسلامى فى أسبانيا ، مترجم ، الدار المصرية للتأليف والترجمة .

المراجع الأجنبية :

1 - El-Said Issam and Ayse parman: Geomitric Concept in Islamic Art, world of Islam Festival Publishing Company Ltd. October, 1975.

2 - Creswell, (K. A. C.): E. M. A., Vol, 1, Part 1, Oxford, 1932-40: M. A. E., oxford, 1952-59.

3 - Critch Low (Keith): Islamic Patterns, thames, Hudson, London, 1976.

4 Graves (Mait Land): The art of color and design, second edition, Mc. Graw- Hill Book Compamy, New Yourk, Toranto, London, 1957.

التنافس الاستعمارى الأوروبى فى أعالى النيل

١٣٠٠هـ - ١٣٢٢هـ / ١٨٨٢م - ١٩٠٤م

د. عمر سالم عمر بابكور

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة أم القرى

أدرك الفرنسيون منذ زمن طويل أهمية البحر المتوسط والبلاد المطلة عليه سواء فى آسيا أو أفريقيا ، إذ أن فرنسا لها ساحل هام مطل على البحر المتوسط وكانت تنظر إلى أن مصالحها الحيوية مرتبطة بهذا البحر والدول المطلة عليه .

ولذلك اتجهت أنظار الفرنسيين لمصر عدة مرات قبل حملتهم المشهورة عام ١٢١٣هـ - ١٧٩٨م باعتبارها محطة هامة فى الطريق للهند . وقد نصح بعض رجال السياسة لويس الرابع عشر (Louis 14) باحتلال مصر لأهميتها فى الطريق إلى الهند - ولكن الفكرة لم تنفذ فى الأرشيف الفرنسى فترة من الزمن حتى جاءت الحملة الفرنسية على مصر(١) .

ومهما قيل من دوافع وأسباب هذه الحملة على مصر التى قادها نابليون بونابرت (Napoleon Ponapart) فإن فى مقدمة هذه الدوافع الصراع والتسابق الذى أعقب حركة الكشوف الجغرافية . ورغم أن الفرنسيين لم يمكثوا فى مصر بعد غزوها فى عام ١٧٩٨ أكثر من ثلاث سنوات (١٢١٣هـ - ١٢١٦هـ) (١٧٩٨ - ١٨٠١م) ، ورغم فشل الحملة من الناحية الحربية إلا أنها كانت نقطة تحول خطيرة فى حياة مصر والشرق العربى كله ، حيث

ظهرت جليًا الأهمية الاستراتيجية لهذه البلاد المطلة على البحر المتوسط والبحر الأحمر والتى تعتبر المنفذ الهام المؤدى للهند(٢) .

وكانت العلاقة بين إنجلترا وفرنسا وقت مجئ الحملة الفرنسية تتسم بالتوتر الشديد(٣) ، الأمر الذى أدى إلى أن تلعب إنجلترا دورًا هامًا فى خروج الفرنسيين من مصر . لقد حاول الإنجليز إبقاء قوات لهم فى مصر لكنهم انسحبوا فى عام ١٢١٨هـ - ١٨٠٣م ، وكذلك فشلوا فى استمالة بعض المماليك إلى جانبهم ، وبهذا فشل الإنجليز مرة أخرى فى الاحتفاظ بنفوذ لهم فى مصر .

وشاهدت مصر خلال القرن التاسع عشر موجات متعددة من الصراع بين إنجلترا وفرنسا من أجل بسط النفوذ عليها(٤) .

وعندما استقر الأمر لمحمد على فى مصر وجهت إنجلترا حملة إلى مصر فى عام ١٨٠٣م ولكنها باءت بالفشل بفضل مقاومة محمد على والمصريين ، وأرسلت حملة فى إبريل من نفس العام ، ولكنها فشلت أيضًا ، مما أدى إلى أن فريزر (Fraser) القائد الإنجليزى للحملة طلب أن يخرج بجيشه ، وبالفعل تم الصلح فى سبتمبر عام ١٨٠٧م ورحلت القوات الإنجليزية عن مصر .

وأدى النصر الذى أحرزه المصريون فى عام ١٢٢٢هـ - ١٨٠٧م على الإنجليز إلى أن يؤخر احتلال إنجلترا لبلادهم لمدة ٧٥ عامًا ، فلم يتم احتلال مصر إلا فى عام ١٣٠٠هـ - ١٨٨٢م .

على أنه منذ عام ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م كان شغل السياسة الإنجليزية الشاغل هو حماية طرق مواصلاتها مع الشرق ، وأدى هذا بالتالى إلى الوقوف

فى وجه التوسع المصرى على سواحل البحر الأحمر والخليج العربى ، وكذلك فى بلاد العرب ، حيث استطاع محمد على أن يبسط سيطرته على الجزيرة العربية فيما عدا سواحلها الجنوبية ، لكن البريطانيين كانوا ينظرون إليه على أنه منفذ لسياسة فرنسية على أساس أن عددًا من الضباط الفرنسيين كانوا يقومون بتدريب الجيش المصرى .

فأرسلت إنجلترا فى عام ١٢٤٥هـ - ١٨٣٩م تعليماتها لقنصلها فى القاهرة بالمرستون (Palmerston) ليخطر محمد على بعدم ارتياح إنجلترا لمد حدوده لهذه المناطق .

كما وقفت إنجلترا موقف المعارض لمشروع قناة السويس وأخذت توغر صدر السلطان العثمانى ليعارض هذا المشروع ، وكانت إنجلترا تدرك أن تنفيذ مشروع قناة السويس فى ذلك الوقت على أساس الامتيازات التى حصل عليها فردينند ديلسبس (F. Delesseps) نصر لفرنسا فى مصر ، وصدمة للسياسة الإنجليزية ، على أن إنجلترا انتهزت فرصة إفلاس المالية المصرية فعليًا فى شئون البلاد(٥) .

أدى إلى تدهور الإدارة سواء المركزية أو اللامركزية نتيجة لما أحدث ذلك(٦) ، وعندما قامت الثورة المهدية فى السودان كان المجتمع السودانى قد تبلور وتوفرت لديه المقومات من رباط روحى ووحدة الهدف(٧) .

واستطاعت إنجلترا فى يونية عام ١٣٠٠هـ - ١٨٨٢م على أثر موقعة التل الكبير احتلال مصر بعد هزيمة العرابيين(٨) .

والملاحظ أن الحكومة الفرنسية لم تثر قبل شهر سبتمبر عام ١٣٠٠هـ - ١٨٨٢م أمـــر مستقبل مصر ومصيرها ... ولكنها سرعان ما أفاقت لترى

ما أصبح للإنجليز من تفوق فى وادى النيل نتيجة الاحتلال العسكرى فاعترضت عليه ، مما أدى إلى كثرة الوعود من جانب الإنجليز بالجلاء عن مصر دون أن توضع موضع التنفيذ(٩) .

ولقد حاولت الحكومات الفرنسية المتعاقبة إثارة الدول الكبرى الأوربية ضد بريطانيا كما أيدت الباب العالى فى شكواه الدائمة واحتجاجاته الكثيرة ، كما عملت فرنسا على عرقلة الإدارة الإنجليزية فى مصر وساعدتها على ذلك النظم الدولية التى استقرت أسسها فى مصر ، خاصة الإمتيازات وصندوق الدين ، وأقامت العقبات الواحدة تلو الأخرى فى وجه السياسة الإنجليزية الإستعمارية خارج حدود مصر ، وأكثر من هذا أنها حاولت إثارة ألمانيا ضد إنجلترا وحدثتها عن رغبة إنجلترا فى السيطرة وحدها على العالم كله .

وعندما أرادت إنجلترا إلغاء نظام المراقبة الثنائية على المالية المصرية احتجت فرنسا احتجاجًا شديدًا ، لأن معنى هذا فى نظر الفرنسيين هو استبعاد للنفوذ الفرنسى فى ميادين السياسة والإدارة المصرية وانفراد انجلترا بالأمر ، وأعلن ديكلرك (Declarc) رئيس وزراء فرنسا أن نظام المراقبة الثنائية قائمة على أساس إتفاق الدولتين وليس من حق دولة إلغاءه دون موافقة الآخرى ، وأن على الحكومة الإنجليزية احترام النظم القائمة التى لها حقيقة دولية(١٠) .

وأمام هذه الاحتجاجات من جانب فرنسا حاولت إنجلترا إجراء تعديل على مقترحاتها لإرضاء فرنسا ، ولكن الحكومة الفرنسية أصرت على مطالبها كاملة وتحولت الأمور بين فرنسا وإنجلترا إلى نزاع وتطاحن شديدين(١١) .

وكان لابد وأن يعقب ذلك تشابك فى المصالح والخطط والأهداف انتهت إلى أن تعقدت العلاقات الخارجية البعيدة عن الميدان الأوربى . ومع ذلك فإن الحركة الإستعمارية لم تكن سببًا من أسباب الحروب ، حقيقة قد يصل الأمر إلى توتر فى العلاقات بين الدول ، بل والتهديد ، باستخدام القوة ، كما حدث بين إنجلترا وفرنسا ، ولكن فى النهاية كان ذلك كله ينتهى بالمسألة والاتفاق ، ولا يرجع ذلك إلى فضل الأوربين أنفسهم وميلهم إلى التسامح بقدر ما يرجع إلى وفرة فى المناطق التنازع عليها ، واتساعها بحيث أن التنازل عن إقليم كان يتم فى مقابل الحصول على إقليم آخر وهكذا ، ومن ناحية أخرى ، كانت العلاقات الأوربية فى تلك الفترة تخضع لضوابط - ولو أنها لم تنجح فى منع حدوث الأزمات الأفريقية لأنها أصلاً لم توجد لحل هذه الأزمات أو منعها - استطاعات أن تعمل على ألا يتطور النزاع الاستعمارى إلى حرب سافرة(١٢).

وكانت هذه المرحلة من التنافس الاستعمارى بين كل من فرنسا وإنجلترا تتمثل فى المشروعين العظيمين (القاهرة - الكاب) وهو المشروع الإنجليزى الذى يقابله المشروع الفرنسى(البحر الأحمر - المحيط الأطلنطى) أى تمتد الأراضى الإنجليزية أو الفرنسية فيما بين هذه النقط فى خط مستقيم متصل يقطعه شئ ، ولما كان حوض النيل هو ملتقى هذين الخطين ، فإنه أصبح العقدة الرئيسية فى كل المسائل الاستعمارية ، بل أصبح العنصر الفعال فى السياسة العالمية فى ذلك الوقت(١٣) .

وقد فتح الاحتلال الإنجليزى لمصر عام ١٨٨٢م الباب للنزاع الاستعمارى بين فرنسا وإنجلترا ، الذى امتد إلى حوض النيل بأكمله .

ولم يكن فى وسع الفرنسيين السكوت على مركز الإنجليز فى مصر ، فاتخذوا من الحركة الاستعمارية فى أعالى النيل قواعد للضغط على الإنجليز فى مصر ، وكانت لهم فى هذا الميدان ثلاث قواعد .

القاعدة الأولى : محاولة النفوذ من الأوبانجى إلى النيل .

القاعدة الثانية : محاولة التفاهم مع ليوبولد صاحب دولة الكونجو الحرة.

القاعدة الثالثة : محاولة الاتفاق مع منليك .

وكان ذلك كله كفيلاً بأن تعيد إنجلترا النظر فى المسألة السودانية بأكملها(١٤) . ولعل هذا هو الدافع للحكومة الإنجليزية التى كانت علاقاتها بألمانيا طيبة إلى توقيع معاهدة ١٣١٢هـ - ١٥ نوفمبر ١٨٩٤م مع الحكومة الألمانية ، والذى بمقتضاها تم توسيع رقعة الأراضى الألمانية فى الكميرون فى مقابل اعتراف ألمانيا بالحقوق البريطانية فى السودان .

ورغبة من الحكومة الفرنسية فى القضاء على هذه العقبة التى وضعتها الدبلوماسية الإنجليزية فى طريقها من ناحية ، وكسب تأييد ألمانيا من ناحية أخرى ، انتهزت فرصة ميل الحكومة الألمانية وقتئذ للتقرب من فرنسا ، ودخلت معها فى مفاوضات فى برلين فى ١٣١١هـ - ٤ ديسمبر ١٨٩٣! بقصد تخطيط حدود الكميرون الألمانى والكونجو الفرنسى ، وتمت المفاوضات بنجاح فى عام ١٣١٢هـ الموافق ٤ فبراير ١٨٩٤م من وجهة النظر الفرنسية ، فقد استطاع المفاوضان الفرنسيان (مونتى Montei) و(هاوسمان Houssman) أن ينالا موافقة الحكومة الألمانية على أن تحصل فرنسا على طريق واسع للخروج إلى النيل والسودان المصرى ، وقد روى مونتى أن الإمبراطور وليم الثانى عرض أن يقوم تحالف دفاعى هجومى بين

ألمانيا وفرنسا ضد إنجلترا فى الحقل الاستعمارى ، مع أنه منذ ثلاثة شهور ، كانت الحكومة الألمانية قد وقعت مع إنجلترا إتفاقًا استعماريًا على جانب كبير من الأهمية ، مما يدفع إلى الاعتقاد بأن العرض كان يمثل رغبة الإمبراطور شخصيًا أكثر منها رغبة الحكومة الألمانية ، تلك الرغبة فى الانغماس فى الصراع ضد إنجلترا التى انتهت بقيام الحرب العالمية الأولى .

وقد اقتصر الأمر - بناء على رغبة المفاوضين الفرنسيين - على ما جاء بالمادة الثانية من بروتوكول ٤ فبراير ١٨٩٤م ، وهى أن فرنسا وألمانيا تتعهدان على احترام قانون برلين . وبهذه الاتفاقية ، أمكن لفرنسا إزاحة العقبة التى وضعها الإنجليز فى طريقها وأن تجد أمامها من جديد الطريق حرًا نحو النيل(١٥) .

وردت إنجلترا على ذلك بتوقيع معاهدة ١٢ مايو ١٨٩٤م مع دولة الكونجو الحرة التى تخلت لها عن بحر الغزال مقابل شريط طويل عرضه ٢٥ كم يمتد من بحيرتى البرت ونتجانيقا ، وبذلك ضمنت تحقيق غرضين :

الأول : تحقيق مشروع القاهرة - الكاب .

الثانى : (وهو الأهم) منع أى تقدم فرنسى نحو السودان .

وقبل توقيع الاتفاق (الأنجلو - كونجلى) لم تشك الحكومة الفرنسية فى وجود أى تقارب أو تفاهم بين الطرفين ، بدليل أنه لم ترد عنها أى إشارة قبل توقيعه فى الوثائق الدبلوماسية الفرنسية . حقيقة كانت فرنسا تدرك أن البريطانيين والبلجيكيين قد يحاولون سبق الفرنسيين نحو أعالى النيل إلا أن الفرنسيين كانوا على ثقة من أنهم سوف يحرزون قصب السبق . وبالفعل كان مرشان أول من وصل إلى فاشوده(١٦) ، لذلك كان يهم الفرنسيين أن يحتفظوا

بمسألة أعالى النيل فى الصعيد العملى بعيدًا عن ميدان الدبلوماسية . ولما كان الاتفاق (الأنجلو - كونجولى) يهدد هذه الخطة ، فقد سارع رئيس الوزراء الفرنسى (كازيمير Casimir) إلى الاحتجاج ضده فى بروكسل ولندن بعد نشره مباشرة ، ولكن خليفته فى وزارة الخارجية (هانوتو) رغم أنه كان أصلاً خبيرًا بالشؤون الافريقية فى وزارة الخارجية كان استعماريًا أقل حماسًا من زميله دبلكاسى ولو أن الاثنين كانا يودان الوصول إلى اتفاق مع إنجلترا بشروط استعمارية فى مصلحة فرنسا . وفى كل الأوقات كان وزير المستعمرات الفرنسى يفكر فى التفاصيل الاستعمارية فى حين أن زميله وزير الخارجية سواء كان هانوتو أو دبلكاسى كان أول ما يفكر فيه هو الوصول إلى اتفاق أو تفاهم ، وهذا لن يكون مقبولاً لدى الرأى العام الفرنسى إلا إذا كانت شروطه الاستعمارية محتملة .

أما فى إنجلترا فقد كان (كمبرلى) حديث العهد بوزارة الخارجية وكان دائمًا يبدى ميله للاتفاق مع الفرنسيين فى محادثاته معهم ، بيد أن (روزبرى) رئيس الوزراء كان يسيطر عليه ، هذا بالإضافة إلى أن (أندرسون) الخبير بالشئون الأفريقية بوزارته كان يعمل مباشرة مع (روزبرى) ولم يكن (كمبرلى) يعلم شيئًا إلا إذا تم الوصول إلى قرارهما ، وكان من رأى أندرسون أن صداقة الفرنسيين ليست بذات أهمية بالنسبة لأى جزء ولو بسيط من الأراضى الأفريقية ، لذلك فإنه عرقل جهود فيبس لمصادقة الفرنسيين(١٧) .

ولم يضيع هانوتو وقته بمقابلة دفرين فى عام ١٣١٣هـ الموافق أول يونيو ١٨٩٤م وحذره من أن الاتفاق (الأنجلو كونجولى) قد يدمر العلاقات مع فرنسا واقترح بسحبه أو تأجيله(١٨) . وفى الخامس من يونيو وافق كمبرلى على مناقشة اعتراضات فرنسا ، وعرض إعادة النظر فى جميع

المسائل الإفريقية المعلقة بين الحكومتيـن بقصـد الوصـول إلـى تصحيـح للأوضاع من شأنه أن يضع العلاقات بين البلدين فى تلـك القـارة علـى أسـاس مرضى، بشرط استبعاد المسألة المصرية من المناقشة لأنها قطعة كبيرة(١٩).

ومـن المحتمـل أن تكـون المقابلـة قد تمـت بينـى دفريـن وهـانوتو فـى ١٣١٣هـ الموافق العاشر من يونيو ١٨٩٤م ، وقد حاول دفريـن أن يشـير أن الاتفاق الأنجلو - كونجولى قد وقع لمجرد تجنب الصراع مع البلجيكيين دون التفكير بالمسـاس بالفرنسيين ، وأضـاف أنـه لـيس هنـاك أى احتمـال لإلغـاء الترتيبات التى ترتبت على توقيع الاتفاق الأنجلو - ألمانى أو تعديلها . وقد أجاب هانوتو أن هذه المعاهدة لا تعد قائمة فى نظرنـا ، ولا يمكننـا أن نوافـق علـى هذه الطريقة الدبلوماسية الجديدة التى تقوم على أساس ادعاء للحقوق فـى أراضـى إمـا باتفاقيات بين الدول التى ليـس لهـا اى حـق فيهـا ، أو لمجـرد تصريحـات فـى البرلمان ، لأن حقوقنا فى هذا الجزء من النيل تضارع فى جديتها حقوق إنجلترا .

وخرج دفرين من تلك المقابلة بـأن الرغبـة الحقيقيـة للفرنسيين هـى أن يمنعونا من أن نؤسس لأنفسنا ... فى بحر الغـزال وفـى وادى النيـل ، وربمـا ليحرزوا قصب السبق علينا فى احتلال هذه الجهات(٢٠) .

وكان البريطانيون يعتقدون أنهم وقعوا معاهدة مرضية مع دولة الكنجـو الحرة ، فلم يكن فى نيتهم التخلى عنها ، لذلك لم يعكفوا علـى دراسـة عـرض هانوتو بمناقشة المسألة وديًا ، وانتظـروا منـه أن يتقدم ببعـض الاعتراضـات على التفاصيل فحسب ، هذا بالإضافة إلـى أن الحكومـة البريطانيـة كـانت قد نالت ما يكفيها من الاعتراضـات الألمانيـة علـى المـادة الثالثـة التـى بمقتضاهـا أجر لوبولد للبريطانيين الأراضى الكونجولية المتاخمة لأراضى شرق أفريقيـا الألمانية والتى عرف باسـم حـاجز (٢١) لادو (Lado Enchave) . علـى أن

ذلك لم يكن ليغير شيئًا من الأوضاع القائمة ، فإن الحركة الألمانية – فى رأى البعض – كانت تهدف إلى تهديد البريطانين لكى يجددوا تأييدهم لإيطاليا والنمسا والمجر فى البحر المتوسط . وربما كان لها دافع ثانوى آخر ، وهو تحسين العلاقات مع فرنسا ، ولكنها لم تحقق أيًا من الهدفين ، إنما نجحت فى إساءة العلاقات بين روزيرى وألمانيا والتحالف الثلاثى بصفة عامة(٢٢) .

وعلى عكس ما تصور الألمان ، فإن الفرنسيين لم يستجيبوا لتلك الدعوة ، ولم يفكروا أبدًا فى فى الاعتماد على تأييد ألمانيا فى نزاعها مع إنجلترا ، إذ أنهم لما استفسروا من الألمان – أمام هذه الصداقة الجديدة المعروضة عليهم – عما إذا كان يمكنهم تأييد الفرنسيين فى المسألة المصرية ، لأن ذلك كان الثمن الوحيد لإمكان قيام وفاق فرنسى – ألمانى ، لم يستحب الألمان لهذا الاقتراح ، فسار الفرنسيون فى طريقهم وحدهم .

ومن ناحية أخرى يبدو أن دفرين أراد أن يحتفظ بهدوء هانوتو ، خاصة وأن النزاع مع ألمانيا حول المادة الثالثة لم يكن قد سوى بعد ، فلعب بالدبلوماسية على مسئوليته الخاصة ، فأصغى لاقتراح هانوتو بأن يتخلى ليوبولد أيضًا عن المادة الثانية من الاتفاق الأنجلو – كونجلى التى تنص على تأجير بعض الأراضى لدولة الكونجو ، كما سبق له التخلى عن المادة الثالثة تحت ضغط ألمانيا(٢٣) . وفى محادثات (هانوتو – دفرين) فى ٢٠ يونيو ١٨٩٤م هدد دفرين بدعوة الدول التى وافقت على إنشاء دولة الكونجو لعقد مؤتمر ، ورغم أن موقف فرنسا كان سليمًا من الناحية القانونية ، إلا أنه لم يكن من المنتظر أن تلقى تأييدًا من أية دولة عظمى بخصوص المسألة المصرية، وكان هذا واضحًا تمامًا فى موقف دول النمسا والمجر وإيطاليا ، لدرجة أن فرنسا لم تسألهما عن رأيهما ، أما ألمانيا فقد قنعت باسترضاء البريطانين لها بالغاء المادة الثالثة ، لذلك فقد قام وزير الخارجية الألمانية مرشال Marchall بإجازة لتجنب أى شئ يذكره بمحاولات التقرب التى بذلها مع فرنسا(٢٤) .

ولم يكن موقف روسيا أفضل من موقف ألمانيا ، ففى أواخر يونيو حاول هانوتو استخدام التحالف الروسى – الفرنسى لصالح فرنسا ، وبعد مرور أسبوع من التهرب عن إجابة هذا الطلب ، أمكن انتزاع جملة واحدة من الوزير الروسى (جيرس Giers) بأن القيصر يوافق تمامًا على وجهة نظر حكومة الجمهورية ، ولم يزد الأمر على ذلك ، وهكذا استمرت مسألة أعالى النيل محصورة بين هانوتو ودفرين(٢٥) . وتقابل الاثنان فى ٢٩ يونيو ، وكان استسلام البريطانيين للضغط الألمانى منذ أسبوع ، قد زاد من تصميم الحكومة البريطانية على ألا تتهاون أكثر من ذلك بالتنازل أيضًا لفرنسا عن مطالبها . ولابد أن دفرين قد علم بغضب روزبرى المتزايد ، أما هانوتو فقد كان من ناحية يتعرض لإلحاح زميله وزير المستعمرات بالتخلى عن محاولات التفاهم مع البريطانيين ، وبأن يوقع بالضابط مونتى فى حلبة السباق نحو أعالى النيل ، فإن ليوبولد كان قد بدأ يلين للضغط الفرنسى ، وبدا أنه ليس هناك ما يدعو فرنسا من ناحيتها إلى أن تتساهل فى موقفها من إنجلترا . وفى وسط هذه الأحداث قررت الحكومة البريطانية الاستعداد لاحتمال قيام حرب ضد فرنسا حيث صدرت الأوامر للبحرية البريطانية بعمل الاستعدادات اللازمة وتحصين كافة الموانى والثغور البحرية (٢٦) .

أنقذ هانوتو الموقف بقوله : (إن فرنسا لا تطالب بأكثر من سحب المادة الثانية ، وهى لا تنافس فى الوقت الحاضر الاتفاق الأنجلو – ألمانى الموقع عام ١٣٠٨هـ – ١٨٩٠م الذى اعترف بأعالى النيل كمنطقة نفوذ بريطانية) . وهكذا وجد الرجلان مخرجًا ولو أن تردد اسم مونتى كان بمثابة تذكرة بأن طريق التفاهم لن يبقى مفتوحًا إلى أمر غير محدود (٢٧) . ومع ذلك فإن المخرج لم يكن من الإتساع بحيث يمكن منه بلوغ الاتفاق ، إذ اعتقد

دفرين أن الاتفاق مع ليوبولد غنمًا لا يجوز التفريط فيه . وفى اجتماع ٤ يوليو بين الوزير الفرنسى والسفير البريطانى أراد الإنجليز الوقوف على الثمن الذى يطالب به الفرنسيون مقابل اعترافهم بمجال النفوذ البريطانى ، فتساءل السفير : إذا كان هناك أى اعتراض من جانب فرنسا ، أليست هى المطالبة بأن تقترح طريقًا للخروج من هذا المأزق تمشيًا مع الروح الودية التى بدأت بها المناقشة ؟ فأجاب هانوتو بأنه ينبغى أولاً أن تقدم بريطانيا الدليل على رغبتها فى الوصول حقًا إلى تسوية، وهذا الدليل فى رأيه هو سحب المادة الثانية.

وفى ١١ يوليو ، دخل وزير الخارجية البريطانية (كمبرلى) فى مناقشات مع (ديكرية Decrias) السفير الفرنسى فى لندن ، وقد تعرضا فيها لجميع نقط الخلاف ما عدا المعاهدة الأنجلو - كونجولية . ويبدو أن كمبرلى أشار إلى أن بريطانيا يمكنها أن تتفاهم إلى درجة معقولة فى أى جزء آخر ، لو تخلت فرنسا عن اهتمامها بأعلى النيل ، فلم يتأثر هانوتو بذلك فقد أبلغ ديكرية بأنه لا يمكن مناقشة أية تسوية عامة ما لم يتم إزاحة معاهدة ١٢ مايو من الطريق وكشف هانوتو عن آرائه فى خطاب خاص بعث به إلى سفيره فى لندن ، فقال إن فرنسا يمكنها أن تتخلص من المعاهدة التى تعترض عليها بطريقة أخرى غير الاتفاق مع إنجلترا (وهذا ما تم فعلاً بعد ذلك بقليل) وان الميزة الوحيدة للاتفاق هو ما يتبعه من تحسين العلاقات بصفة عامة(٢٨) .

أى أن هانوتو كان يستهدف الوصول إلى الوفاق الودى فى حين كان البريطانيون يفكرون فى أعالى النيل فحسب ، واللفتة الوحيدة التى أبداها (هانوتو) دليلاً على ميله للتفاهم كانت فى ١٣ يوليو حينما تسلم مونتى وهو على وشك السفر إلى أفريقيا أوامر صارمة من ديلكاس وهانوتو بألا يرسل مطلقًا قوة أو حتى رجلاً واحدًا إلى حوض النيل(٢٩) .

وكان هذا هو المجهود الوحيد الذى بذله أى من الجانبين لتجنب الاصطدام . ولما يئس هانوتو من إقناع البريطانيين بالتخلى عن المادة الثانية، لم يكن هناك مناص من أن يلجأ إلى وسيلة أخرى ، وهو الضغط على ليوبولد الذى كان - بوسفه عاهلاً لدولة الكونجو الحرة - مستقلاً تمامًا ، إلا أنه كان يرضخ دائمًا لغضب وزرائه البلجيكيين ، الذين كانوا يرون فى الدولة الحرة مصدر حرج لهم ، ولم يكونوا يميلون إلى إضافة أية أراضى إليها ، فما بالك بالنزاع مع فرنسا .

ولما كان ليوبولد لا يزال يأمل فى أن ينال تأييد البريطانيين ، فقد عمد الإنجليز إلى استدعاء دفرين إلى لندن بحجة مشاورته حول المناقشات المعلقة بين إنجلترا وفرنسا ، وكان المقصود هو إبعاد دفرين عن باريس كى لا يتصل مندوبو دولة الكونجو الحرة به .

واضطر ليوبولد فى عام ١٣١٣هـ الموافق ٨ أغسطس ١٨٩٤م أن يطالب البريطانيين صراحة بتأييده ، فأراد روزيرى أن يستعرض عضلاته ، أو لعله أراد لليوبولد أن يستعرض هذه العضلات أمام الفرنسيين فأوصاه بالتمسك بموقفه بأنه لا يمكن إجراء أى تعبير فى مواد الاتفاق الأنجلو - كونجولى دون موافقة بريطانيا العظمى .

ولكن بدا بعد ذلك أن الوزارة البريطانية وبخاصة فريق Little Englonders غير راضى عن مسلك روزيرى للوقوف فى وجه فرنسا(٣٠) ، وفعلاً أبرق وزير الخارجية البريطانية إلى سفيره فى بروكسل ، بأن حكومة صاحبة الجلالة لا يمكنها أن تصر على احتلال حكومة الكونجو للأراضى التى تم تأجيرها لها بمقتضى اتفاقية الثانى عشر من مايو (٣١) .

وتاريخ هذه البرقية التى بدلت موقف بريطانيا المتشدد هو١٣ أغسطس، وفى اليوم التالى وقع مندوب دولة الكونجو مع هانوتو فى باريس الاتفاق الفرنسى الكونجولى بتاريخ ١٤ أغسطس ١٨٩٤م .

وقد تلقت الدولة الحرة تسوية معتدلة على حدود الأوبانجى فى مقابل أن تتخلى عن كل احتلال ، وألا تمارس مستقبلاً أى عمل من أى نوع غربى خط طول ٣٠° شرقًا أو شمالاً خط عرض ٥° ، وقد سمح الفرنسيون للدولة الحرة باستئجار الضفة اليسرى للنيل شمالاً لأنها لا تعترض الخطط الفرنسية ، وبذلك يكون الفرنسيون قد تخلوا عن اعتراضاتهم السابقة القائمة على مبدأ أنه طالما لا تزال حقوق مصر قائمة ، فإنه ليس للبريطانيين أى حق فى تأجيرها وبذلك النجاح يكون الفرنسيون قد قضوا على الهدف الرئيسى من وراء توقيع المعاهدة الأنجلو – كونجولية(٣٢) .

قبل المناقشات التى دارت فى يونيو ١٨٩٤م بين هانوتو ودفرين من ناحية وكمبرلى وديكرية من ناحية أخرى كان فى وسع البريطانيين التظاهر بجهلهم اعتراضات الفرنسيين ، وكان فى وسعهم أيضًا الإدعاء بأن مجال النفوذ البريطانى قد تلقى اعترافًا دوليًا ، ولكن فى خلال المناقشات بدى من الواضح أنه لابد من إجراء مفاوضات مع فرنسا لتجنب وقوع اصطدام بين الطرفين إن آجلاً أو عاجلاً ، ولم تكن وزارة الأحرار المنقسمة على نفسها فى موقف يسمح لها بأن تقدم على هذا الصراع ، ولكنها فى نفس الوقت لم تكن فى حاجة ماسة لصداقة الفرنسيين(٣٣) .

وفى ٨ أغسطس أقدم هانوتو على خطوة للتفاهم مع المستر (قسطنطين واريك فيبس) Constantine Eric Phipps الوزير المفوض بالسفارة البريطانية فى باريس ، فقال أنه ليست هناك أية مسألة عن التقدم الفرنسى نحو بحر الغزال ، واضاف هل يمكن تصور أن دولتين مثل إنجلترا

وفرنسا تفكران لحظة واحدة في الدخول في حرب بسبب سيراليون أو أى جزء آخر من أفريقيا ؟

وكرر هانوتو العرض الذى سبق أن قدمه وهو الإعتراف بمجال النفوذ كجزء من تسوية معقولة . وبعد توقيع الاتفاق الكونجولى ١٤ أغسطس عاد دفرين إلى باريس يحمل شروط البريطانيين فقدمها إلى هانوتو في ١٦ أغسطس ، وهى تطالب بالإعتراف بمجال النفوذ البريطانى فى مقابل الوعد بأن تظل حقوق مصر معلقة حتى تصبح الحكومة المصرية فى موقف يسمح لها بإعادة احتلال الأراضى موضوع المسألة ، وبعد ذلك يمكن للحكومة البريطانية أن تسوى كل المسائل الأفريقية الأخرى بروح التفاهم .

ومهما يكن من أمر فإن هانوتو عرض المقترحات البريطانية على مجلس الوزراء الذى صرح له بمتابعة المحادثات ، وفى تلك الأثناء قام دفرين بإجازة ، وحل محله (فيبس) الذى كان أكثر دراية بالتفاصيل الأفريقية ، فضلاً عن أنه يتيح للحكومة البريطانية فى المستقبل التنصل من أى اتفاق قد يصل إليه .

وقد تفاوض هانوتو وفيبس شهر سبتمبر ، وقد أمكن الوصول إلى اتفاق – دون أية صعوبة حول مختلف النقاط عن غربى أفريقيا ، وصرح هانوتو بأن فى وسعه الإعتراف بالاتفاق الأنجلو – ألمانى الموقع عام ١٣٠٨هـ – ١٨٩٠م (الذى يحدد مجال النفوذ البريطانى) فى مقابل عرض مماثل على مستوى عال . وقد أثير هنا اعتراض جد خطير ، فقد وفق منذ بداية المحادثات على عدم إثارة المسألة المصرية والاتفاق الأنجلو – ألمانى نص على أن المجال البريطانى يمتد إلى حدود مصر ، وأبدى هانوتو استعداده للإعتراف بهذا المجال طالما أن ذلك لا يتضمن أى إعتراف بسلطة البريطانيين فوق الأراضى المصرية ، وقال أن بريطانيا تخلط بين مجال نفوذها ومجال النفوذ المصرى ، فأين يقف أحدهما وأين يبدأ الآخر(٣٤) .

ولم يكن لدى فيبس أى علم بالمجـال البريطـانى ، فأجـاب دون أن تصلـه اية تعليمات ، بأن المجال البريطانى تحدد وفقـاً للاتفـاق الأنجلـو - كونجولـى ، أى‌انه يمتد شمالاً حتـى خـط عـرض ١٠° شـمالاً أى حتـى فاشـودة ، وقد كـان الإعتقاد السائد فى لندن أن امتداد المجال البريطـانى شـمالاً حتـى فاشـودة ، لـن يقف حائلاً دون وصول الفرنسين إلى النيل ، إلى الشمال من هذة النقطة(٣٥) .

وقد أثار هـذا الجـواب هـانوتو وطـالب بإبلاغـه الحـد الجنوبـى لمصـر ، لاالحد الشمالى للمجال البريطانى فلم يتلق اى جـواب علـى ذلـك ، وحـاول هـو نفسه فى ٣٠سبتمبر إيجاد حل عملى لتحديد المجالات فقال أن الإتفاق الفرنسـى - الكونجولى الموقع فى ١٤ أغسـطس قـد سـمح للبلجكيـن بـالتقدم شـمالاً حتـى لادو ، فهو بذلك قد إعترف بأن حقوق مصر على الضفة الغربيـة للنيـل تنتهـى عند خط عرض ٣٠° . وهنا عرض كتشنر إلى القائد الفرنسى مـا رشـان يبلغـه يجب أن تعترف فرنسا بمجال النفوذ البريطانى على الضفة الشرقية للنيل شمالاً حتى هذا الحد(٣٦) ، وقال أنه يمكن تجنب اى صراع فى المستقبل بين إنجلـترا وفرنسا ، بأن يمتنع الطرفان عن العمل ، فتعد فرنسا فـى الوقـت الحـاضر بـألا تتخطى خط تقسيم المياة بين النيل والكونجو ، ولا تتقدم إنجلـترا فـى نفس الوقـت ، إلى أبعد من مراكزها الحالية فى أوغندا ، حتى إذا ما بات فـى وسـع مصـر أن تقدم على العمل ، يكون هناك مجال لعقد إتفاقية جديدة بين الحكومتين(٣٧) .

وقـد سـر (فيبـس) كثـيراً لهـذا الإقـتراح فبادربوضعـه فـى الصيغـة الدبلوماسية وحصل على موافقة هانوتو علية فى ٥ أكتوبـر ، وفـى التاسـع مـن نفس الشهر ، نقل مسـودة الإتفـاق إلـى لنـدن للموافقـة عليـة معتقـداً أنـه أصـاب نجاحاً كبيراً(٣٨) .

ولكن وزارة الخارجية البريطانية لم تتأثر كثيراً بما أحرزه (فيبس) ، وكتب روزبرى برقية إلى فيبس فى ١٠ اكتوبر جاء فيها ...والظاهر أنها - اى إتفاقية فسيبس - هانوتو محاولة لمنعنا من الدخمل فى مجالنا مقابل الإ تدخل فرنسا ، فتبدوكأنها إجراء من جانب واحد إذا أخذنا فى الإعتبار أن مجالنا قد إعترفت به ثلاث من أربع دول أفريقية عظمى(٣٩) .

وكان من رأى اندرسون خبير الشئون الأفريقية بوزارة الخارجية البريطانية أن تضع يدها على أعالى النيل خلف ستار من السيادة المصرية بأن تعترف فرنسا بأن مجالها بحدة خط مستقيم المياة بين النيل والكونجو ، وتصدر بريطانية فى نفس الوقت تأكيدات بأنها لاتنوى أن تحكم أو تدير بصفة مباشرة هذا الجزء من النيل الوارد ذكره فى المعاهدة الأنجلو - كونجولية الواقع إلى الشمال مكن خط عرض ٥/٣٠° وقال أن ذلك يمنحنا حرية العمل إلى الشرق من النيل ويتضمن فى الوقت ذاته إعترافاً غير مباشر بمجالنا عن طريق الإشارة إلى الإتفاق مع الملك ليوبولد .

وأعتقد أندرسون أنه يمكن فرض هذا الاقتراح على هانوتو بشيء من الضغط واللهجة الخشنه، ولهذا السبب رؤى أن يتنحى فيبس لأن لهجتة لينة وأن يتولى الأمر دفرين بنفسة . ومن ناحيهة أخرى كان هانوتو يتعرض لضغط شديد من جانب وزارة المستعمرات الفرنسية التى أبلغته فى ١٥ أكتوبر عدم موافقتها على اتفاقه مع فيبس فى ٥ أكتوبر الذى ينص على تبادل الإمتناع عن العمل وأبلغة ديلكاسى أن الحملات الفرنسية فى الأوبانجى يمكنها أن تحرز قصب السبق على البريطانين(٤٠) .

ولجأ هانوتو إلى فيبس اكثرمن مرة للوقوف على رأى البريطانين ، ولكن الوزير البريطانى المفوض كانت قد وصلته تعليمات بأن يتحاشى مقابلة هانوتو.

وعاد دفرين إلى باريس فى نهاية أكتوبر وفى مقابلة مع هانوتو فى ٣١ أكتوبر ، لجأ إلى سلاح التهديد الذى أوصى به أندرسون ، فقال أن الحكومة لا توافق على تسوية ما تلزم فرنسا بنصوص الإتفاق الأنجلو –ألمانى المعقود فى ١٨٩٠م ، فرد هانوتو بأن فرنسا لا تمانع إذا ما حدد البريطانيون حدود مصر وبذلك عادت المناقشة إلى نقطة البداية .

واهتم أندرسون فى نوفمبر بتحديد حدود مصر فقال إنها وردت فى عام ١٨٤١م على أساس أن أقصى حد فى الجنوب هو خط عرض ١٠° شمالاً ، وبتعديل بسيط تصبح فاشودة داخل نطاق من المجال البريطانى ، لذلك أرسل اللورد سولسبرى تعليمات للسير اودموند مونسن Admond Monsen سفير إنجلترا فى فرنسا ليبلغ وزارة الخارجية الفرنسية بأن كل المناطق تابعة لهم(٤١) .

وصدرت التعليمات إلى دفرين فى ٣ نوفمبر ، بأن يصر على أن أى إتفاق على المسائل الإفريقية الآخرى رهن الاعتراف بالمجال البريطانى ، وجاء الإجتماع الحاسم فى ٧ نوفمبر ، فمطالب دفرين بالإعتراف بالمعاهدة الأنجلو- كونجولية المعقودة فى ١٢مايو ، وأشار هانوتو إلى الإتفاق الفرنسى الكونجولى الموقع فى ١٤ أغسطس ، ولفت النظر إلى أن دولة الكونجو قدايستشارت إنجلترا قبل التوقيع علية ، فإضطر دفرين أن يسأل الوزير الفرنسى ما إذا كان فى وسعة أن يرى حلاً للنزاع حول السودان(٤٢) . فرد هانوتو أن فى ذهنة إقتراح (تبادل وقف العمل او عدم الإهتمام به مؤقتاً) ورفض دفرين لأن فيبس فى رأيه – قد سار شوطاً بعيداً فى هذا الإتجاه ، والآراء التى عبر عنها لم تكن كلها تمثل راى الوزارة البرياطانية ، وطالب دفرين الوزير الفرنسى بأن يتعهد باسم فرنسا بالا يمد مجال نفوذ بلاده إلى حوض الكونجو ، فرفض هانوتو ذلك(٤٣) .

وقد تحدث بعض المصادر عن أنه أمكن الوصول إلى إتفاق بعد أن تنازل كل جانب عن بعض مطالبه(٤٤) ، وقيل أنه وضعت مسودة لمشروع الإتفاق فى الأيام الأخيرة لعام ١٨٩٤م وقبلت إنجلترا بمقتضاه أن ينتهى الإمتداد الطبيعى لمصر عند الخرطوم(٤٥) ، وقد توصلت أيضاً إلى وصل أملاكها فى افريقيا الشرقية بكل الأراضى الواقعة شمالى أوغنده على طول النيل (خط عرض ١٠° شمالاً) على أن تترك منطقة النيل الأبيض فيما بين الخرطوم وفاشودة مفتوحة للتنافس عليها أمام الجميع(٤٦)، حيث ساهمت السكك الحديدية فى التطور فى جميع المجالات(٤٧) .

وقد علق البعض على هذا الإتفاق - الذى لم تنشر نصوصه - بأنه صعب التصديق ، لأن فية ما بعث على الاعتقاد بأن انجلترا رضيتبأن تنال ماهو أقل من السودان كله لها أو لمصر (٤٨).

وقال أن كتابات المعاصرين من الأنجليز لاتدع مجالاً للشك فى هذا ، واستدل على ذلك الإتفاقية الشهيرة التى أبرمت عام ١٣٠٧هـ -١٨٨٩م بين مصر وانجلترا لجعل السودان شركة بينهما (٤٩) . لأنه كان يشك فى حكمة إقدام مصر على إسترداد كردفان ، وقال أيضاً أن سبب نكبة مصر فى السودان يرجع إلى التوسع فى الفتوحات أيام الخديوى إسماعيل(٥٠) ، وأنه لو اكتفت مصر بما كان لها أيام محمد على ، لكان فى وسعها الأحتفاظ به ، وقال أن السودان كان عبئاً ثقيلاً فى تمويل المشروعات الخاصة بالتنمية وقد ساهمت إنجلترا بنصيب فى تنميته الاقتصادية(٥١) ، وذلك لتأمين طريق التجارة الخاصة بها عبر أفريقيا لبلاد الهند(٥٢) .

ويعترض على هذا الرأى بعض المؤرخين الإنجليز ، إذ قيل إن البريطانين لم يفرقوا أبداً بوضوح بين مجالهم وحقوق مصر ، لأن فاشودة حين تحددت كأقصى حد شمالى للمجال البريطانى كان السبب فى ذلك بكل بساطة أنه كان من المعتقد أنه فى ليس وسع الفرنسيين الوصول إلى النيل إلى الشمال من تلك النقطة إذا ما أعترفوا بمجال النفوذ البريطانى . وقيل ايضاً أنه لم تكن هناك أية نيـة فى الاعتراف بوجود أرض بلا مالك فيما بين حدود مصر والمجال البريطانى لأن وادى النيل كله كان فى نظر البريطانيين، يدخل فى أحدهما أو فى الآخر(٥٣) ، فلم يعترفوا أبداً بأن حقوق مصر تنتهى عند الخرطوم، وبذلك فإن رأى المؤرخ لانجر أو تخمينه لا يقومان على أساس(٥٤) .

ومهما يكن من أمر، فإن الذى لا شك فيه هو أن البريطانيين كانوا يعتبرون إن دائرة نفوذهم فى شرقى افريقيا تمتد من المحيط الهندى إلى بحيرة فيكتوريا ثم تضم أوغنده وتهبط مع النيل حتى تصل إلى فاشودة ، وسميت هذه الجهات بمديرية خط الإستواء وكان غوردون باشا مديراً المديرية(٥٥) . ولم يبق لإقرار الإتفاق الفرنسى - الإنجليزى سوى موافقة الحكومتين ، ولكن حدث أن إستقالت وزارة (ديبوى Dupuy) الفرنسية وتشكلت وزارة جديدة برئاسة كازيمير Casimir، رفضت الإتفاق الذى سبق أن وافق عليه هانوتو وزير الخارجية فى حكومة ديبوى ، وقد إختلفت الآراء حول رفض وزارة كازيمير للإتفاق الذى قيل إنه إصطدام بمعارضة شديدة من جانب وزارة المستعمرات التى أشارت إلى رواج الشائعات عن قيام بعثة بريطانية من أوغندهبقيادة الكولونيل كولفيل Colville للوصول إلى النيل الأوسط(٥٦) .

وقيل أيضًا أن الرفض يرجع من جانب فرنسا إلى أن الإتفـاق لـم يمـس مسألة الجلاء عن مصر ، هذا فضلًا عن أن الوزارة الجديدة لـم تكـن مهمتـة وقتئذ بمسـألة النيـل . أمـا عـن الجـانب البريطـانى ، فربمـا جـاء الرفـض لأن روزبرى لم يكن يود أن يواجه مسألة الجلاء عن مصر ، وهو فى واقع الأمر لم يفاوض الفرنسيين إلا تحـت ضغـط الوزيـر هـاركورت HAR COURT ، بسبب شعور عدم الإرتياح الذى ساد لندن بسبب التعاون الفرنسـى الألمـانى ، ولكن هذا الخطر زال فى الشهور الأولى لعـام ١٣١٤ هـ - ١٨٩٥ م ، فـإن الألمان سرعان ما عادوا إلى سياستهم التقليدية التـى تقـوم علـى تـأييد سياسـة بريطانية فى مصر(٥٧) .

وكل ما يهمنا من المفاوضات التى دارت بين هانوتووفيبس أنهـا ترجـع فى أهمياتها إلى محاولة الفرنسيين إيجاد حل دبلوماسي للمسائل الأفريقية رغم أنه فى سبتمبر ١٨٩٤ م كانت قـد صـدرت التعليمـات إلـى ليوتـارد قومسـيير أعالى الأوبانجى بمد سلطانة إلى بحر الغزال والنيـل بنـاء علـى تعليمـات مـن ديلكاس وزير المستعمرات (٥٨) ، وقد ضم إليه مرسوم تعينه الأراضـى التـى تحد غرباً بخـط يمتـد مـن بـانجى BANGHI ألـى الفاشـر ، أى أن فرنسـا - بجرة قلم - قد ضمت إلى ممتلكاتها مديرية دارفور(٥٩) .

وفـى ١٢ فـبراير ١٨٩٥ م قـال حـاكم الكونجـو الفرنسـى دى بـرازا DEBRAZZA إن الإتفاق الفرنسى - الكونجولـى فـى أغسـطس ١٨٩٤ م قـد أتاح لفرنسا مخرجاً إلى وادى النيل ، وأن هـذه هـى الوسـيلة الوحيـدة لتسـوية المسألة المصرية بما يتفق ومصالحنا(٦٠) .

وبعد أسبوعين أى فى ٢٨ فبراير وقف دى لونكل Deloncle وهـو مـن كبار رجال الاستعمار فـى البرلمـان يقـول إن تقـدم فرنسـا نحـو بحـيرة تشـاد وأعلى الأوبانجى وأعلى النيل لا يقوم على أسـاس الإقامـة فـى هـذه المنـاطق

الغير صحية ، لأن هدف السياسة هو الضغط على البريطانيين فى أيه مفاوضات مقبلة لإكراههم على إحترام وعودهم بالجلاء عن مصر (٦١) . وحيث أنه قد أتيح لفرنسا مخرجاً إلى النيل ، فإنه من واجب فرنسا أن تأخذ بتلابيب إنجلترا من المؤخرة ، وكان لهذه التصريحات أثرها الكبير فى لندن وخاصة بعد تعيين ليوتارد وصدور الأمر إليه بمد النفوذ الفرنسى إلى النيل (٦٢) .

وبات من الواضح تماماً أن فرنسا سوف تلجأ إلى هذه الخطة للضغط على بريطانيا للجلاء عن مصر (٦٣) .

ولم يضيع ليوتارد دقيقة فى تنفيذ تعليمات حكومته ، فقام رغم قلة الموارد وضعف الأمكانيات لديه ، بوضع يده بمهارة على المراكز التى تخلى عنها البلجيكيون بموجب إتفاقية ١٤ أغسطس ١٨٩٤ م فى إتجاه خط المستقيم للمياة بين النيل والكونجو . وقد أحتل زميو zemio وبنجاسو bangasso وتامورة amoura ودهشت إنجلترا فى مبدأ الأمر من النشاط الفرنسى المفاجئ، وأدركت أن ذلك بمثابة دق لناقوس الخطر ، فكتبت جريدة (التايمز) فى ٥ مارس ١٨٩٥ م تقول إن الجماعة الإستعمارية الفرنسية لن تهدأ إلا إذا رفرف العلم المثلث الألوان فوق أعلى النيل ، ولاشك أن فرنسا وليوبولد الآن على إتفاق تام ، ومن ناحية أخرى إزداد نشاط الفرنسيين والروس فى الحبشة ، وبذلك بات مركزبريطانيا مهدداً من كل النواحى(٦٤) .

وفى اليوم التالى كتب القائد العام walsili إلى وزير الحرية lansdowne يدعو فيه الحكومة ألا تقف مكتوفة الأيدى أمام خطر إحتلال مناطق أعالى النيل على يد فرنسا (٦٥) التى تهدف إلى أن تمتد أملاكها إلى البحر الأحمر فى سلسلة متصلة غير متقطعة(٦٦) .

وفى نفس اليوم ، تقدمت إدارة المخابرات بوزارة الحربية البريطانية بتقرير هام ، إذ وقع فى يدها خريطة المانية للسودان توضح الآثار التى سوف تترتب على الإتفاق الفرنسى الكونجولى الموقع فى ١٤ أغسطس ١٨٩٤ م ، وقد إستخلص منها أذهانهم العسكرية أن طريق الفرنسيين إلى النيل لا يزال مفتوحاً(٦٧) .

وفى ٢٨ مارس ، عقدت جلسة تاريخية فى مجلس العموم البريطانى ، إذا وقف أحد أعضائة وهو (سيراليس أشميد – برتليت) sir elllis ashmead barrylett - فقدم بياناً مفصلاً عن الحالة ، وأشار إلى أن تأمين أعالى النيل يعد من المسائل الرئيسية الهامة فى السياسة الخارجية وأكد التهديد الذى ينطوى عليه طموح الفرنسيين من وراء مد نفوزهم من غرب أفرقيا عند أعالى النيجر(٦٨) ، وهو إذا تحقق فلابد أنه سوف يجعل من شمال أفرقيا بما فيها مصر من املاك فرنسا ، ويصبح البحر المتوسط بحيرة فرنسية . فهذا سير صمويل بيكر يقول إن أيه دولة أوربية تححتل أعالى النيل ، تضع مصر تحت رحمتها " وصرح أحد العسكريين أنه لو كان فى وضع المهدى لأكره مصر على أن تدفع ثمن كل قدح من الماء يجرى فى النيل . وهذا أيضاً أعظم خبراء مشكلات مياه النيل (سير كولن سكوت موتكريف) - colin scott -moncraeff يقول أن أيه دولة متمدنية تحتل وادى النيل الأعلى سوف تضع مصر فى قضبتها ، إذ تسيطر على مياة النهر ، وتفرض ما تشاء من الاتفاقيات على الشعب المصرى أو الحكومة البرطانية التى تهيمن على شئون مصر ، والمسئولة عن سياسة هذه البلاد ، وأن الخطر الأكبر هو أن نجد أنفسنا يوماً أمام الأمر الواقع Fait Accompli ، فنضطر إلى التخلى عن كل ما عملناه فى مصر ، ونقبل أن تجاورنا فى حوض النيل دولة أوربية كبرى ،

لذلك ينبغى على الحكومة البريطانية أن تقدم على عمل سريع لإحتلال مجرى النيل الذى يجرى فى الأراضى المصرية ،وإلا وجدنا الفرنسيين وقد سبقونا إلى هناك خاصة وأنهم قد وطدوا أقدامهم فى أعلى الكونجر ، فضلاً عن أنهم قد قلبوا معاهدتنا مع البلجيك رأساً على عقب وحلت محلها معاهدة أخرى بين فرنسا ودولة الكونجو طالبوا فيها هذه الدولة بالتخلى عن الأراضى التى سبق أن تركزت بها ، وبذلك سمحت للفرنسيين بالنفوذ إلى النيل فتتاح لهم الفرصة يوماً لإعادة فتح باب السألة المصرية بطريق تتفق ومصالحهم(٦٩) .

وتحدث أيضاً نائب محافظ عمل فيما مضى وكيلاً لوزارة الخارجية وهو المستمر (لوذر) Lowther فقال : أن اتفاقيتنا مع المانيا وإيطاليا ودولة الكونجو قد اعترفت لإنجلترا بملكيتها لحوض النيل أمام العالم أجمع . فلو أعترضت فرنسا على أساس أننا لم نشاورها فى الأمر ، فالجواب أنها لاتملك أيه أراضى فى تلك المنطقة ، وإنها إذا أرسلت حملة إلى هذه المناطق فسوف يكون هذا العمل من جانبها ذا صبغة عدائية .

وأخيراً وقف (سيرادوارد جراى) Grey وكيل الخارجية ليلقى بالتصريح الهام الذى نقلت منه فيما يلى الفقرات التى تهمنى :

" إن الترتيبات التى قمنا بإجرائها مع ألمانيا فى ١٣٠٨ هـ -١٨٩٠ م وإيطاليا فى ١٣٠٩ هـ-١٨٩١ م لكى ننال من هاتين العظيمتيين اعتراف بمجال النفوذ البريطانى ، لم يتجاهلها أحد منذ خمس سنوات ، ورغم أنه لم يعترف سوى هاتين الدولتين المتعاقدتين ، فإن لدى الدول الأخرى علماً بها ... وأنى أصل هنا إلى مسألة حقوقنا فيما يختص بمصر ، إذ أن إنجلترا تشغل مركزاً خاصاً بها ، مركز الوصى لحماية مصالح مصر ، وقد سئلت ما إذا كانت هناك حملة فرنسية تتجة من غرب أفريقيا بقصد الوصول -

إلى الضفة اليسرى للنيل أم لا وأننا فى وزارة الخارجية ليس لدينا ما يدعو إلى الاعتقاد بأن حملة فرنسية قد وصلتها أوامر بالوصول إلى وادى النيل ، بل إننى لا ذهب إلى أبعد من ذلك فاقول أنه بالنسبة إلى حقوقنا التى تستند إلى الإتفاقيات التى عقدناها ، وبالنسبة إلى حقوق مصر فى وادى النيل ، وبالنسبة إلى حقوق مصر فى وادى النيل ، وبالنسبة إلى الحكومة الفرنسية تدرك تماماً وبكل وضوح هذه الحقوق ، وتدرك أيضاً آراء الحكومة بهذا الشأن فإننى لا أعتقد أن هناك ما يدعوا إلى تصديق الشائعات ، إذ أن تقدم أيه حملة فرنسية مزودة بتعليمات سرية من الجانب الآخر من أفريقية إلى الأراضى التى عرفت حقوقنا منذ زمن طويل ، لن يكون عملاً غير متوقع أو غير منتظم Inconsistent فحسب ، بل ينبغى على الحكومة الفرنسية أن تدرك بوضوح وجلاء أنه سوف يكون عملاً غير ودى Unfriendly وإن إنجلترا سوف تنظر إليه على هذا الأساس(٧٠) .

وقد آثار هذا البيان الخواطر ، وبصفة خاصة الفقرة التى تشير إلى " العمل غير الودى " حتى أن البعض وصفه بإنه (شبيه بإعلان الحرب ضد فرنسا) ، ووجد المؤرخون صعوبة فى تفسير السبب فى إستخدام مثل هذا اللفظ الشديد فى حين أنه لم تكن حاجة إلى ذلك . وقد قال { روزبرى) فى خطاب القاه فى (ابسوم) EPSOM فى ١٢ أكتوبر ١٨٩٨ م أن لفظ Unfriendly قد لا يكون له معنى كبير فى المحادثات ، ولكن فى اللغة الدبلوماسية له معنى استثائى خطير ، فلو أن دولة استخدمت هذا اللفظ لتصف به عمل دولة أخرى فإن الموقف حينئذيكون قد بلغ منتهى الخطورة(٧١) .

وقال صاحب التصريح نفسه سير (فيكونت فيما بعد) ادوارد جراى . أنه كان قد أعد بيانا حازماً لالقائه فى مجلس العموم عن نشاط الفرنسيين فى

غربى أفرقيا بناء على توجيهات لورد كمبرلى وزير الخارجية ، ولكن حدث أن المجلس لم يتعرض لمسألة غربى أفريقيا ، إنما أثيرت مسألة النيل ، وقد كنا متأكدين أنه ليست هناك أيه حملة فرنسية فى طريقها إلى النيل ، وهو ما أيدته الحوادث فيما بعد لأن حملة مرشان لم تكن قد قامت بعد ونحن فى الوزارة(٧٢) .

أى أن جراى يعتذر بأنه كان ينوى استخدام لغة القوة فى مسألة نهر النيجر ولكنه أخطأ وتحدث عن النيل وقد علق على ذلك أحد المؤرخين فقال :

"يصعب على المؤرخ قبول هذه القصة بلا تحفظ ، فإن مسودة البيان الخاص بنهر (النيجر) قد أطلع عليها (هاركورت) الوزير البريطانى فحذف منها كل ما من شأنه أن يسئ إلى فرنسا فضلاً عن أن (سيربرتبيت) Bertett قد أثار مسألة النيجر قبل مناقشة مسألة النيل ، فلم يكن هناك مانع من أن يلقى (جراى) بيانه الذى عدله (هاركورت) ، أما عن جهل وزارة الخارجية بأمر الحملة الفرنسية ، فهذا يمكن أن يؤخذ كدليل إهمال من جانبها، لأن الصحافة الفرنسية لم تخف سر الحملة . وأما ما أشار إليه (جراى) من أن الحوادث فيما بعد قد أيدت رأيه بأن حملة مرشان لم تخرج إلا بعد ذلك ، فهذا كله تضليل ، حقيقة لم يكن هناك حديث عن نشاط مرشان ولكن هناك الكثير يقال عن نشاط (ليوتار) خليفة (مونتى) ... وفى الواقع لا يمكن أن نجد أى مبرر لتصريح جراى(٧٣) .

ولم يكن المؤرخ الأمريكى (لانجر) هو وحده الذى رفض تحليل جراى، لأن بعض المؤخين الإنجليز لم يتقبلوه أيضاً(٧٤) .

وشرح مؤرخ فرنسى وجهة النظر البريطانية التى تتضمن تصريح (جراى) فقال :

" إن أهمية تصريح (جراى) من وجهة النظر السياسية لا تحتمل سوى معنى واحد ، وهو أن إنجلترا تحذر فرنسا من أنها لو تقدمت شرقاً فى منطقة أعالى النيل فإنها بذلك ترتكب عملاً غير ودى ، وعليها أن تتحمل النتائج التى تنجم عن ذلك ، أما فرنسا فينبغى عليها أن تختار بين أحد أمرين : إما أن تحنى رأسها أمام (الفيتو) البريطانى وتتخلى عن فكرة الاتجاه نحو النيل ، أو تحقيق مشروعها وتستعد للحرب .

" ومن الناحية القانونية ، فإن حقوق بريطانيا تستند إلى اتفاقيات ٩٠، ٩١، ١٨٩٤ وهذه كلها لم تكن فرنسا طرفا فيها ، فلا يمكن مطالبتها تنفيذ عهد لم تقطعه على نفسها ، ولم تتعهد ، أو تتعاقد عليه ، فإن معاهدة ١٣٠٨ هـ الموافق أول يوليو ١٨٩٠ م مثلاً جاءت صريحة فى المادة الثانية التى أوضحت تخلى ألمانيا لإنجلترا من حقوقها التى نالتها فى ويتو وقسمايو ... أما فيما يختص بأعالى النيل ، فلم تتحدث عن تخليها عن حقوق سيادة أو حماية ولكن تحدثت ببساطة عن مناطق نفوذ ، إذا أن المانيا تعهدت بألا تمارس أى نشاط فى منطقة النفوذ البريطانى ، فهى ، وهى وحدها التى تلتزم بذلك ، فإذا جاءت دولة ثالثة داخل مجال النفوذ البريطانى ، فإن حق البريطانيين فى إخراج هذه الدولة لا يستمد أية قوة من الاتفاق المعقود بين بريطانيا وألمانيا ، بل ينبغى أن يستند على مبادئ القانون الدولى ،وكيف يتسنى لبريطانيا إبراز حقها فى السيادة أو الحماية على هذه المناطق التى لم تراها أبداً(٧٥) .

وفى رأى البعض أن تصريح (جراى) لم يكن سوى تكراراً لما قيل للفرنسين مرارا فى المحادثات الخاصة وأقربها تحذيركمبرلى للبارون دى كورسيل سفير فرنسا فى لندن فى ١٣١٣ هـ الموافق ١٨ ديسمبر ١٨٩٤م، ومثل هذه التحذيرات كان من الممكن أن ترد فى الكتاب الأزرق الذى كان منتظراً صدوره عقب الإتفاق الأنجلو -كونجولى - وهذه هى الحالة الوحيدة التى لم يصدر فيها كتاب أزرق - وفى هذه الحالة ، كان لابد أن يتضمن الكتاب الأزرق التحذيرات مصحوبة بالردود الفرنسية عليها . ومع ذلك ففى رأى هذا البعض أيضاً ، أن تصريح (جراى) لم يكن له مايبرره ، فليس هناك أى عمل معين أقدم عليه الفرنسيون ، وهو أى التصريح كان بكل تأكيد وسيلة لمحاولة الحصول عن طريق البيانات العامة على ما فشلت الحكومة البريطانى فى الحصول عليه عن طريق الدبلوماسية ، وهو بمثابة تراث خلفته للحكومة المقبلة التى كان من الواضح أنها فى الطريق إلى الحكم .

وبعد تصريح (جراى) ، بادر وزير الخارجية الفرنسية بأن طلب من سفيره فى لندن (البارون دى كورسل) مقابلة لورد كمبرلى للتفاهم معه حول المعنى الذى قصده (سيرادوارد جراى) فقدم فى ٢٩ مارس أحتجاجاً كتابياً.

ومما لا شك فيه أن تصريح جراى قد أخذ كمبولى على غرة لأنه لم يكن مستعداً له ، لذلك عاد إلى طبيعته فاختلق المعاذير بأن قال جراى ما هو إلا مجرد (وكيل وزارة بسيط) ، وليس لتصريحاته نفس الوزن فيما لو صدرت عن وزير الخارجية أو رئيس الوزارة ، وهو لا يفعل أكثر من أنه كرر نفس الفكرة أو الشئ الذى تطالب به بريطانيا ، وأن لفرنسا مطلق الحرية فى الفكرة ، وبذلك تبقى المسألة مفتوحة للمناقشة . وقال أنه ليس لتصريح جراى أى هدف سوى منع فرنسا من الإقدام على احتلال أى جزء بينما المناقشات لا

تزال دائرة ، فضلاً عن أنه ليس لدى الحكومة البريطانية أيه نية بأن تقدم فى الوقت الحاضر على أى عمل وقال بالحرف الواحد : " أننا لا ننوى مهاجمة السودان لمدة طويلة ، أو حتى إدخال المناطق التى ينازعوننا عليها فى مجال نفوذنا ، فإننا لا نضع الآن أيه خطة لدخول بحر الغزال .

وأضاف كمبرلى أنه فى حالة استرداد السودان ، سوف تقوم بإحتلاله قوات مصرية وإدارة مصرية(٧٦) ولكن أهالى السودان كانوا ينتظرون إلى الحاكم العام أنه المهيمن ، ولعل هذا الوضع قد شجع بعض الموظفين للمضى بعيدًا فى إثبات أن السوادان كيان ذاتى(٧٧) . ومن ذلك تتضح أهداف الإدارة البريطانية حيث يمكنها الزج بالموظفين المصريين الذين كانوا يشغلون وضعًا فى إدارة السودان فى مأزق حرج للتشهير بهم لدى الجماهير(٧٨) .

وفى ٥ إبريل وقف الوزير الفرنسى فى مجلس الشيوح وصرح " بأن مناطق أعالى النيل ، تقع تحت سيادة السلطان ، وأن الخديوى هو الحاكم الشرعى ، ولقد أعلنتم أنه بمقتضى إتفاقية ١٨٩٠م وضعت إنجلترا جزءاً من هذه الأراضى داخل منطقة نفوذها ... حسنًا ، دلونا على الأقل : ما هى الأراضى التى تشملها حقوقكم ؟ وإلى أين تمتد منطقة النفوذ ؟ إنها ستبدأ من الضفة اليسرى للنيل وسوف تمتد شمالاً إلى حيث لا نعلم (لقد جمعتم فى عبارة واحدة منطقة النفوذ المصرى بمنطقة النفوذ الإنجليزى ... فدلونا أين ينتهى نفوذ مصر ويبدأ النفوذ الذى تدعونه لأنفسكم ... ولكن عندما تأتى ساعة تقرير المصير لهذه البلاد البعيدة فإننى ممن يعتقدون – مع احترام حقوق السلطان والخديوى والاحتفاظ لهما كل بما يخصه – بأن أمتين عظيمتين سوف تجد إن الصيغ المناسبة للتوفيق بين مصالحهما وارضاء أمانيهما المشتركة نحو المدينة والتقدم(٧٩) .

ولم يكن هذا التصريح المتخاذل من جانب هانوتو ردًا على جراى بقدر ما كان دفاعًا ، لذلك فإن لندن نظرت إلى اللهجة على أساس أنها ضعف وخور . وفى نفس الوقت لم يحمل هانوتو تهديد جراى محمل الجد ، وعزاه إلى بواعث داخلية محلية(٨٠) .

ويرجع ذلك إلى أنه لما امتدح (كمبرلى) لهجة التفاهم فى حديث (هانوتو) فى مجلس الشيوخ أثناء مقابلته مع (دى كورسيل) فى اليوم التالى (٦ إبريل) فضلاً عن أنه زيادة فى التفاهم اقترحا شيئًا شبيهًا بإتفاقية Standstill أى أن يقف كل واحد مكانه ولا يتعداه ، وهى ما سبق أن رفضتها الحكومة البريطانية لما اقترحها هانوتو فى الخريف السابق ، وهى اتفاقية تعنى حلاً وسطًا مقبولاً لدى البلدين وتستبعد أى عمل من شأنه أن يمس حقوق أو مطالب هذا البلد أو الآخر .

ولم يستجب (كورسيل) لهذا الاقتراح ، وفى نهاية المقابلة قال كمبرلى إن تصريح جراى ليس سوى رداً على خطاب هانوتو فى ٧ يونيو من العام السابق ، فكتب السفير إلى وزير الخارجية : " إنه يتفق معنا تماماً بالانعلق أيه أهمية فى المفاوضات الدبلوماسية على التصريحات البرلمانية(٨١) . ويبدوأنه قد ثبت للبريطانيين أن حلم غزو السودان عن طريق أوغندة صعب التحقيق وبدا من الواضح أن دخول السودان لا يمكن أن يتم إلا بطريق الشمال ، وبدا أيضاً أن البريطانيين يميلون - ولو أن ذلك جاء متأخراً إلى - ترك السودان جنوبى فاشودة(٨٢) .

وقد كتب (روزبرى) إلى (كرومى) فى عام ١٣١٣ هـ الموافق إبريل ١٨٩٥م بأن حكومة القاهرة قلقة للغاية بسبب نشاط الفرنسيين ، وأنه من السهل على هؤلاء الإستيلاء على بحر الغزال ،وأن الفكرة التى تلقى تأييداً

من الحكومة هى ضرورة استرداد السودان والخرطوم بصفة خاصة ، لولا أنه هو نفسه كان يعارض فى اتباع هذه السياسة ، والوزراء المصريون كانوا على علم بأمر هذه المعارضة ، لأنه لا يعتقد أن السودان يستحق أن تفلس مصر من أجلة(٨٣) ، واعترف بأن نشاط الفرنسيين فى أعالى النيل قد غير من وجه الموقف ، ولذلك فإنه قد استعد لكل الإحتمالات ، فرتب لمد الخط الحديد جنوباً حتى أسوان ، والخط التلغرافى عبر الصحراء إلى آبار الممرات فى منتصف الطريق كوروسكو أبى حمد(٨٤) .

غير أنه ليس معنى ذلك أن البريطانيين تخلوا تماماً عن فكرة التقدم إلى السودان بطريق الجنوب ، ففى ١٠ أبريل ١٨٩٥م مثلاً ، وافقت غرفة لندن التجارية على قرار بإتخاذ الإجراءات الكفيلة بغرض " الرقابة على النيل فيما بين أوغندة وفاشودة والإسراع فى تنفيذ مد الخط الحديدى بين ممباسا وأواسط أفرقيا ،وهو الخط الذى كان الخديوى إسماعيل ينوى أن يمده بين البحيرات الاستوائية والمحيط الهندى ، وقيل أن الكولونيل (دكولفيل) القوميسير البريطانى فى أوغنده صرح بأنه لاشئ يمكنه الوقوف فى وجه تقدم البريطانيين فى وادى النيل(٨٥) .

وفى ٦ مايو بدأ أن روزبرى يود الإتفاق مع الفرنسيين ، فعرضت عليهم صيغة جديدة يكون لبريطانيا بمقتضاها حق فرض رقابة خاصة على النيل جنوباً حتى فاشودة ، أما فيما وراء ذلك فيصبح أيضاً بلا مالك Res Nulius تتعهد كل من فرنسا وبريطانيا بالا تدخلها وفى حين يعترف بها الجيران الآخرون على أنها مجال للنفوذ البريطانى(٨٦) .

ولكن دى كروسيل رفض هذا الأقتراح ، وبذلك أعرضت فرنسا عن أى أحتلال للأراضى السودانية الواقعة بين الحدود الجنوبية لمصر شمالاً ومجال النفوذ الذى تدعيه بريطانية لنفسها جنوباً .

وانتهت المحادثات عند هذا الحد ، وكانت آخر محادثة تمت فى عهد وزارة الأحرار . وهذا الاعتراض الذى أنهى المفاوضات كان يخيم عليها منذ البداية ، إذا كان من الضرورى فصل أعالى النيل عن المسألة المصرية وخروج الجيش المصرى من السودان(٨٧) .

ولما اتضح أن فرص الاتفاق بين الطرفين أصبحت واهية للغاية ، بات من المنتظر أن يلجأ الطرفان إلى العمل ، فأبلغ (روزبرى) الملكة فى ٢٧ مايو بإن الوزارة قد وافقت على مد الخط الحديدى بين ممباسا وفكتوريا فوراً.

وقد استقالت وزارة (روزبرى) فى يونيو ، واعتمد البرلمان المال اللازم وقدره عشرون ألفاً من الجنيهات الإسترلينية فى ٣٠ أغسطس فى عهد وزارة (سولسبرى) وبذلك بدأ أن فى نيه البريطانيين اتخاذ أوغنده كقاعدة لمباشرة العمليات فى أعالى النيل .

وفى هذه الأثناء تدخل فى الموقف عامل جديد ، فإن ليوبولد بعد أن فشلت خططه فى التقدم نحو السودان ، لم يكن من ذلك الطراز الذى يهدأ بسهولة فزار باريس فى عام ١٣١٣ هـ الموافق سبتمبر ١٨٩٥ م ليجد صديقه القديم (فلكس فور) Faure رئيساً للجمهورية ، ولم يعرف شيئاً عما تم فى اجتماعاته بالرئيس الفرنسى ، وبغيره من السياسين الفرنسيين أمثال هانوتو وليبون وريبو .

ومهما يكن من أمر ، فإنه يبدو أنه تمكن من التفاهم حول سياسة مشتركة للعمل فى مناطق أعالى النيل ، لأنه عقب عودته إلى بروكسل عكف على وضع الخطط اللازمة لإرسال بعثة كبيرة بقيادة (البارون دانس) Dhanis للتقدم نحو النيل وأحتلال المنطقة التى أصبح يطلق عليها (حاجز لادو) Lado enclave ، وهى المنطقة الوحيدة التى اعترف له الفرنسيون باحقيته فيها وفقاً لاتفاقية ١٤ أغسطس ، وكان مفروضاً أن تتعاون هذه البعثة تعاوناً وثيقاً مع بعثة (مرشان) التى تتقدم إلى الشمال منها .

وبعد شهر من وصوله إلى باريس ، وصل ليوبولد إلى العاصمة البريطانية أى فى شهر أكتوبر ،وحاول أن ينال موافقة (سلوسبرى) على إقناع الخديوى بإن يؤجر له وادى النيل فيما بين الخرطوم وبحيرة (نيانزا) وهى النقطة التى تبدأ عندها الادعاءات البريطانية ، ولكن سولسبرى لم يعطه جواباً مشجعاً خشية أن يؤدى ذلك إلى إثارة فرنسا وغيرها من الدول الأوربية فتقيم لنفسها مراكز فى وادى النيل .

ولم يكن ليوبولد ممن يفقدون الأمل بسهولة، فعاد إلى لندن مرة ثانية فى ديسمبر ، والظاهر أنه أراد أن يقوم بدور الوساطة بين فرنسا وإنجلترا ، وتنفيذ مآربه فى حوض النيل فى نفس الوقت ، وقد عرض على (سولسبرى) مشروعات ضخمة ، منها أن بريطانيا يمكنها أن تحدد تاريخاً معيناً للجلاء عن مصر ، وتقنع الخديوى فى الوقت ذاته بالتخلى عن السودان جنوبى الخرطوم إلى شخص خبير بالشئون الأفريقية ، وذلك فى مقابل أن تطلق إنجلترا يدها فى الصين كما أن فى وسعها العودة إلى مصر مرة ثانية فى حالة إنهيار الدولة العثمانية .

ولا أدرى ما إذا كان (ليوبولد) قد عرض هذه المقترحات باسم فرنسا، أم أنه كان تواقاً لآثارة مسألة وادى النيل وإشراك فرنسا فيها .

مهما يكن من أمر ، فإن (سولسبرى) لم يحمل هذه المقترحات محمل الجد، وكتب إلى الملكة يقول : أن فرصتنا الوحيدة هى أن نحتفظ بالهدوء حتى يتقدم مشروع الخط الحديدى فى أوغندة فيتسنى لنا إرسال القوات بواسطتة(٨٨) .

ولكن فرنسا وليوبولد لم يكونا ليتركا لإنجلترا الوقت الكافى للإستعداد وتنفيذ خطتها ،فقد عاد ليوبولد إلى لندن للمرة الثانية فى منتصف يناير ١٨٩٦م ، وأعاد طلبه السابق بالتخلى له عن السودان جنوبى الخرطوم أو تأجير له ووعد بإنه بعد إخضاع السودانين يمكن أن يضعهم تحت تصرف إنجلترا لإستخدامهم فى غزو آرمينيا واحتلالها وقد عقبت الملكة على هذا الاقتراح بإنه يبدو أن الملك قد فقد صوابه(٨٩) .

واخذ السفير الفرنسى فى لندن (دى كروسيل) هو الآخر على عاتقة مهمة الوصول إلى إتفاق مع إنجلترا ولكن سولسبرى لم يكن يريد أن يكسب عدواة الفرنسين وقتئذ، ويود لو يحتفظ بهدوئهم بأى ثمن قبل مناقشة المسألة المصرية بصفةعامة(٩٠) .

وقد أبدى السفير رغبة حكومته فى خروج جيش الاحتلال من مصر وتعيين أكبر عدد من الموظفين الفرنسيين فى المناصب الإدارية، واستشارتهم فى الشئون المصرية، ومناقشتهم قبل إتخاذ أية إجراءات هامة فى مصر(٩١).

والآن ، ما الذى دعا سولسبرى إلى الموافقة على الدخول فى المفاوضات مع ليوبولد وفرنسا مع أن الأول فقد وصفته الملكة بالجنون ، وهى محقة فى ذلك لأن مشروعاته جنونية فعلاً ، وتدل على أن صاحبها لايزال يحلم بأن ينصب فرعوناً ، وأن هذه الأحلام تطارده بدرجة دعته إلى زيارة العاصمة البريطانية ثلاث مرات فيما لا يزيد على أربعة أشهر ، ومع

أن فرنسا أيضاً ، تريد مهادنـة إنجلترا فـى المسألة المصرية بشرط خروج جيش الاحتلال ، ومشاركتها فى تسيير الأمور فى مصـر ، ومن الواضح إن إنجلترا لا يمكن أن تحتمل بقاء نفوذ أية دولة أوربية فى وادى النيل فما بالك بمصر ذاتها ؟

يبدو أن سولسيرى أراد أن يمد حبل الأمور للسفير الفرنسيى ، ومن المشكوك فيه أنه كان يود الوصول إلى إتفاق مع ليوبولد حول المسألة النيلية، وكان جل أهتمامه ينحصر فى محاولة كسب الوقت لحين الإنتهاء من استعداداته العسكرية لأنه كان يدرك بلا شك أن هذه المسألة لابد وأن تتقرر إن آجلاً أو عاجلاً سواء بالقوة أو عن طريق المفاوضات .

وفى الواقع ، لم يبذل الفرنسيون أى نشاط حقيقى لمحاولة الوصول إلى أعالى النيل الحقيقى فى عام ١٣١٣هـ -١٨٩٥م ، ولعلها ليست من المصادفات البحته أن أبلغ لورد سولسبرى السفير الفرنسى (دى كروسيل) سراً فى الأيام الأخيرة لعام ١٨٩٥م أن الوقت قد حان لإنزل ضربة حامية بالمهدية ، وأنه يتم الآن إعداد حملة دنقله بموافقة الحكومة المصرية ،وإن الحملة سوف تزحف على أرض مصرية بأموال مصرية وجيوش مصرية ، وأنها لن تتجاوز دنقله وأنه فيمابعد ، لو دعت الحوادث إلى ضرورة أمتداد العمليات العسكرية إلى أبعد من ذلك " فلن نعمل شيئاً إلا بعد الاستماع إليكم"(٩٢).

وليس من المعقول أن يتم إسترداد السودان على دفعات ، فما أن يبدا الزحف فليست هناك منطقة أمان للوقوف فيها بين حلفا والخرطوم(٩٣) .

فهل كان (سولسبرى) يعنـى - دون أن يقـول ذلك صراحـة - إن بريطانيا توافق على أن تتعاقد على أعالى النيل فى مقابل اعتراف فرنسا

بالاحتلال البريطانى لمصر . إذا كان هذا يعنى حقاً ، فإن فرنسا تكون بذلك قد فقدت بعدم رغبيها فى الوصول إلى أى إتفاق فرصة عظيمة لتطالب بحقها فى فتح السودان(٩٤) .

وقد حرص (سيرافلين بارنج) فى تقاريره التى نشرت فى الفتره التى تلت الإنسحاب من السودان ، على أن يؤكد أنه لابد وأن تمضى ٢٥ سنة على الأقل على أن تتحول مصر من موقف الدفاع إلى خطة الهجوم فى وادى النيل ، لأن الجيش المصرى فى رأية كان ينبغى أن يتلقى تدريباً عالياً فضلاً عن ضرورة البحث عن الاعتمادات اللازمة للصرف على السياسة الهجومية. ويضيف كرومر أنه فى عام ١٨٩٥م ، بدا موضوع إعادة فتح السودان يعود على الظهور على أساس تنفيذه فى فترة قريبة ، ومع ذلك فقد أبلغتنى الحكومة البريطانية فى ١٥ نوفمبر ١٨٩٥م بأنه ليست هناك إحتمال فى الوقت الحاضر للموافقة على إرسال حملة عسكرية إلى السودان ، ولذلك فإن كل القوانين والتشريعات للحكومة المصرية ، يمكن أن تنفذ(٩٥) .

وفى الواقع لم يمنع الحكومة الإنجليزية من الموافقة على إرسال حملة السودان سوى السياسة التى لعبت فيها المانيا دوراً كبيراًوذلك عندما اتجهت ألمانيا إلى أفريقيا لم تعترض إنجلترا فى بادى الأمر ، ولكن عندما أتسع النفوذ الألمانى كان هذا إيذاناً بإثارة الخلافات مع إنجلترا ، وقد وضع بسمارك للسياسية الألمانية مبدأً خطيراً لحل الخلافات ، وهو استقلال النزاع الفرنسى الإنجليزى ، كما أتسع هذا المبدأ فيما بعد وأخذ خلفاء بسمارك يعملون على توسيع سياسة بسمارك الاستعمارية(٩٦) والتى تملى عليها الإهتمام ببناء أسطول حربى يساندها فى هذة السياسة ويمكننا أن نؤكد أن السياسة الألمانية كانت متجهة نحو التحالف الفرنسى - لروسى(٩٧) .

وحدث بعد ذك أن عاد الأمبراطور وليم إلى صوابه ، وبدا ينفصل عن التحالف الفرنسى- الروسى الذى أحرزه منليك على الإيطاليين فى عدوة، كى لا يتناقض موقفه (أى الإمبراطور) مع حليفته ايطاليا .

ففى اليوم التالى لموقعة عدوة عقد الإمبراطور مؤتمراً مع السفير الإيطالى . وفى ٣ مارس بقى فى السفارة البريطانية فى برلين حتى بعد منتصف الليل ، حيث أجرى مشاورات مع السفير البريطانى (سير فرانك لاسلز)(٩٨) .

وكان محور الحديث أن الموقف الدولى أصبح بالغ الحرج ، وأن روسيا وفرنسا جمع بينهما المحالفة العسكرية ، وأن روسيا مصممة على القضاء على أعدائها النمسويين الإنجليزبابية وسيلة ، وأنه بعد طرد الإيطاليين، فإن الروس سوف يؤسسون لأنفسهم فى مصوع ، ويسيطرون بذلك على الطريق البحرى المؤدى إلى الهند ، وبذلك يمكنهم إثارة المسألة المصرية من جديد فتتعقد الأمور. وقال أن الفرنسيين فى نفس وقت يحاولون شراء جزر كناريا من أسبانيا ، فيتعرض بذلك أيضاً طريق رأس الرجاء الصالح للخطر . وأضاف أن من واجبه تحذير الإنجليز ، وأنه يأمل فى أن تنضم إنجلترا إلى التحالف الثلاثى، أو على الأقل تقدم على مساعدة إيطاليا فى موقفها الحرج(٩٩).

وكان المهديون قد بدأوا يركزون قواتهم حول كسلا ، ولا شك أن سقوط هذة المدينة الهامة الواقعة فى منتصف الطريق بين مصوع والخرطوم كان يعد ضربة شديدة لإنجلترا ، وتصادف فى ذلك الوقت وجود (سيرافلن بارنج) فى بريطانيا ، فأشار بالهجوم على كسلا بطريق سواكن ، غير أنه تقرر إرجاء اتخاذ أى قرار إنتظاراً للخطوة التالية من جانب المهديين(١٠٠) .

وفى ٢ مارس (أى فى اليوم التالى لموقعة عدوة) وصلت إلى القاهرة أنباء عن ظهور الدراويش أمام كسلا ، وقيل أن الخليفة أمـر بوقف العمليات التجارية بين بربر وسواكن وبين بربر وحدود مصر على النيل(١٠١) .

وفى ١٠ مارس أبرق (سير كليرفورد) السفيرالبريطانى فى روما إلى حكومته أن الدراويش حاصروا كسلا حصاراً تاماً وأن الموصلات بينها وبين أسمره قد قطعت ، وبعد يومين طلب السفير الإيطالى فى لندن عوناً من القوات المصرية ضد الدراويش الذين يحاصرون كسلا ، فأبلغة سولسبرى بأن التعليمات صدرت إلى بارنج بالتقدم نحو دنقله(١٠٢) .

فكيف وصل سولسبرى إلى هذا القرار؟

من الصعب الوصول إلى تفسير قاطع لذلك ، لكن المعروف أن الوزارة البريطانية عقدت عدة إجتماعات ، وأن سولسبرى وتشيرلين كانا مقتنعين بضرورة التقدم ولكن كان فى ذهنهم برنامج معتدل لايكلف الخزانة المصرية مالا تطيقه ، وكان الخلا ف يدور حول طريق التقدم : هل يتم عن طريق حلفا أو طريق سواكن ؟ وأخيرًا تمت الموافقة على أن يتم بطريق حلفا . وقد أوضح سولسبرى لبارنج فى كتابه المؤرخ ١٣ مارس بسبب وقوع الاختيار على طريق حافا لأنه فى رأيه يتيح للإنجليز إصابة عصفورين بحجز : أولاً مساعدة الإيطالين فى كسلا ، وحرمان الدراويش من أى انتصار قد يؤدى إلى عواقب بعيدة المدى ، وثانياً وضع قدم مصر فى أعالى النيل(١٠٣) .

إذن فاهتمام (سولسبرى) بالسودان هو ما كان يقلقه أكثر من اهتمامه بمساعدة الإيطالين ، لأن مصر فى الوقع أو بصفة خاصة أعالى النيل هى التى كانت تسيطر على تفكيره ، فالأسطول يستطيع حماية مصر من ناحية

البحر ولكن أية دولة تستطيع أن تشق طريقها من الجنوب طالما أن السودان واقع تحت سيطرة الدراويش .

وقد جابهت المعارضة الحكومة صراحة ، وأتهمتها بأن الغرض من الزحف هو أن تضع يدها على السودان ، وبالتالي إيجاد عذر للبقاء في مصر، مع أن الإنجليز كانوا حريصين في كل وقت على التأكيد بأن هدفهم من البقاء في مصر هو حماية البلاد من غزوات (البرابرة) من الجنوب ، فإذا فتح السودان، انتهى الغرض من هذا البقاء . ولكن الانجليز كانوا قد صمموا على عدم وجود مناوئ لهم في أعالي النيل ، فالسودان هو الهدف الأول والأخير ، والتخفيف عن الإيطاليين كان مجرد خدعة يتذرع بها الإنجليز لتبرير حملة دنقلة التي كانت سوف تتم أن أجلاً أو عاجلاً ، فالخليفة كان – في رأى سولسبري مجرد حارس للوديعة(١٠٤) . وقد آن لاسترداده منه .

ولابد من تكتسى حملة دنقلة ثوباً مصرياً لضمان عدم اعتراض فرنسا، فاتخذت مظهر قوات الخديوى تتقدم في دنقلة وهى جزء من أراضي الخديوي بإعتراف (هانوتو) نفسه في جلسة ٥ أبريل ١٨٩٥م بمجلس الشيوخ الفرنسي بأن مناطق أعالي النيل تقع تحت سيادة السلطان وأن الخديوى هو السيد الشرعي لها(١٠٥) .

وقد أرسل سولسبري تعليمات إلى (لورد دفرين) في باريس يطلب منه إبلاغ الحكومة الفرنسية أنه بناء على طلب الحكومة المصرية قد وافق على تقدم القوات المصرية إلى دنقله لإنقاذ كسلا من الدراويش(١٠٦) .

وقد رحب الإيطاليون بهذا الزحف كدليل على الصداقة الأنجلو – إيطالية ، فأعلن (لورد كيرزن) وزير الخارجية في مجلس العموم في ١٧

مارس أن الحكومة الإيطالية أعلنت أنها تنظر بترحاب إلى عمل الحكومة المصرية فى اتجاه دنقله ، لأنه لن يكون فيه سوى مزايا بالنسبة لوضع القوات الإيطالية فى كسلا(١٠٧) .

وفى برلين سر الإمبراطور وليم بهذه الإجراءات ، فقد اعتقد أنها جاءت نتيجة لمحادثة مع السفير البريطانى (لاسلز) خاصة وأن سولسبرى قد أجاب على مقترحاته بإنه يرغب فى أن يظل على وفاق مع المانيا ، وأن إنجلتر ا سوف تستند إلى التحالف الثلاثى ولكن دون أن يتعهد أو تلزم نفسها بالدخول فى أى حرب فى المستقبل(١٠٨) .

ولقد كان هناك عامل مهم لعب دوراً خطيراً فى بريطانيا ألا وهو الرأى العام ، فغالبية الرأى العم فضلت التقارب مع فرنسا ، وكان الخوف من المانيا هو الذى أملى هذا الشعور - ففى عام ١٣٢٠-١٩٠٢م شنت كل من جريدة التايمز والاوبزفر حملة ضد الخطر الألمانى ، وأحس التجار البريطانيون ان صراعاً مع فرنسا يفيد المانيا منافستهم الوحيدة .

وكما كان الخطر الألمانى يهدد سلامة إنجلترا - كان ذلك هو ألد أعداء فرنسا، وكان أيضاً هو أهم أسباب تقارب الدولتين . وكان لوفاة الملكة فكتوريا وإعتلاء إدوارد السابع عرش إنجلترا أثره على وجوب تقارب فرنسى إنجليزى - فالملك إدوارد السابع كانت تغمره رغبه عميقه فى أن تكون علاقات إنجلترا وديه مع العالم اجمع ، وكان يأمل فى أن تكون علاقته كذلك مع فرنسا ، فقد كان أدوارد السابع يلهو ويطرب فى باريس حينما كان أميراً لويلز ، وأتخذ له هناك كثيراً من الأصدقاء الفرنسيين - ولهذا أخذ يقوم الملك ادوارد بدور بارز فى بناء الأتفاق انتهت الصراعات بين الدولتين الكبيرتين - بريطانيا وفرنسا - التى كانت تعانى منها الدولتين منذ زمن طويل ، وكادت

فى بعض الأحيان تؤدى إلى حرب مسلحة فيما بينهما ، وذاك بفضل الاتفاق الودى .

ففى عام ١٣٢٢هـ الموافق ٨ ابريل ١٩٠٤م أمكن تسوية الخلاف بين إنجلترا وفرنسا وذلك بإصدار تصريح مكمل للإتفاق الذى وقع بين البلدين الخاص بتحديد مناطق نفوذ الدولتين(١٠٩) . فلقد أستطاعت بريطانيا التخلص من عقبة من أهم العقبات التى كانت تقف أمامها لتحقيق الإستعمار فى مصر وحوض النيل ، فقد كانت فرنسا دائماً تطالبها بالجلاء عن مصر أو على الأقل تحديد موعد للجلاء عنها ، كما كانت فرنسا تساند الخديوى والحركة الوطنية فى مصر فى نضالها ضد إنجلترا ، ولكن بعد الاتفاق أصبحت تغض النظر عن الإجراءات البريطانية فى مصر . وبموجب الاتفاق الودى أنضمت إيطاليا إلى الدولتين وبدأت تعمل فرنسا وبريطانيا وأيطاليا علىتوثيق الروابط بينهما.

ولم يكن الاتفاق الودى وثيقةتوفاق سوت المشكلات والصراعات بين الدولتين الموقعتين عليه فحسب. بل اصبحت وثيقة للتحالف فيما بعد بين الدولتين العظميين وامتدت آثاره للحرب العالمية الأولى والتى ظهرت فيه قوة الدولتين و إستطاعتا بهذا التحالف هزيمة ألمانيا وحلفائها والتخلص منها بل وأكثر من ذلك توزيع مستعمراتها فى أفريقيا فيما بينهما ، فلقد كان هذا من أهم إنجازات الاتفاق الودى .

كما ظهر تحالف الدولتين الوثيق فى الحرب العالمية الثانية حيث تكاتفا معًا وإستطاعتا هزيمة الألمان مرة أخرى وحليفتها أيطاليا التى انضمت إليها فى هذة الحرب ، وبهذا تخلصتا من كل المناوئين لهما وعن مطالبتهم الدائمة والعراقيل التى كانوا يسببونها لهاتين الدولتين لتحقيق أطماعهما الاستعمارية فى أعالى النيل .

الخاتمة

يرى الباحث أن رغبة إنجلترا فى السيطرة على السودان والإنفراد به كما أوضحه السير أدوارد جراى فى الخطبة التى القاها فى مجلس العموم بتاريخ ٢٨مارس ١٨٩٥ م هو الذى دفع إنجلترا للوقوف فى وجه أطماع فرنسا فى حوض النيل ، لأن النيل هو مصر ومصر هى النيل والسودان جزء لايتجزأ من مصر . كما يرى الباحث أن رغبة إنجلترا فى الإستفادة من منطقة حوض النيل واستغلال مواردها الاقتصادية والسيطرة عليها هى التى جعلتها تنظر لحملة مارشان على انها مظهر عدائى واعتبارفرنسا دخيلا يجب طرده حتى أدى الأمر إلى إنذار ثم تجهيز حملة لمواجهة أطماع فرنسا ، وهذا ما أكدتة الصحف البريطانية والساسة البريطانيون أيضًا فكان إجماع صحف الأحرار والأتحاد بين المحافظين على مساندة الحكومة فى موقفها من مسألة فاشوده وقد أكد ذلك تشمبرلين (Joseph chamberlain) وزير المستعمرات البريطانية فى١٥ نوفمبر ١٨٩٨م حيث أتضح أن مسألة فاشودة ما هى إلا رمز ، والمهم ليس المدينة نفسها إنما السيطرة على وادى النيل .

والحقيقة أن الصراع على حوض النيل لم يكن الإ صفحة من صفحات التنافس الإستعمارى على القارة – ففرنسا فى سيرها صوب النيل صرحت أنها تحذر إنجلترا من السعى لمد نفوذها إلى مديرية خط الاستواء ، وقد أكد الفرنسيون أن السودان أصبح بعد الثورة مشاعًا وأن لهم الحق هناك كما للأيطالين على البحر الأحمر أو الإنجليز فى أوغندة أو البلجيكيين فى لادو .

ورغم أن الساسة البريطانيين أكدوا اعترافهم بحقوق مصر فى السودان - إلا أن إنجلترا كانت تخفى أهدافها الاستعمارية ورغبتها فى السيطرة على السودان(١١٠) .

يدل على ذلك تصريحات الحكومة البريطانية . فقد كلفت السير ادموند مونسيه السفير البريطانى فى باريس بأن يخبر وزارة الخارجية الفرنسية "بأن كل المناطق التى كانت تابعة للخليفة قد انتقلت إلى الحكومتين الإنجليزية والمصرية بحق الفتح وأن بريطانيا غير مستعدة للمناقشة فى هذا الحق .

ويرى الباحث ان تدخل إنجلترافى شؤن السودان منذ إسترداده واسترجاعه لم يكن من وازع الحرص على مصلحة مصر فى السودان إنما يرجع للخوف من فرنسا ومن أطماعها فيه ، وهذا ما كانت بريطانية تخشاه لضمان وصولها إلى مستعمراتها فى الهند.

والحقيقة أن أزمة فاشوده وما طرأ عليها جعلت لبريطانيا قوة فوق قوتها ، وهذا ما أوضحة سير توماس برسى (Thomas Brassey) حيث قال أن سفن الأسطول البريطانى الحربية تعادل سفن أساطيل فرنسا وروسيا وألمانيا مجتمعة ، وما أكده ناقد فرنسى عن رأيه قائلا" أنه لو تركنا مسألة احصاء السفن وعددها فإن الأسطوال البريطانى كان يعادل قوة أربعة أمثال الأسطول الفرنسى وأقوى من كل أساطيل أوربا مجتمعة "وهذا ما أكدته الصحافة البريطانية نفسها حيث كانت فى عام ١٨٧٨ م تتغنى بقوة بريطانية البحرية بترديد القول لدينا الرجال - ولدينا السفن ولدينا المال أيضا - وفىعام ١٨٩٨ م زادت قوة بريطانية حتى باتت لاتخاف شيئًا فى أى أزمة من الأزمات التى قد تتعرض لها .

هذا على أن مصر رغم أنها كانت صاحبة السيادة القانونية فى السودان وأنها هى التى وقع عليها العبء الأكبر إن لم يكن العبء كله ماليا وعسكريا لاستعادة السودان طبقًا للفرمانات العثمانية - إلاانها كانت فى تلك الفترة لاحول لها ولاقوة ، ويظهر ذلك فى الرسالة التى أرسلها وزير الخارجية المصرية إلى المعتمد البريطانى والتى أوضح فيها أن استعادة الخرطوم تفتقد الغاية منها إذا لم يعد إلى مصر السودان الذى ضحت فى سبيلة الضحايا العظيمة وأن مسألة فاشوده فى هذا الأوان هى موضوع مفاوضات بين بريطانيا العظمى وفرنسا فأطلب من سيادتكم أن تتفضلوا بحسن الوساطة لدى اللورد سالسبورى ليتم الإعتراف لمصر بحقوقها التى لاتقبل نزاعًا ولكى تعود إليها الأقاليم التى كانت تحتلها قبل ثورة المهدى .

هذا على أن الحركة الوطنية المصرية قد أصابتها خيبة أمل بعد انزال العلم الفرانسى عن فاشوده فى ١١ ديسمبر ١٨٩٨ م لأن هذا كان دليّلاعلى أن فرنسا لاتنوى معارضة الإنجليز فى دوام احتلالهم لمصر والسودان ، بل بعثت هذه النهاية لمشكلة فاشوده اليأس فى نفوس بعض الوطنيين ولكنها لم تخمد جذور الشعوُر الوطنى - بل جعلت المصريين يدركون أنهم يجب ألا يعتمدوا فى كفاحهم إلا على أنفسهم .

ومما تقدم يرى الباحث أن فرنسا قد فشلت فى تحقيق العامل الأول الذى بنيت عليها سياستها ألا وهو عزل بريطانيا - لذلك اتجهت إلى استخدام الخطة الدبلوماسية الثانية وهى ضرورة الوصول إلى اتفاق مع بريطانيا وتمخض وذلك فيما بعد عن الاتفاق الودى حيث كان لموقف كروجر واعتدال لانسدون (Lansdowne) وزير الخارجية البريطانى آنذاك ولمرونة ولكاسيه أثر كبير فى نجاح المفاوضات بين إنجلترا وفرنسا وتقريب وجهات النظر

فيما بينهما ، فكان كروجر أكثر الإنجليز إدرا كًا لما يلاقيه الإنجليز من متاعب فى مصر نتيجة معارضة فرنسا وكان يرى ان مركز إنجلترا فى مصر متوقف إلى حد كبير على رضى فرنسا - لذلك لم يأل جهداً فى أن يبين لحكومته ضرورة الإتفاق مع فرنسا بشأن مطالبهما فى شمال أفريقيا نظير موافقة الفرنسين على أن تقع مصر فى دائرة النفوذ البريطانى - لذلك وجد الساسة البريطانيون فى مليكهم (إدوارد السابع) وسيلة صالحة للتقرب إلى فرنسا ، فقد كان هذا العاهل يكمن حباً شديداً لتلك البلاد التى قضى فى ربوعها زمناً طويلاً فى شبابه(١١١) .

ويرى الباحث أن روح الإتفق الودى التى بدات موادها بالتفاهم بين الدولتين فى قضية أعالى النبل قد انعكست بصورة طبيعية وقوية على دور فرنسا فى جنوب أفريقيا أبان حرب البوير .

ولقد اثبت البحث عدة حقائق منها :

أولاً : أن الصراع المسلح بين الدول الكبرى لن يؤدى إلى تحقيق ما تهدف إليه هذه الدول من مصالح فى مناطق نفوذها ، بل أن التفاهم فيما بينهما يثمر عن تحقيق هذه الأهداف وهذا ما حدث بالفعل بين الدولتين.

ثانياً : أن هذا الإتفاق جاء نتيجة إدراك كل من الدولتين بريطانيا وفرنسا لعدوهما الحقيقى فى هذذه الفتره - ألا وهى ألمانيا - التى خرجت من عزلتها وبدأت قوتها تزداد حتى أصبحت تهدد الدولتين كل منهما على حدة ، أو محاولة تقرب ألمانيا من إحدى هذة الدول ، وبذلك يكون وبالاً على الدولة الأخرى .

لذلك حاولت الدولتان الوصول إلى تفاهم فيما بينهما يحد من تحقيق ما ترمى إليه ألمانيا فى أفريقيا .

ثالثاً : أن وصول الدولتين إلى اتفاق فيما بينهما جعل كل دولة تغض النظر عن التصرفات أو الإجراءات التى تقوم بها الدولة الأخرى فى مناطق نفوذها ، وهذا ما حدث بالفعل فى مواقف عديدة لكل الدولتين .

رابعاً : لم يكن هذا الاتفاق هو تفاهم وتسوية مشكلات بين الدولتين بريطانيا وفرنسا فحسب بل أصبح تحالفاً بينهما ، ولقد ظهر هذا واضحاً حين قامت الحرب العالمية الأولى ودخول بريطانيا وفرنسا الحرب جنباً إلى جنب واستطاعتا هزيمة ألمانيا والإستلاء على كل ممتلكاتها فى أفريقيا.

خامساً : أن وصول بريطانيا وفرنسا مهد الوصول إلى إتفاقات أخرى متعددة منها ، الاتفاق الفرنسى الأسبانى ، وكذلك الاتفاق الفرنسى الألمانى لتصفية المشكلات بين هذة الدول وبعضها . من ناحية أخرى فلم تكن هذة الاتفاقات على حساب الاتفاق الودى بل كانت امتدادًا له ومراعية لبنوده وعدم الإخلال بها .

سادساً : أن الدول الكبرى تعمل على تحقيق أهدافها دون مراعاة للدول الأخرى الصغرى التىتبسط نفوذها عليها ، وكذلك مراعاة الشرعية الدولية لهذه الدول الصغرى او لشعوبها .

سابعاً : أن الاتفاق الودى أدى إلى وقوف الدولتين جنباً إلى جنب أمام التوسعات الاستعمارية للدول الأخرى خاصة للتوسع الإيطالى وكذلك التوسع البيجيكى فى أعالى النيل .

ثامناً : آمّنت بريطانيا بموجب هذا الإتفاق جميع طرق مواصلاتها سواء فى البحر المتوسط والأحمر ، هذا من جهة ومن جهة أخرى ظلت محتفظة بسيادتها على المنافذ الرئيسية فى البحرين .

ملحق : الوثائق :

الملحق رقم (١)

من وزير الخارجية البريطانى إلى ا للورد كرومر

بشـأن موقـف الخـديوى مـن الضـباط البريطـانيين

لندن فى ١ يناير ١٨٩٤م

لقد تلقيت برقيتك رقم ٢٠ الجارى التى فيها العبـارات المختصـرة المهينة التى وجهها الخديوى الى السردار والضباط البريطانيين فى موقع وادى حلفا بشأن حالة الجيش المصرى .

فعليك أن تخبر الخديوى بأنى اعتبر هذا العمل خطيرًا . ويظهر أنه اصبح عادة فى سموه أن يهين الضباط البريطانيين ، وهذا أمر لا تستطيع حكومة جلال الملكة أن تسمح به .

وانى أرى نقل ماهر باشا الذى هو مستشار سوء ، وسبب شقاق وعقبة فى سبيل التعاون والاتحاد عن العمل ، ثم إصدار أمر عسكرى يثنى به على الضباط البريطانيين والجيش هو الترضية الوحيدة التى يستطيع الخديوى تقديمها ، وفى حالة رفضه –اعطاء الترضية العادلة ننظر فى استعمال الشدة التى يكون من ورائها وضع الجيش المصرى رأسا تحت سلطة الحكومة البريطانية الفعلية وبذلك توجد ضمانة كافية لحماية الضباط البريطانيين من المعاملة السيئة فى الوقت نفسة أنشر حوادث الإهانات العديدة التى وقعت منه حتى يدرك الشعب هنا الحالة كما هى .

إمضاء

وزير الخارجية

المصدر : وثائق دار المحفوظات بالخرطوم

والأصل فى : F.O. 78/804

الوثيقة رقم ٢٤٦

الملحق رقم (٢)

رقم دار الوثائق المركزية بالخرطوم .

الحالة فى السودان

إن الحالة العامة فى السودان تدعو الى إمعان النظر وطول التفكير وتأهل التدبير ، فالشعب تكتنفه الأخطار من جميع نواحيه حيث تحارب الحكومة أفراده فى أرزاقهم لتشغلهم بالجوع عن حل قضيتهم الوطنية فضلاً عما جرت عليه من سياسة الإفقار والتجهيل ، ولولا إيمان عميق بالله والوطن وتعلق أكيد بعرش مصر لوهنت العزائم وخارت القوى من شدة ما تكبد حكومة السودان للشعب الأعزل من صنوف التشريد والتعذيب . فالإنجليز فى السودان لايألون جهداً فى العمل المتواصل لفصل السودان عن مصر ولايتركون فرصة الا اغتنموها لبث دعاياتهم لذلك - والرد الطبيعى عليهم أن تقابلهم مصر بالمثل فتتخير موظفيها الذين يشغلون وظائف فى جنوب الوادى ممن يختلطون بالشعب عن كثب ويتغلغلون فى أوساطه يشاركونه السراء والضراء ويقاسمونه أفراحه وأتراحه على السواء فيحرصون على تفهم رغباته وآماله وآلامه حتى يشعر السودانيون بأن إخوانهم المصريين فى الخرطوم وغيرها إن هم إلا جزء منهم لهم رسالة وطنية غير الاعتصام بالأبراج العالية .

هوامش البحث

(١) جلال يحى : تاريخ مصر الحديثة (القاهرة ١٩٨٢م ص ١٥١) .

(٢) نفس المرجع ص ١٨٣ .

(٣) نجحت إنجلترا فى تكوين حلف أوربى ضد فرنسا وأطماعها ونجحت فرنسا فى أن تهزم دول هذا التحالف ، ما عدا إنجلترا التى كان لموقعها وأسطولها الحربى ما يكفل لها الحماية الطبيعية ضد أى غاز .

(٤) انظر تفاصيل الحملة الفرنسية - عبد الرحمن حسن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار (ذى الحجة ١٣٢١هـ - ١٣٢٢هـ) ص٢٠٩ وما بعدها .

(5) Hoskins: British, Routes to India (London 1928) P.21.

(٦) زاهر رياش : السودان المعاصر منذ الفتح المصرى حتى الاستقلال (١٨٢١ - ١٩٥٣م) القاهرة ١٩٦٦م ، ص ٩٤ ، أيضًا جريدة الأهرام السبت ٨ يونيو عام ١٩٢٤م العدد ١٤٣١٤ .

(٧) أحمد عامر : الإتجاهات الحديثة للنظام السياسى فى السودان ، مجلة الدراسات الأفريقية ، العدد الخامس ١٩٧٦م ، ص٧٨ .

(٨) عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال (القاهرة ١٩٦٦) ص ٢٤٥ - ٢٥٥ .

(٩) محمد مصطفى صفوت : الاحتلال الإنجليزى لمصر وموقف الدول الأوربية إزاءه (القاهرة ١٩٥٢ص ٧٥) .

(١٠) عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال (القاهرة ١٩٦٦) ص٤٣ .

(١١) على إبراهيم عبده : المنافسة الدولية فى أعالى النيل ، القاهرة ١٩٥٨م ، ص٩٥ .

(12) Longer, W, The diplomacy of Imperialism New York, 1935, Vol 1, p. 67.

(13) Neri, I., Laguestione del Nilo, Roma, 1939. P. 99.

(١٤) قاسم أمين الهوارى : السودان فى المفاوضات المصرية البريطانية ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ١٩٧٥ ، ص٣٤ .

(15) Neri, I., Op. Cit, pp. 94 - 95; Taylor, A, The struggle for mastery in Europe, Oxford 1954, p. 351.

(١٦) على إبراهيم عبده ، أضواء على المنافسة الدولية فى أعالى النيل ، ص١٧٠ وما بعدها ، جاد محمد طه ، فاشودة ، رسالة دبلوم غير منشورة ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ١٩٥٩م ، ص٧٥ .

(17) Taylor, op. cit., pp. 59 - 60.

(18) Ibid., p. 61.

(19) F. O. 5. 6. 94; Kimberely to Dufferin.

(20) Taylor, Op. cit., p. 61.

(٢١) محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان وتاريخ وادى النيل السياسى ، القاهرة ١٩٥٨م ص٤٦٣ .

(22) Ibid, p. 62.

(٢٣) كان استسلام البريطانيين للألمان بمثابة تقوية لمركز الفرنسيين ، فإن سحب المادة الثالثة يعد سابقة لسحب مواد أخرى .

(24) Taylor, A, op. Cit., P. 64.

(25) Ibid, P. 325 .

(26) F. O. 15/7/94, Hanitaux to Decrais.

(27) F. O. 15/7/94, Hanitaux to Decrais.

(28) F. O. 15/7/94, Hanitaux to Decrais.

(29) F. O. 13/7/94, Delscse to monteil.

(30) Langer, W., Op. Cit, Vol 2 , 260.

(31) F. O. 13/8/94 Kimberley to plunkett.

(٣٢) تحول نجاح الفرنسيين فى النهاية لمصلحة إنجلترا ، فإنه كان من الصعب زخرحة ليوبولد من فاشودة لو أن كتشنر إلتقى به بدلاً من أن يلتقى بمرشان ، لأن ليوبولد كان عندئذ سوف يملك الحق الذى لا يمكن للبريطانيين أن ينازعوه إياه ، والدليل على ذلك استمساكه بالضفة اليسرى للنيل الممتدة شمالاً حتى لادو لحين وفاته عام ١٩٠٨م ، وكان من نتيجة نجاح الفرنسيين أيضًا أن ليوبولد – وقد ظل مرتبطًا ببقية معاهدة ١٢ مايو – قد اعترف بمجال النفوذ البريطانى فى أعالى النيل دون أن يتقاضى سوى جزءًا من الثمن الذى كان يصر على المطالبة به .

انظر Taylor, A, Op. Cit, P. 69.

(33) F.O. 11/8/94, Phipps to Kimberley.

(34) Deville, V., Partage de l'afrique, Paris, 1898, P, 201.

(35) Taylor, A, op. cit. p. 70.

(٣٦) محمد صبرى : الإمبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٤٨م ، ١٦٧ . أمين الرافعى ، مرجع سابق ، ص١٩٥ .

(37) Shibeika, M., British Policy in the Sudan, London, 1952, pp. 338 - 339.

(38) Taylor, A., Op, Cit, p. 72.

(39) Ibid, P. 73.

(40) Pinon, R; France et Allemagne 1870 - 1913, Paris 1913, p. 117

(٤١) تيودور روتشيستين : تاريخ المسألة المصرية ١٨٧٥ – ١٩١٠ ترجمة أحمد فؤاد القاهرة ١٩٢٣ ، ص٨٧

(42) FO 407/201, Reporton political Agitation in the Sudan

انظر ملحق البحث .

(43) Taylor, Op. Cit; p75

(44) Neri, I; Cit, P. 100

(٤٥) عبد العزيز عرابى : بريطانيا فى السودان ، القاهرة ١٩٧٢ م. ص٦

(46) Charles - Roux, L,Egypt de l'occupation Anglaise a l'Independence Egyptienne, Paris, 1940, p. 176; Gilletr, Louis, Gabriel; Hanotaux ,Paris 1933, p78

(٤٧) صالح مرسى : السودان فى القرن العشرين ، القاهرة ١٩٦٥ م . ص١٢

(48) Langer, W., Op. cit, p. 201.

(٤٩) زاهر رياض : شمال أفريقيا فى العصر الحديث ، القاهرة ١٩٦٧م ص٩٥ .

(٥٠) كرومر - بريطانيا فى السودان ، ترجمة عبد العزيز أحمد عرابى ، القاهرة ١٩٦٠م ، ص٢٨ .

(٥١) جلال الدين الحمامصى : ماذا فى السودان ، القاهرة ١٩٦٤م ، ص٣٥ .

(٥٢) انظر الوثيقة فى ملحق البحث ، المصدر : القلعة - عابدين محفظة رقم السودان .

(٥٣) فى اجتماع ١٨ ديسمبر ١٨٩٤م بين كمبرلى وزير الخارجية البريطانية والبارون دى كورسيل السفير الفرنسى تساءل كمبرلى ما إذا كان مما يساعد على تسهيل الأمور أن تصرح بريطانيا أن الأراضى المتنازع عليها هى مصرية فرفض كورسيل هذا الاقتراح إذ طلب أن تعد بريطانيا بعدم دخول هذه المناطق موضع النزاع لمدة عشر سنوات ولم يكن فى وسع كمبرلى بدوره وإلا الموافقة ، انظر : Taylor. Op. Cit., p. 76

(54) Ibid., p. 70.

(55) Scott,K, Partition of Africa, London, 1893; Johnston,: A history of the colonisation of Africa, Combridag 1899,. p. 111.

عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء من فتحها إلى ضياعها (١٨٦٩ - ١٨٨٩) الإسكندرية ١٩٧٣م ، الجزء الثانى ص٢٠٣ ، جميل عبيد : المديرية الاستوائية القاهرة ١٩٦٨م .

(56) Shibeika, op. Cit, p. 339.

(57) Longer, Op. Cit, vol II, p. 262, Michel, Vers fachoda, Paris, 1901, pp. 3 - 5.

(٥٨) هذا التاريخ سبتمبر ١٨٩٤م ورد فى كتاب Neri, Op. Cit. P. 100 فى حين يرى Toylor أن التعليمات لليورتاد صدرت بعد اجتماع هانوتو ودفرين فى ٧ نوفمبر انظر : Taylor Op. Cit., 75 .

(59) Cocheris, Op .cit, p.414.

(60) Darcy, J., op. Cit,. P. 389

(٦١) أرسلت وزارة المحافظين السير هنرى در مندولف إلى الأستانة لمفاوضة الحكومة التركية فى شأن الجلاء عن مصر وتحديد موعد له وأسفرت المرحلة الأولى من المفاوضات على إرسال مندوبيين ساميين إلى مصر واحد عثمانى وآخر إنجليزى للإشتراك مع الخديو فى إعادة تنظيم الجيش المصرى ، وبحث التغييرات التى يحسن إدخالها على الإدارة المصرية ، ثم تطرقت المفاوضات إلى مسألة استرداد دنقلة ولقد حدد موعد الجلاء عن القاهرة بثلاث سنوات واستمرت المفاوضات عامين ولكن دون جدوى حيث لعبت فرنسا دورًا خطيرًا فى فشل هذه المفاوضات . انظر : عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص٨٥ . وأيضًا : محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ، الجزء الأول القاهرة ١٩٥٢م ، ص٥٠ .

(62) Longer, Op. cit., P. 263; Darcy, Cit., P. 390; Neri., Op. cit., p.100.

(63) Shibeika, op. cit., 340.

(64) Longer, op. Cit., P 264.

(٦٥) أحمد فؤاد : مصر والسودان ، القاهرة ١٩٣٠م ، ص١١٤ .

(66) Cocheris, op. cit., p. 415.

(67) Taylor, op. cit, p. 77.

(٦٨) شوقى عطا الله الجمل : تاريخ سودان وادى النيل ، الجزء الثالث ، القاهرة ١٩٦٦م ص١٠٢ .

(69) Deville, op.cit., pp.,Cocheris, op., cit., p416; Langer, op. Cit., Vol. II, pp. 264-5.

(70) Langer, op. Cit., Vol. II, p. 265; Cocheris op. Cit., pp 416 - 7; Grey of Fallodon, Twenty-Five Years, New York, 1925, Vol. I, p. 18.

(71) Cocheris, op. Cit., p.417.

(72) Grey of Fallodon, Op. pp 17-18.

(73) Langer, Op. Cit., Vol. II, pp. 265-6.

(74) Temperley and penson, Foundations of Brritish Foreign policy, 1938, pp. 501-2.

(75) Cocheris, op. Cit., pp. 418-9.

(76) Kimberley to dufferin, F.0., 1.4.95 Quoted by Taylor, op. Cit., P.78

(٧٧) جعفر محمد على : تراث الحكم والإدارة فى السودان ، مجلة الخرطوم العدد السابع ٣ إبريل ١٩٦٨ ، ص١٠٨ .

(٧٨) مدثر عبد الرحيم ، الإمبريالية والوطنية فى السودان ، مجلة الطليعة ، العدد الثانى ٦ مارس ١٩٧٠م ، ص١٥٠

(79) Michel, op. Cit., pp. 6-7; Cocheris, op. cit., pp. 421-2 Neri, op. cit., p. 103 ;Hanotaux, Fachod a et les negocations Africains paris 1906, p. 95.

(80) Shrberka, op. Cit., p. 343.

(81) Courcel a Hanotaux, Telegrame 6/4/95, Cit par Taylor op. Cit., p. 18.

(٨٢) على محمد بركات : السياسة البريطانية واسترداد السودان ، القاهرى ص١٩٦ .

(٨٣) انظر الوثيقة فى ملحق البحث والتى تبين الحالة فى السودان ، ورقم الوثيقة ٢٤٦ بدار الوثائق المركزية بالخرطوم .

(84) Zetlend, The Marquis of Gromer, London 1932, pp. 213-214.

(85) Langer, op. Cit. vol.II, p. 276; Shibiika , op. Cit., p.344.

(86) Taylor, op; cit., p. 79.

(٨٧) انظر الوثيقة فى ملحق الرسالة F. O. 407/186 .

(88) Leters of Queen Victoria, London, 1931, 3rd., Series, Vol. II.

(89) Ibid., Vol III, pp. 24 - 25.

(٩٠) انظر : ملحق البحث والتى تم الاتفاق الودى بين إنجلترا وفرنسا بخصوص مصر .

(91) Zetland,. op. Cit., pp, 256-7.

(٩٢) محمود عيسى : العمليات الحربية فى مصر والسودان ١٨٨٥ – ١٩٠٠م ، مجلة الجيش العدد ٣٤ مجلد ٨ ، يوليو ١٩٤٦م ، ص٥٥٠ ، أيضًا صحيفة المؤيد : منشور من سردار الجيش المصرى ، العدد ١٩٢٦ السنة السابعة ، الأحد ٢٦ يوليو ١٨٦٩م .

(93) Cromer, Modern Egypt, Newyork 1908, Vol., II .p93.

(94) Giffen . Fashoda, Ghicago 1930, p. 30.

(٩٥) محمد عبد الجواد محمد : التنظيم القضائى فى السودان فى عهد الحكم الثانى وبعد الاستقلال ، القاهرة ، ص٤–٦ وأيضًا زكى مصطفى عبد المجيد : القانون المدنى السودانى تاريخه وخصائصه ، ص٦٢ – ٦٣

(٩٦) محمد عبد العاطى جلال : الاستعمار الفرنسى فى مراكش ، القاهرة ١٩٥٤م ، ص١٢٣ .

(٩٧) روم لاندو أزمة المغرب ، ترجمة إسماعيل حسين الحوت ، القاهرة ١٩٧٧م ، ص١٣٢ .

(98) The letters and friendshops of cecil spring-Rice, London 1929, Vol. I, p. 200.

(99) Langer, Op. Cit. Vol. II,p. 283.

(100) Rodd, Social and Diplomatic Memoirs, London 1932, p. 85.

(101) Gromer to salisbury, Cairo, 21. 3.96, Quoted in shibeika, op. Cit., p. 354.

(102) Zetland, op. Cit., p. 223.

(103) Cocheris, op. Cit., p. 433.

(104) Michel,. Op. Cit., pp. 6-7; Cocheris, o[, cit., pp. 421-2; Neri, Op. cit., p, 102.

(105) Shibeika, . op . Cit., p. 355.

(106) Ibid., p. 106.

(107) Langer, op. Cit., Vol . II . p . 289.

(108) Giffin, N., op. Cit, p.78.

(١٠٩) عمر طوسون ، المسألة السودانية ، القاهرة ١٩٣٦م ، ص٦٨ - ٦٩ .

(110) Temprly and penson: A Century of Deplomatic Policy. Blue Books (London 1938 p.p 497-499).

(111) El Gamal, Shawky: An Unpublished Document in the History of the Anglo-Rrench Competion for the Domination in Upper Nile (Cairo 1962) p. 18.

قائمة

المصادر والمراجع

أولاً : الوثائق :

أرشيف الحكومة البريطانية ويرمز F. O وهى الآتى :

F. O 78/804, Cromer to Salisbury.

F. O 5/6/95, Kimberely to Dufferin.

F. O 15/7/94, Hanitaux to Decrais.

F. O 13/7/94, Delcase to monteil.

F. O 13/8/94, Kimberley to plunkett.

F. O 11/8/94, phipps to kimberley.

F. O 25/3/96, Salisbury to currie.

F. O 1/4/95, Kimberley to Dufferin.

F. O 21/3/96, cromer to salisbury.

ثانيًا : دار الوثائق المركزية بالخرطوم :

وثيقة رقم ٢٤٦ عن الحالة العامة فى السودان .

F. O 407/201, Report on political Agitation in the Sudan.

F. O 407/186, The Evacuation of the Egyptian army from sudan.

(جـ) دار الوثائق القومية . القلعة . عابدين محفظة رقم ١٠٥ السودان.

Du Journal Evening Star .

A ctudites du Jour par paul V. Colins .

أيضـًا :

تقرير عن احتلال بريطانيا للسودان وذلك لتأمين طريق التجارة الخاصة بها عبر أفريقيا لبلاد الهند Colonial Offic .

ثانيًا : المراجع العربية :

١ – أحمد فؤاد : مصر والسودان ، القاهرة ١٩٣٠م .

٢ – أمين الرافعى : مفاوضات الإنجليز بشأن المسألة المصرية ، القاهرة ١٩٢١م .

٣ – جلال الدين الحمامصى : ماذا فى السودان ، القاهرة ١٩٦٤م .

٤ – جلال يحيى : تاريخ مصر الحديثة ، القاهرة ١٩٨٢م .

٥ – جميل عبيد : المديرية الاستوائية ، القاهرة ١٩٨٦م .

٦ – داود بركات : السودان المصرى ومطامع السياسة البريطانية ، القاهرة .

٧ – زاهر رياض : السودان المعاصر منذ الفتح المصرى حتى الاستقلال ١٨٢١ – ١٩٥٣م ، القاهرة ١٩٦٦م .

٨ – زاهر رياض : شمال أفريقيا فى العصر الحديث ، القاهرة ١٩٦٧م .

٩ – زكى مصطفى عبد المجيد : القانون المدنى السودانى تاريخه وخصائصه ، القاهرة .

١٠ – شوقى عطا الله الجمل : تاريخ السودان وادى النيل ، الجزء الثالث ، القاهرة ١٩٦٦م .

١١ – صالح مرسى : السودان فى القرن العشرين ، القاهرة ١٩٦٥م .

١٢ - عبد الرحمن الرافعى : مصر السودان فى أوائل عهد الاحتلال ، القاهرة ١٩٦٦م .

١٣ - عبد الرحمن حسن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار (ذى الحجة ١٣٢١هـ - ١٣٢٢هـ) .

١٤ - عبد العزيز عرابى : بريطانيا فى السودان ، القاهرة ١٩٧٢م .

١٥ - عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الإستواء من فتحها إلى ضياعها (١٨٦٩ - ١٨٨٩م) الإسكندرية ١٩٣٧م ، الجزء الثانى .

١٦ - عمر طوسون : المسألة السودانية ، القاهرة ١٩٣٦م .

١٧ - على إبراهيم عبده: المنافسة الدولية فى أعالى النيل ، القاهرة ١٩٥٨م.

١٨ - على محمد بركات : السياسة البريطانية واسترداد السودان ، القاهرة .

١٩ - محمد سعيد القدال : المهدية والحبشة دراسة فى السياسة الداخلية والخارجية لدولة المهدى .

٢٠ - محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٢م .

٢١ - محمد عبد الجواد محمد : التنظيم القضائى فى السودان فى عهد الحكم الثنائى وبعد الاستقلال ، القاهرة .

٢٢ - محمد عبد العاطى جلال: الاستعمار الفرنسى فىمراكش، القاهرة ١٩٥٤م.

٢٣ - محمد صبرى : الإمبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٤٨م .

٢٤ – محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان وتاريخ وادى النيل السياسى ، القاهرة ١٩٥٨م .

٢٥ – محمد مصطفى صفوت : الإحتلال الإنجليزى لمصر وموقف الدول الأوربية إزاءه ، القاهرة ، ١٩٥٢م .

(ب) الدوريات :

٢٦ – أحمد عامر : الاتجاهات الحديثة للنظام السياسى فى السودان ، مجلة الدراسات الأفريقية ، العدد الخامس ١٩٧٦م .

٢٧ – تيودور تشيستين : تاريخ المسألة المصرية ١٨٧٥ – ١٩١٠م ، ترجمة أحمد فؤاد ، القاهرة ، ١٩٢٣م .

٢٨ – جاد محمد طه : فاشوده ، رسالة دبلوم غير منشورة بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية ، ١٩٥٩م .

٢٩ – جعفر محمد على بخيت : تراث الحكم والإدارة فى السودان ، مجلة الخرطوم ، العدد السابع ٣ إبريل ١٩٦٨م .

٣٠ – روم لاندو : تاريخ المغرب فى القرن العشرين ، ترجمة نقولا زيادة ، القاهرة .

٣١ – روم لاندو : أزمة المغرب ، ترجمة إسماعيل حسين الحوت ، القاهرة ١٩٧٧م .

٣٢ – صحيفة المؤيد : منشور من سردار الجيش المصرى ، العدد ١٩٢٦ ، السنة السابعة ، الأحد ٢٦ يوليو ١٨٩٦م .

٣٣ – قاسم أمين الهوارى : السودان فى المفاوضات المصرية البريطانية ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ١٩٧٥م .

٣٤ – كرومر : بريطانيا فى السودان ، ترجمة عبد العزيز أحمد ، القاهرة ١٩٦٠م .

٣٥ – محمود عيسى : العمليات الحربية فى مصر والسودان ١٨٨٥–١٩٠٠، مجلة الجيش العدد ٣٤ مجلد ٨ يوليو ١٩٤٦م .

٣٦ – مدثر عبد الرحيم : الأمبريالية والوطنية فى السودان ، مجلة الطليعة ، العدد الثالث ٦ مارس ١٩٧٠م .

ثالثًا : المراجع الأجنبية :

1 - Atteridge, A., Towards Khartoum, London, 1897.

2 - Arthur, G., life of kitchener, london, 1920.

3 - Pinon, R., France et allemagne 1870 - 1913, Paris, 1913.

4 - Charles-Roux, I'Egypt ede L'occupation Anghaise al independence Egyptienne, Paris, 1904.

5 - Cromer, Modern Egypt, New York, 1908.

6 - Crabites., p, thowinning of the Sulan, London, 1934.

7 - Colvin, A., The making of modern Egypt, London, 1906.

8 - Churchill, W., the river war, Don don, 1899.

9 - Dicey, E., The story of the khediviate, london, 1902.

10 - De freycinet, C., La question d'Egypte, 1905.

11 - Debidour, A., Histore depimatique del L'Europe, Paris, 1920.

12 - Deville, V., partage de L'Afrique, Paris 1989.

13 - El gamal, s., An unpublished document in the History of the anglo - French competition for the domination inupper Nile Cairo, 1972.

14 - Elgood, The transit of Egypt, London, 1928.

15 - Fuller, F., Egypt and the Hinter land, London, 1903.

16 - Grant, A., Temperley, H., Europein the nineteen the twentie the centaies, 1961.

17 - Giffen, fashoda, chicago, 1930.

18 - Gillet, I., gabriel hanotaux, Paris, 1933.

19 - Hanataux, fachoda et les negocations,africains Paris, 1906.

20 - John ston, Hi. Ahistory of the colonisation of Africa, cambridge, 1899.

21 - Letters of queen victoria, London, 1931.

22 - Letters and Friends ships of cecil spring rice, London, 1929.

23 - Lord newton, Lord lansdowne, London 1929.

24 - Langer, W., the diplamacy Of imperialism, vol I, New York, 1935.

25 - Marriott,. J., Europe and bey and London, 1945.

26 - Michet, vers Fachoda, Paris, 1901.

27 - Rodd, social diplomatic memoirs, London 1923.

28 - Neri, I., Loguestione del Nilo, Roma 1939.

29 - Shibika, M., British policy in the sudan, London, 1952.

30 - Scott, K., patition of Africa, London, 1863.

31 - Taylor, A., The Struggle for Mastery in Europe, Oxford, 1954.

32 - Templerley and penson, Foundations of british foreign policy, 1938.

33 - Temperly and peson., A century of Deplomatic policy. Blue Books, London 1938.

34 - Viscount Gray of Fallodon, Twenty-Five years, New York, 1925..

35 - Zetland, The Marquis of cromer, London, 1932 .

الملحق رقم (٣)

The Evacuation of The Egyptian Army From Sudan .

The demonstrations which the society of ellewa elabyad carried on assured English that the Egyptian military troops should leave the Sudan as quickly as possible to guarantee returning security and settlement, The desmersing of the Egyptian army from the Sudan was a main aim of the English politic aims . Its foundation took place according to the report of one of the greatest officials of the English protection house in Cairo . He was Mr. keawn Body who was sent to the Sudan in March 1920 to set by agreement with the general governor an imagination for the new English policy in the Sudan after. several meeting's with great English officials headed by the general governor Sir lee Stack, Mr. Body wrote a report in the 14th of the mentioned month . this report was followed by the British policy in the Sudan. It achieved Its aims by evacuating the Egyptians at the end of 1924 because of the importance of the mentioned report we sum it here.

At its beginning Mr. Bady said literally: The best solution from the Sudanese point of view (meaning the general governors point of view) was hurrying in dismissing Egypt from the Sudan and the peace committee with Turkey should Include the surrender. of Turkey about its rights in Egypt and the Sudan for Britain. Mr. Body thought the report of Lord Milliner should that Egypt should get self independence in case of putting an loud to its objections in the Sudan and it should include at the same time pointing to the differences between Egypt and the Sudan from race and traditions it should show the Egypt's' legal rights in the Sudan were only in its rights in the Nile water and in protecting its barbers from the external oppression. the British government would hear all these completely towards Egypt . At the same Time it was responsible for protecting the Sudan and to develop in under its supervision what it called the Sudanese patriotism this was done by founding local foundation in this country .

The bruiting owner of the report said " Our aims would be explained to the religious and tribal presidents through all the country . No doubt they would side us. Steps should be taken to fulfill the parts of the special program concerning the armies aiming at evacuating the last Egyptian soldier from the country .

If it was impossible mentioning the Sudan in Lord Milnpprtereport or in the advertisement produced the British government, the program that the Sudan should get ride of the Egyptian influence should be carried on gradually until the time came to gather the fruit of this program when discussing this matter with Egypt .

الجوائح فى الأندلس

منذ الفتح الإسلامى حتى نهاية عصر الخلافة

د. محمد بركات البيلى

كلية الآداب – جامعة القاهرة

ازدهر الاقتصاد الأندلسى – خاصة فى عهد أمويى الأندلس – ازدهارًا عظيمًا طالما أشاد به الجغرافيون والمؤرخون من ناحية(١) وتغنى به الشعراء من ناحية أخرى حتى كان منهم من عد الأندلس جنة الدنيا(٢) وقد تنوعت مظاهر ازدهار الاقتصاد الأندلسى ، فازدهرت الزراعة وارتقت الصناعة وراجت التجارة(٣) حتى كان الأندلس صنوًا للرخاء . إلا أن هذا الاقتصاد الأندلسى الزاهر الذى ضرب المثل بازدهار لم يسلم من التعرض أحيانًا لبعض الجوائح أو الشدائد التى كانت أشبه بالبقع السوداء على الرداء الأبيض ، وعلى الرغم من أنها كانت لا تغض كثيرا من قدر ازدهار الاقتصاد الأندلسى فإنها تمثل ظاهرة اقتصادية تستحق الدراسة والتحليل .

والجائحة فى اللغة تعنى الشدة والنازلة العظيمة التى تجتاح المال(٤) ويرجع فقهاء اللغة الجوائح فى الغالب إلى أمر سماوى لادخل للإنسان فيه ولم يكن يستطيع لـه دفعًا كالبرد المحرق أو الحر المفرط أو الآفة ، وقد يضيف بعضهم إلى ذلك عاملاً بشريًا مثل اجتياح العدو للمحاصيل الزراعية(٥) وهم بذلك يقصرون الجوائح على الجانب الزراعى دون غيره من جوانب النشاط الاقتصادى الأخرى وسارت كتب الفلاحة على نفس النهج فقصر أبو الخير الاشبيلى الجوائح على الإنتاج الزراعى إذ قال : " قد يعرض للنبات آفات كثيرة وجوائح عظيمة مثل الخمج والقحط(•) والذبول والريح والجليد واليرقان وسقوط الورق وقلة الحمل والصر(••) والضبابات(•••) ...

والقمل(•) وعدم البهائم الوحشية(••) . وغيرها ، وعدم الفأر والدود والطير والنار وغير ذلك "(٦) .

لكن الجوائح فى الأندلس كانت أوسع مجالاً من ذلك من الناحية الفعلية، فلم تكن قاصرة على الإنتاج الزراعى وإنما يشير ابن العطار فى سجلاته إلى جائحة فى ملاحة لم ينعقد ملحها ولم تنتج ملحًا(٧) كما يشير ابن سهل فى نوازله إلى أن القاضى أبا المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس الذى تقلد قضاء الجماعة بقرطبة سنة ٣٩٤هـ قد اعتبر تعذر الحرق لتوالى الأمطار جائحة نزلت بمقتبلى الحمامات لعجزهم عن تسخين الماء اللازم للاستحمام(٨) وعلى ذلك فإن الجوائح فى الأندلس لم تكن فقط جوائح زراعية وإنما كانت جوائح اقتصادية تنزل بمختلف جوانب النشاط الاقتصادى فى الأندلس وكانت الجوائح فى الأندلس على مستويين . أولهما : جوائح فردية محدودة لا تتعدى نطاق فرد أو بضعة أفراد ، وهذا النوع من الجوائح هو الذى تتناوله غالبًا كتب النوازل والسجلات مثل نوازل ابن سهل وسجلات ابن العطار ويستوجب حكمًا من القاضى بالتخفيف عن المتضرر من الجائحة إذا اشتكى إليه مما أصابه من ضرر وفقًا لقواعد فقهية كان معمولاً بها فى هذا الصدد . أما المستوى الثانى فهو الجوائح العامة التى قد تجتاح إقليمًا بعينه من أقاليم الأندلس أو تجتاح عموم الأندلس مؤدية إلى مسغبة عامة وغلاء ومجاعة تضر بأهل الأندلس ضررًا بليغًا وقد أرجع الأندلسيون الجوائح الفردية إلى عوامل طبيعية وبشرية وقد ذكر أبو الخير الاشبيلى جانبًا منها سبقت الإشارة إليه وأضاف ابن العطار إليها عوامل أخرى مثل الاستغدار وتوالى الأمطار واتصال الغيوث المسقطة للثمار والجراد ومعرة الجيوش والسرقة •••(٩) كما أشار ابن سهل إلى عامل نفسى هو المخافة أو الخوف الذى يتمكن من نفوس الزراع من تكرار نزول

الجيوش على زروعهم فيمتنعون عن سقيها ويهملونها لقلة العائد عليهم منها(١٠) أما العوامل المسببة للجوائح العامة فقد كانت تراكمات كمية للعوامل الطبيعية والبشرية المسببة للجوائح الفردية من ناحية فضلاً عن بعض العوامل التى تعكس الأوضاع العامة فى الأندلس من ناحية أخرى ويمكن دراسة ذلك فيما يلى :

أولاً : العوامل الطبيعية : على الرغم من أن بلاد الأندلس كانت تستمد مياها العذبة من موارد متنوعة كالأمطار والأنهار والمياه الجوفية ، فقد كانت الأمطار فى مقدمة تلك المصادر وأكثرها أهمية على الإطلاق ، لأن أنهار الأندلس مع كثرتها أنهار داخلية محصورة داخل شبه جزيرة ايبريا تستمد مياها من الأمطار التى تسقط على شبه الجزيرة وليس منها نهر عابر يجلب مياهه من خارج الأندلس وإنما تنبع تلك الأنهار كلها من داخل بلاد الأندلس(١١) ومن ثم كان أثر تلك الأنهار محدودًا فى حالة القحط لايمكنها أن تمنع حدوثه وإنما قد تخفف فقط من حدته وويلاته فى بعض الأقاليم مثلما فعل نهر برباط فى سنى المحل المنسوبة إليه والمعروفة بسنى برباط إذ لجأ إلى واديه بعض أهل الأندلس فى تلك السنى " فحمل الناس وأصابهم خصبه"(١٢) وتظهر أهمية الأمطار كمورد رئيسى للمياه العذبة فى الأندلس فى أن الجغرافيين الأندلسيين كانوا يقسمون الأندلس إلى قسمين : أندلس شرقى وأندلس غربى ، ولم يكن أساس هذا التقسيم كما يبدو لأول وهلة هو اتجاه بعض مجارى الأنهار إلى الشرق لتصب فى البحر المتوسط كنهر الإبرة واتجاه بعضها الأخر نحو الغرب لتصب فى المحيط الأطلنطى كنهر الوادى الكبير ونهر التاجة وغيرهما ، ولكن الأساس الحقيقى لهذا التقسيم هو سقوط الأمطار أو حسب قول المقرى " الشرقى منها يمطر بالريح الشرقية ويصلح عليها والغربى يمطر بالريح الغربية وبها صلاحه وإنما قسمته الأوائل جزءين

لاختلافها فى حال أمطارهما "(١٣) وإذا كانت عناية مسلمى الأندلس بنظام الرى جعل دور الأنهار فى سقيا الأندلس يبدو ظاهريًا أكبر من حقيقته فما لبثت حقيقة هذا الدور أن تكشفت وظهر جليًا اعتماد شبه الجزيرة الأيبيرية على الأمطار اعتمادًا رئيسيًا بعد استيلاء نصارى الأسبان عليها وتدنى نظام الرى فى عهدهم عما كان عليه فى العصر الإسلامى ، فقد ذكر ابن عثمان الكناسى الذى زار أسبانيا بعد خروج المسلمين منها أنه " لم نر لهم حرثًا على ساقية منذ دخلنا بلادهم وإنما حرثهم على البعل "*(١٤) .

ومن المعروف جغرافيًا أن نحو ثلثى شبه جزيرة أيبريا فيما يعرف بأيبريا الجافة لم يكن فقط قليل الأمطار بل كان أيضًا متقلب المطر(١٥) فقد يحتبس المطر حينًا فى صورة قحط أو يسقط غزيرًا حينًا آخر فى هيئة سيل مدمر ، ونظرًا لأن الأرض الجافة Secano أو البعل كانت تختص بزراعة الحبوب فى الأندلس(١٦) فقد كان تذبذب الأمطار ما بين القحط والسيل يعوق زراعة الحبوب كليًا أو جزئيًا سواء حدث أى منهما قبل عمارة الأرض ، وزراعتها أو بعد العمارة والزراعة إبان نمو النبات فعمارة الأرض وزراعتها لا تكون إلا فى إثر مطر ينزل(١٧) فإذا احتبس المطر حال دون الزراعة " وأضر القحط بزراعتها وبطل أكثره باحتباس الغيث وجفوف الأرض(١٨) أما إذا اترك السيل واستغدرت الأرض إبان الزراعة " لا يتمكن حرثها ولا زراعتها لغلبة الماء عليها وفوات أكثر إبان الزراعة(١٩) .

وكانت للحبوب – خاصة الحنطة – أهمية كبيرة فى الاقتصاد الأندلسى حتى ذهب ابن عبدون إلى أن " فى لحظة تذهب النفوس والأموال وبها يمتلك المدائن والرجال ومطالبتها تفسد الأحوال وينحل كل نظام(٢٠) . وقد يحدث القحط أو السيل إبان نمو النبات فيضربه ويذهب بجزء من محصوله ومن ثم

كان المطر فى حالتى تطرفه ما بين الاحتباس (القحط) أو شدة غزارته وتوالى سقوطه (السيل) فى مقدمة العوامل الطبيعية المسببة للجوائح العامة التى يمكن تسميتها بالأزمات الاقتصادية بالأندلس .

ونظرًا لأهمية المطر كمورد مائى أساسى فى الأندلس كان الأندلسيون إذا احتبس المطر يهرعون إلى الاستسقاء فيصلون لله ويتضرعون إليه أن ينزل عليهم الغيث ويتخذون فى صلاة الاستسقاء هيئات خاصة يظهرون بها عظيم المصيبة التى نزلت بهم من ناحية ويظهرون خضوعهم وضراعتهم لله من ناحية أخرى ، وقد قيل أن زياد شبطون - الذى أدخل موطأ مالك إلى الأندلس ولقبه أستاذه مالك بفقيه الأندلس - هو أول من أظهر فى الأندلس سنة تحويل الأردية فى الاستسقاء(٢١) لكن الأندلسيين اتخذوا من بعده هيئات أخرى للاستسقاء مثلما فعل الخليفة عبد الرحمن الناصر بعدما أمر القاضى منذر بن سعيد البلوطى بالبروز إلى الاستسقاء بالناس لقحط أصابهم آخر أيامه فتأهب القاضى لذلك فصام ثلاثة أيام تنفلاً وانابة إلى الله ورهبة ، ثم خرج ماشيًا متضرعًا مخبتًا متخشعًا(•) ليصلى بالناس فى مصلى الربض بينما مكث الخليفة الناصر بقصره منتبذًا حائرًا منفردًا بنفسه لا بسًا أخس الثياب مفترشًا التراب وقد رمد به على رأسه وعلى لحيته وبكى واعترف بذنوبه داعيًا الله أن يكشف الضر عن عباده(٢٢) ومثلما فعل المنصور محمد بن أبى عامر أيضًا حينما خرج ذات مرة للاستسقاء مع القاضى محمد بن يبقى بن زرب ولبوسه ثياب بيض(••) وعلى رأسه أقرف وشى على شكل أهل المصايب بالأندلس قديمًا ، قد أبدى الخشوع وهو باك ودموعه تسيل على لحيته فتقدم إلى ضياع المحراب عن يمين الإمام وقد كان فرش له هناك حصير ليصلى عليه فدفعه برجليه وأمر بنزعه وجلس على الأرض وشهد

الاستسقاء "(٥) وقد أمدتنا المصادر بأخبار عن عديد من نوبات القحط - أو المحل - التى تعرضت لها بلاد الأندلس حتى أواخر عصر الخلافة مثلما حدث فى سنة ١٣١هـ التى أصاب الأندلس فيها محل شديد عم وامتد حتى سنة ١٣٦هـ(٢٣) وفى سنة ٢٣٢هـ التى شهدت قحطًا شديدًا أصاب الأندلس فأهلك الزرع والضرع وقحط الأندلس فى سنة ٢٥٣هـ وامتد القحط إلى العام التالى(٢٤) وقحط الأندلس فى سنة ٢٧٤ هـ قحطًا شديدًا فاستسقى الناس مرارًا حتى دب فيهم اليأس ثم سقوا وارتفع عنهم اليأس(٢٥) وأمحل الأندلس فى سنة ٣٠٢هـ محلاً شديًا شمل كل الأندلس بأطرافها وثغورها فغلت الأسعار فى جميع جهاتها واستسقى الناس مرارًا(٢٦) وأمحل الأندلس فى سنة ٣٢٤هـ محلاً عامًا لم يسمع بمثله قط(٢٧) .

واذا كان أكثر ضرر القحط يحل بالنبات والزروعات فقد كانت أضرار السيول تتعدى ذلك فتهدم القرى والقناطر وتعوق الاتصال وتقتلع الأشجار وتخرب المزراع والبساتين وتفيض الأنهار منها فيضانات تخرب وتدمر مثلما فعل سيل عظيم أصاب نواحى قرطبة سنة ١٨٢ هـ فأتى على ربض القنطرة عن آخره فلم يبق فيه على دار إلا وقد هدمها وامتد ضرره إلى نواحى شقنده(٢٨) وفى سنة ٢١٢هـ تعرض الأندلس لسيول عظيمة خربت الأسوار بأكثر مدن الثغر وخرجت قنطرة سرقطة التى كانت مشهورة بصلابتها(٢٩) وبعد ذلك بنحو ثلاثة أعوام تعرض الأندلس فى سنة ٢١٥هـ لسيول عظيمة أضرت بنواحى كثيرة وفاضت منها أنهار عديدة مثل نهر شنبل الذى خرب قوسين من حنايا قنطرة استجة وخرب السدود والأرحاء الواقعة عليه ، ونهر الوادى الكبير الذى فاض فأتى فيضانه على سته عشرة قرية من قرى اشبيلية وذهب بكل ما بين اشبيلية والبحر من قرى وما فيها من أناس وبهائم وأمتعة ونهر التاجة الذى فاض فخرب فيضانه ثمانية عشرة قرية

واتسع عرضه إلى ثلاثين ميلا(٣٠) وفى سنة ٢٨٠ هـ اجتاحت الأندلس سيول استمرت عدة شهور فأهلكت المزروعات وانعدمت الأقوات(٣١) .

وتعرضت قرطبة سنة ٣٣٤ هـ لما سمى بالسيل العظيم الذى هدم جزء من قنطرتها وثلم الرصيف(٣٢) وتعرضت قرطبة أيضًا فى سنة ٤٠١هـ لسيل عظيم آخر فاض منه نهر الوادى الكبير فهدم من أرباضها نحو ألفى دار وما لا يحصى من المساجد والقناطر ومات بسببه خمسة آلاف نفس غرقًا وردمًا وذهبت فيه أمتعة الناس وأموالهم وانهدم أكثر سور قرطبة وردم أكثر الخندق المحيط به(٣٣) ولم يقتصر ضرر السيل عند ذلك وإنما كان " السيل المقيم إذا أقام كثيرًا فإنه يضر بالشجر والنبات والبقول والرياحين وربما أفسدها وذلك أنه يحدث فيها عفنًا مفسدًا اللون ومغيرًا للطعم "(٣٤) .

ونظرًا لقلة أمطار شبه جزيرة أيبريا وتذبذبها وعدم انتظام مواردها من أنهارها التي تقل مياهها خاصة فى أيام القيظ عندما يبلغ البحر ذروته(٣٥) فقد أهتم الأندلسيون بتنظيم السقيا سواء من مياه الأنهار أو من المياه الجوفية، وعنوا بنظام الرى عناية فائقة فقسموا مجارى الأنهار بين الأقاليم التى تجرى فيها فكان النهر الواحد يسمى بعدة أسماء تبعًا للحوز الذى يجرى فيه مثل نهر الوادى الكبير الذى يقال له عند إشبيلية نهر إشبيلية وعند قرطبة نهر قرطبة وعند جيان نهر جيان وحدد لكل جزء من النهر نواحى يرويها تحديدًا دقيقًا(٣٦) وأقام الأندلسيون شبكة واسعة من القنوات والسواقى ترفع إليها المياد من النهر بالنواعير وينظم انسياب المياه فيها تنظيمًا دقيقًا تشرف عليه هيئة مختصة كانت تسمى وكالة السقيا(٣٧) ويحاكم المخالف للقواعد المنظمة للرى أمام محكمة الماء التى كانت تعقد – على سبيل المثال – فى بلنسية على باب مسجدها الجامع صباح كل خميس(٣٨) .

وكثيرًا ما اعتمد الأندلسيون فى سقياهم على الآبار والعيون وقد أورد المالقى كيفية تقسيم ماء العين بين الشركاء بالقلد (النصيب من الماء) إذ " تؤخذ قدر نحاس فيثقب فى أسفلها وتعلق من شئ فى فناء العين أو بقربها ويوضع تحتها إناء يجتمع فيه الماء الذى يخرج منها ثم تملأ القدر من أول الفجر ويجرى ماءها بقية اليوم وطول الليلة المقبلة إلى انصداع الفجر منها ، وكلما تنقص الماء فى القلد زيد فيه ويتصل جرية طول اليوم والليلة ويجتمع ذلك كله فى الإناء الذى يكون تحت القدر ثم يكال ما فيه من الماء ويعرف مبلغه ويقسم بين الشركاء بالقلد على قدر اشتراكهم ويعلم ما يصير من كيلة لكل واحد منهم فإذا أرادوا السقى وبدأ أحدهم باتفاق من جميعهم وإن تشاحوا أقرع بينهم وبدأ من تقع له القرعة فيؤخذ حينئذ ما صار للمبتدئ بالسقى من مكيلة الماء ويلقى ذلك فى القلد ويسرح ماء العين إلى أرضه من ابتداء جرى الماء من القلد فيسقى إلى أن يذهب الماء الذى كان فى القلد فإذا ذهب ألقيت فى المكيلة التى صارت لغيره ثم يبتدأ بالسقى إلى أن تنقطع جرية الماء ويفعل ذلك بكل واحد منهم إلى أن ينقضى اليوم والليلة وهما الدهر كله كذلك "(٣٩) ونظرًا لأهمية الآبار فى السقيا فقد عد ابن العطار نضوب ماء البئر التى تسقى منها الجنان جائحة(٤٠) .

ولم يكن تذبذب الأمطار حينًا والسيل حينًا آخر هو العامل المناخى الوحيد المسبب للجوائح العامة فى الأندلس وإنما كان من تلك العوامل المناخية العواصف العاتية أو الأعاصير التى كانت تهب أحيانًا على الأندلس فتقتلع الأشجار المثمرة كالتين والزيتون والنخيل وغيرها أو تهدم الدور وتقتلع أسقف المنازل(٤١) وكان أيضًا من العوامل المناخية المسببة للجوائح العامة فى الأندلس البرد الشديد الذى قد لا يضر فقط بثمار الزيتون والكروم وكافة

الفاكهة والخضروات(٤٢) وإنما قد يهلك أيضًا المواشى والطير والبهائم الوحشية(٤٣) كما كان منها أيضًا الحر الشديد الذى تضر سمومه وحمار قيظه بورق التوت الذى تربى عليه دودة القز(٤٤) أو تضر بالفواكه خاصة التين الذى كان الحر يفسده فسادًا لا نفع معه(٤٥) .

وكانت الجوائح العامة - والفردية أيضًا - تنتج أحيانًا عن عوامل جيولوجية كالزلازل التى قد تهدم الدور وتحدث تشققات فى القشرة الأرضية تفور منها الآبار ويموت الناس تحت الانقاض ، ولدينا عن ذلك بعض الإشارات التاريخية - وإن تأخر بعضها عن الفترة موضع الدراسة - منها إشارة العذرى إلى " الزلازل التى ترادفت فى حومة تدمير بمدينة أوريولة وبمدينة مرسية وما بينهما وذلك بعد الأربعين وأربعمائة من الهجرة وتمادى ذلك بهم نحو عام ، كل يوم مرارًا كثيرة ، لا تخطئ من ذلك يومًا ولا ليلة إلى أن تهدمت الدور ووقعت الصوامع وكل بنيان عال ، وانهدم جامع أوريوله مع صومعته ، وانشقت الأرض فى كل ناحية من الحومة وغارت أعين كثيرة ، وحدث فى بعضها ما له رائحة منتنة(٤٦) . وأشار ابن رشد إلى زلازل بدأت بقرطبة عام ٥٦٦ هـ " وتمادت هذه الزلازل بقرطبة نحو العام شدادًا ولم تنقطع إلا بعد ثلاثة أعوام أو نحوها ، وقتلت الزلزلة الأولى ناسًا كثيرًا بالهدم وزعموا أن الأرض انشقت بقرب قرطبة بموضع يعرف بأبدجر فخرج منه شبه رماد أو رمل "(٤٧) .

وكان أيضًا من العوامل الطبيعية المسببة للجوائح العامة فى الأندلس ما يجتاح الأراضى من جحافل الجراد(•) التى تأتى على كافة الزروع والغراسات مثلما حدث فى سنة ٢٠٧هـ صدر أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط إذ نالت أهل الأندلس مجاعة شديدة " وكان سببها انتشار الجراد

بالأرض ولحسه الغلات وتردده الجهات "(٤٨) وفى سنة ٢٣٢هـ " كان القحط الذى عم الأندلس فهلكت المواشى واحترقت الكروم ، وكثر الجراد فزاد فى المجاعة وضيق المعيشة "(٤٩) . وعز القوت فى جميع بلاد الأندلس حتى اضطر الأندلسيون إلى أن يمتاروا من العدوة المغربية "(٥٠) . وفى سنة ٣٨٣هـ اجتاح الأندلس جراد كثيرًا جدًا وسرح بها وعم به الأذى والبلاء فأمر المنصور بن أبى عامر بجمعه وعقره ورصد لكل من يقوم بذلك مكافآت مجزية تشجيعًا للناس على جمعه ورغم ذلك تمادى اجتياح الجراد للأندلس نحو ثلاث سنوات حتى سنة ٣٨٣هـ(٥١) . وقد أشار العذرى إلى كثرة تعرض فحص لورقة من نواحى تدمير لجحافل الجراد التى كثيرًا ما كانت تجتاح هذا الفحص وتضر به ، وكان العقل الشعبى لأهل لورقة يعزو ذلك إلى سبب أسطورى هو فقدان طلسم على هيئة جرادة من ذهب كان وجوده يمنع الجراد عن ناحيتهم(٥٢) .

ومن العوامل الطبيعية التى كانت تتسبب فى جوائح عامة بالأندلس أسراب الطيور التى كانت تضر بالثمار فكان الطير إذا حط على التين مثل – " أذهب أكثره وأكل ما داخله وأبقى جلوده فارغة من لحميتها "(*) فكان الأندلسيون ينفرونها بالأوصاف وخيالات المآته(٥٣) . وكان منها الدود الذى يراه أبو الخير الإشبيلى " داء عظيم للشجر والخضر " ويذكر بعض أنواعه وكيفية علاجها(٥٤) وكان من هذا الدود نوع طويل أخضر اللون يسمى الكلب(٥٥) .

وكان منها أيضًا ما تتعرض له الأندلس أحيانًا من أوبئة وطواعين مثلما حدث فى سنة ١٢٩هـ التى أصاب الأندلس فيها وباء كثر منه الموت فى الناس حتى كاد الخلق – على حد تعبير ابن عذارى – أن ينقرضوا(٥٦) .

وحدث فى سنة ٣٣٨هـ طاعون توفى فيه كثير من الأندلسيين كان منهم أحمد ابن دحيم وهو على قضاء البيرة(٥٧) . وفى أول سنة أربعمائة نزل بالأندلس وباء كان ممن توفى فيه عمر بن حسين بن محمد بن نايل الأموى(٥٨) .

ولم تكن الأوبئة فى الأندلس قاصرة على البشر وإنما كانت تصيب الحيوان أحيانًا خاصة الحيوانات الحقلية التى لا غنى عنها فى الزراعة ، حتى كان البعض يشترط عند شراء البقر أن يكون حراثًا إذا اشتراه فى غير أيام الحرث أو يختبره فى الحرث إذا كان أوانه(٥٩) ولذلك كانت علة البقر جائحة تضر بالإنتاج الزراعى من ذلك إشارة العذرى إلى علة البقر بنواحى تدمير(٦٠) . وقد ذكر القروينى أن علة البقر كان بلورقة وأنها وكانت تسمى اللقيس(٦١) .

ثانيًا : العوامل البشرية :

كانت العوامل البشرية المسببة للجوائح العامة فى الأندلس متعددة ويأتى فى مقدمتها الفتن والثورات التى اندلعت فى مختلف فترات أعصر التاريخ الأندلسى فأدت إلى نشوب الحروب التى عطلت الحرث والزرع ونهب الجنود ما هو قائم من غراسات مما أضر بالاقتصاد الأندلسى ضررًا جسيمًا مثلما حدث فى الفتنة الأندليسية الأولى التى اندلعت فى عصر الولاة وعطلت الحرث والزرع فتناقصت المحاصيل ابتداء من منتصف سنة ١٢٤ هـ(٦٢) وتمادى النقص فى السنوات التالية مسببًا مجاعة زاد خطبها بوقوع وباء فى سنة ١٢٩ هـ هلك منه خلق كثير(٦٣) . وينعت صاحب الأخبار المجموعة معارك تلك الفتنة بأنها " قاطعة الأرحام " التى أعقبها الجوع الذى تزايد واشتد فى سنة ١٣٦هـ فخرج أهل الأندلس يمتارون من طنجة وأصيلا والعدوة المغربية فى الشدة (الجائحة) المعروفة بسنى برباط(٦٤) .

وكانت الفتنة الأندلسية الثانية التى اندلعت أواخر عصر الامارة وخيمة العواقب " يلخص ابن عذارى عواقبها بقوله : " فصار أهل الإسلام بين قتيل ومحروب ومحصور يعيش مجهدًا وبموت هؤلاء انقطع الحرث وكاد ينقطع النسل "(٦٥) .

أما الفتنة الأندلسية الثالثة التى اندلعت عند نهاية عصر الخلافة فقد كانت أشد ضررًا وأسوأ أثرًا إذ أعقبها قحط شديد ومجاعة عامة ووباء كثير(٦٦). ويصف ابن عذارى بعضًا مما نزل بأهل قرطبة من جراء هذه الفتنة المبيرة فيذكر أن " السعر كل يوم يزداد غلاء والأمر يتفاقم شدة والناس يتوجهون إلى السواحل والبوادى واشتد حال أهل قرطبة حتى أكل الناس الدم من مذابح البقر والغنم وأكلوا الميتة وكان قوم فىالسجن فمات منهم رجل فأكلوه ، ومع هذه المحن فشرب الخمر ظاهر والزنا مباح واللواط غير مستور ولا ترى إلا مجاهرًا بمعصية "(٦٧) . ولقد عانت الأندلس من الحروب التى دارت رحاها بين المسلمين ونصارى الأسبان من ناحية وبين المسلمين بعضهم البعض من ناحية أخرى وكانت كثرة حركة الجيوش تتسبب فى عديد من الجوائح سواء من قيام الجيوش بتعرية الحقول مما بها من زروع أو ثمار أو قصيل(٦٨) أو امتناع الفلاحين من رعاية زروعهم والعناية بها خوفًا من تكرار نزول الجيوش عليهم(٦٩) .

وكان فساد الأسواق أو تخريبها من العوامل البشرية المسببة للجوائح العامة فى الأندلس خاصة فى المدن الكبرى المزدحمة بالسكان مثل قرطبة وأشبيلية – وغيرهما – والتى كانت الأسواق بمثابة رئة اقتصادية لها فكان فسادها أو تخريبها يضر الناس أبلغ الضرر. وكان هذا التخريب نتيجة أسباب متنوعة مثل الحرائق خاصة الكبار منها كالحريق العظيم الذى اشتعل بسوق

قرطبة ٣٠٥هـ فاحترقت فيه أقسام عديدة من السوق منها حوانيت المشاطين والخراطين(٧٠) وحريق عظيم آخر اشتعل بسوق قرطبة أيضًا فى سنة ٣٢٤هـ فاحترقت فيه مجالس الخط وامتّد إلى حوانيت الصوافين والأجزاء المجاورة لمسجد أبى هارون الكائن بسوق قرطبة فتصدع بنيان المسجد وامتّدت النار إلى سوق العطارين فأتت عليه وعلى ما وراءه من حوانيت الحرارين وامتّدت أيضًا إلى حوانيت الشقافين وما جاور ذلك من جميع الجهات وأتت النار على دار البرد المجاورة للسوق فكان حريقًا شنيعًا(٧١) .

وقد ينتج تخريب الأسواق عن قطيع الميرة عنها وإعاقة وصول السلع إليها خاصة وقت الحروب التى تقطع الطرق وتحول دون تزويد الأسواق بما يلزمها من مؤن وبضائع فتضيق المعيشة بأهل المدن ، بينما كان توقف الحروب وعودة الأمن والاستقرار يكفلان توريد البضائع إلى الأسواق فتتحسن المعيشة ، فقد كانت عودة إبراهيم بن حجاج صاحب أشبيلية إلى الطاعة زمن الأمير عبد الله بن محمد وورود الجباية سببًا فى أن صلحت أحوال قرطبة بانفتاح طريق أشبيلية إليها وكان بانفتاح وصارت سببا لانفتاح باب غربى الأندلس ودرور المعائش منه بقرطبة(٧٢) .

ولاشك أن السياسة التى كانت تنتهجها الحكومة الأندلسية فى عصرى الإمارة والخلافة كانت من العوامل المؤثرة فى الجوائح العامة سلبا أو إيجابا، ولا يمكن القول بأن الحكومة الأندلسية على مدار العصرين المشار إليهما كانت لديها خطط واضحة ومحددة لمعالجة تلك الجوائح العامة وما ينجم عنها من أزمات اقتصادية ، فمع أنه من المفترض أن الحكومة الأندلسية كان لديها فى العادة مخزون استراتيجى - إن صح التعبير - تقوم بتخزينه فى الأهراء السلطانية لحين الحاجة إليه ، لكن هذا المخزون لم يكن لخدمة العامة

أو للتخفيف عنهم وقت الجوائح العامة وإنما كان للنفقات والأغراض السلطانية بصفة أساسية ، يتضح ذلك فيما أورده ابن دحية من خبر يعده سببًا لأبيات من الشعر أنشدها يحى بن حكم الملقب بالغزال(٧٣) . يقول : " والسبب فى نظم هذا الشعر أن أبا المطرف عبد الرحمن - الأوسط كان قد ولاه قبض الأعشار ببلاط مروان واختزانها فى الأهراء ، فنغق الطعام فى ذلك العام وسما السعر بالقحط سموًا كبيرًا ، فوضع يده فى البيع حتى أتى على ما كان عنده فى الأهراء ثم نزل الغيث ورخص الطعام فأعلم السلطان بما صنع الغزال من البيع فأنكره وقال : إنما تعد الأعشار لنفقات الجند والحاجة إليها فى الجهد فماذا صنع الخبيث ؟ خذوه بأداء ما باع من أثمانها واشتروا به طعامًا واصرفوه فى الأهراء إلى وقت الحاجة إليه فلما طلب منه ثمن ما باع أبى من ذلك وقال إنما أشترى لكم من الطعام عدد ما بعت من الأمداد وبين المددين بون شاسع نحو من ثلاثين ألفا ... "(٧٤) .

ومما يدل على تجاهل الحكومة الأندلسية للجوائح العامة وعدم وجود مخطط واضح لديها لمعالجة تلك الجوائح ما كان من الأمير محمد بن عبد الرحمن إبان مجاعة سنة ٢٦٠هـ التى ضرب بقسوتها المثل فقد كانت سنة لم يزرع فيها بالأندلس حبة ولا رفعت ، ومع ذلك فقد أراد الأمير محمد من وليد بن غانم صاحب المدينة حينذاك أن يأخذ العشور من الرعية من مدخور أطعمتهم وأن يشترى من ليس لديه مدخور منهم من حيث ظهر له ، لكن وليد بن غانم أجاب الأمير بأن العشورعلى الغلات إذا وهبها الله وجب أداء فرضه فيها وإذا اجتثت أصولها فلا زكاة فى من حرمها وطلب من الأمير أن يراعى ما يعانيه الناس من مسبغة وأن ينفق على أجناده من المخزون فى أهرائه وأن يخفف عن الرعية ويعينهم على عمارة الأرض متى

تتحسن أحوالهم فلم يقبل الأمير محمد رأيه ، وأمر أن يجمع الرعية نصف العشور وألا يتركها لهم بالكلية فاستعفى وليد من أداء هذه المهمة واستقال من خطته فولى الأمير محمد على المدينة بدلاً منه حمدون بن بسيل الذى كان طاغيًا فظًا فجد فى تحصيل نصف العشور من الرعية وضرب الظهور وهتك الستور وقتل الأنفس بالتعليق حتى ضج الناس بالدعاء عليه فى كل جمعة فأماته الله بغتة مما جعل الأمير محمد يتراجع عن موقفه فدعا وليد بن غانم واعتذر إليه عن أخذه بخلاف رأيه وطلب منه الرجوع إلى ولاية المدينة ليصلح ما أفسده ابن بسيل لكن وليد بن غانم أبى أن يرجع إلى ولاية المدينة(٧٥) .

لكن الخلافة الأندلسية كانت تضطر أحيانا إلى التدخل إذا تفاقمت الجوائح العامة ونجم عنها ما يهدد الأمن والاستقرار ، فالأمير محمد لم يغير موقفه من العشور فى مجاعة سنة ٢٦٠هـ - كما سبق - إلا بعد ازدياد السخط العام ، ولم يتدخل أيضًا فى مجاعة شديدة أخرى حدثت فى أيامه إلا بعد أن كثرت الشكوى من كثرة تطاول المفسدين فولى على السوق حسين بن عاصم وأذن له فى القطع والصلب لمجرد الاشتباه فصلب يومئذ عدد عظيم من الفسدة(٧٦) . وهكذا لم يكن تدخل الحكومة الأندلسية فى تلك الجائحة علاجًا اقتصاديًا لأسبابها وإنما كان تدخلها مجرد ضبط أمنى وتوقيع للعقوبات على الفسدة والمجرمين .

لكننا نجد الأمراء الأندلسيين أحيانًا يخففون عن الرعية من حدة بعض الجوائح مثلما حدث فى سنة ٢٠٧هـ فى صدر أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط إذ أصاب الناس فى تلك السنة مجاعة شديدة فقام الأمير عبد الرحمن باطعام الضعفاء والمساكين(٧٧) . ويبدوا أنه فعل ذلك لحداثة عهده حينذاك

بالحكم فى أول تولية الإمارة ورغبته فى تدعيم سلطانه باكتساب محبة الناس وثنائهم . أما الأمير محمد بن عبد الرحمن الذى كان متشددًا فى طلب العشور إبان مجاعة سنة ٢٦٠هـ فقد تدارك موقفه لاحقًا فى الجوائح التالية " فلما منيت رعيته بتوالى السنين عليهم أسقط لهم جملاً من العشور اللازمة لهم فنفس مخنقهم وأدخل الروح عليهم وأعانهم على ما استأتقوه من عمارتهم ... وقد أسقط عن أهل قرطبة ثلث عشورهم فى بعض سنى أزماتهم المجحفة "(٧٨) . ويبدو أن الأمير محمد قد نهج هذه السياسة الجديدة بعدما اضطربت أحوال الأندلس فى أواخر أيامه إذ يفهم من ابن القوطية أن سوء معالجة الحكومة الأندلسية لمجاعة ٢٦٠هـ المشهورة كانت من الأسباب غير المباشرة لهذا الاضطراب إذ يقول ابن القطومية بعد حديثه عن مجاعة سنة ٢٦٠" فاضطربت الأحوال فى آخر أيامه فأول فتنة حدثت عليه خروج عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقى "(٧٩) . وكان ابتداء خروج الجليقى فى سنة ٢٦١هـ(٨٠) .

ولم تختلف سياسة الحكومة الأندلسية فى عصر الخلافة عنها فى عصر الإمارة فيما يخص معالجة الجوائح العامة فلا يوجد من الأدلة ما يشير إلى وجود خطط معدة لمجابهة أمثال هذه الجوائح إلا فى زمن المنصور بن أبى عامر الذى فطن – فيما يبدو – بعد كثرة ما تعرضت له البلاد من جوائح فى أوائل أيامه إلى أهمية اتخاذ تدابير لمواجهة ما يجد منها فحرص على تخزين المؤن والأطعمة حتى كان لديه فى سنه ٣٧٤هـ مخزون هائل بلغ نحو مائتى ألف مدى ونيف(٨١) . ومع أنه لا يمكن الجزم بأن هذا المخزون كان لخدمة الاغراض غير السلطانية فقد كانت تدابير ابن أبى عامر تبدو عارضة أكثر من كونها خططًا منظمة وثابتة لمواجهة الجوائح العامة أو الأزمات الاقتصادية .

وإذا كنا نفتقد وجود خطة محددة لدى الحكومة الأندلسية لمعالجة الجوائح العامة فقد كان بعض الأفراد حريصين على تخزين الطعام لحين الحاجة إليه فقد أورد المالقى فى أحكامه مسألة عن رجل أخرج من فدان مطمر طعام وزعم أن اباه طمر فيه خمسة عشر فقيرًا ولها منذ طمرت تسع سنين(٨٢) واهتم الأندلسيون بسلامة التخزين فعنيت كتب الفلاحة الأندلسية ببيان الوسائل الناجحة فى ذلك الصدد حتى أفراد ابن العوام الاشبيلى بابًا من كتابة عنوانه " فى اختزان الفواكه الغضة واليابسة والحبوب والبذور والقطانى وادخار بعض الخضر "(٨٣) وأوضح أن البر يخزن على وجهين اما بكر من الرياح فلا تصيبه ريح وذلك بأن يجعل فى المطامير وشبهها وإما أن يعرض للرياح فتصيبه ويحول من موضع إلى موضع وذلك فى الأهراء وشبهها(٨٤) ومن قبله أوضح أبو الخير الأشبيلى كيفية تخزين الفواكة(٨٥) وفضلاً عن تخزين الأفراد لمواجهة الجوائح فقد كانت هناك مبادرات فردية نزع إليها بعض الأفراد لتخفيف حدة الجوائح العامة عن ضعفاء الأندلسين ومساكينهم ، من ذلك ما قام به يحى بن حكم الغزال -فيما سبق ذكره - من بيع الطعام الذى كان لديه بالأهراء مما جمعه من العشور التى قبضها ببلاط مروان ، ومن ذلك أيضًا أن الولد مسلمة بن الأمير محمد أمر وكيله بأن يمد الشاعر مؤمن بن سعيد حين أثقلت عليه النفقة فىشدة سنة ٢٦٠هـ المشهورة بقمح وشعير قوم ثمنة وقت الشدة بسبعمائة دينار(٨٦) . وقام يحى بن حجاج الطليطلى بتوزيع ما عنده من طعام فى بعض سنى الشدائد(٨٧) . وقام موسى ابن أحمد المرسى قاضى المرية بتوزيع الصدقات على ضعفاء المرية فى بعض السنين بعد أن أحصاهم فوجدهم فيها وفى أرباضها عشرين ألف ضعيف(٨٨) وفى بعض السنين أيضًا أمر محمد بن منظور القيسى

بخمسين قفيزا ففرقت في مساكين اشبيلية واستهجن ابن عم له كان يؤم بجامع اشبيلية أن يقوم ابن منظور بتفريق هذه الكمية في مثل هذه السنة فقال له أنما اعطيها لله(٨٩) .

على أى حال ، كان للعوامل البشرية دورها فى حدوث الجوائح العامة فى الأندلس وكثيرًا ما كانت تتضافر مع العوامل الطبيعية لتزيد من هول الجائحة وويلاتها إذ قل أن تحدث جائحة عامة لسبب واحد من تلك الأسباب وإنما تجتمع على عدة عوامل على النحو الذى يتضح من احدى نوازل ابن سهل إذ يذكر شكوى متقبلى جنات الأحباس بقرطبة من الجائحة التى نزلت بتلك الجنات فى سنة ٤٠٧هـ لعدة أسباب بعضها طبيعى وبعضها الآخر بشرى أو على حد قوله " بسبب الخشاش المتولد من الأرض لغلبة رطوبة الماء عليها شهر مارس الكائن فى العام المذكور وبسبب امتناع السقاية فى شهر أغسطس فى العام المذكور للمخالفة اللاحقة بتكرر الجيوش فى المحلة بشرقى مدينة قرطبة عند ورود العساكر مع النصارى وبسبب تكرر القتليات على الأوراق الموضوعة فيها "(٩٠) .

لقد اجتاحت بلاد الأندلس حتى أواخر عصر الخلافة عدة جوائح عامة وردت إلينا أخبار موجزة عن بعضها يمكن تتبعها على النحو التالى :

كانت أول جائحة فى الأندلس يرد خبرها فى المصادر التى وصلت إلينا تلك الجائحة التى بدأت بوادرها فى سنة ١٢٩هـ فى أعقاب الفتنة الأندلسية التى اختتمت عصر الولاة ، ففى السنة المذكورة وقع بالأندلس الوباء والموت حتى كاد الخلق أن ينقرضوا(٩١) . وتصاعدت المحنة بسبب المحل الذى عم

الأندلس منذ سنة ١٣١هـ واستحكم الجوع فى سنتى ١٣٤هـ ، ١٣٥هـ وبعض من سنة ١٣٦هـ(٩٢) وكان لهذه الجائحة نتائج خطيرة وعواقب وخيمة فقد تناقص أهل الأندلس بسبب الجوع والوباء والموتان من ناحية ونزح كثير منهم إلى العدوة المغربية من ناحية أخرى ، وأضرت تلك الجائحة بالأوضاع الاقتصادية والسياسية فىالأندلس إذ تعطل الحرث والزرع وتقطعت أوصال البلاد وانقطعت السبل فيها وتعطل البريد أو على حد قول صاحب الأخبار المجموعة " البرد قد قطعها الجوع ، فلا بريد " (٩٣) . وأضعفت الجائحة قدرة المسلمين القتالية وانشغلوا بالحرب فيما بينهم مما مكن بلايوس من السيطرة على أشتوريس ثم أخرج المسلمين عن جليقية كلها بعد أن قتل منهم الكثير وارتد المذبذبون عن دينهم فأخلى المسلمون شمال الأندلس كله دون مقاومة تذكر ليستولى الأسبان النصارى على نحو ثلث الأندلس دون كبير عناء(٩٤) . كما أضعفت الشدة الاقتصادية حكومة الأندلس المركزية وأوهنت سلطانها على مختلف النواحى خاصة سرقسطة التى حوصر فيها الصميل بن حاتم أحد قطبى الحكومة الثنائية فى الأندلس حينذاك وقعد حليفه يوسف الفهرى عن نصرته سنة ١٣٧ هـ(٩٥) وإذا كان ابن عذارى يبرر قعود يوسف الفهرى عن نصرة حليفه الصميل برغبته فى التخلص منه(٩٦) لينفرد الفهرى بحكومة الأندلس، فما لبث العام التالى - ١٣٨هـ- أن كشف عن حقيقة ضعف الفهرى والصميل معا ، إذ تمكن عبد الرحمن بن معاوية الأموى الملقب بالداخل من الأنتصار عليها فى موقعة المصارة الشهيرة ليقيم فى الأندلس إمارة أموية وعلى ذلك فإننا نرى أن الجائحة التى اجتاحت الأندلس فى أواخر عصر الولاة قد مهدت لانهاء عصر الولاة فى الأندلس ليبدأ فيه عصر جديد هو عصر الإمارة الأموية المستقلة فى قرطبة منذ سنة

١٣٨هـ . ومع أنه لم يصلنا من جوائح عصر الولاة إلا خبر هذه الجائحة فانها أمتدت (١٢٩ - ١٣٦) لتغطى نحو ربع السعة الزمنية لهذا العصر .

أما عصر الإمارة الذى امتد لما يزيد عن قرن وثلاثة أرباع القرن (١٣٨ - ٣١٦هـ) فلم يشهد من سنى الجوائح أو الشدائد الاقتصادية التى وردت إلينا أنباؤها إلا نحو ثمانية عشرة سنة ، فإذا كانت نسبة سنى الشدة إلى سنى الرخاء فى عصر الولاة ١: ٤ فإن نسبتها فى عصر الإمارة حوالى ١ : ١٠ ومعنى ذلك أن عصر الإمارة كان أكثر رخاء وأقل شدة من عصر الولاة ولابد أن لذلك أسبابه ، إذ أصبحت الحكومة الأندلسية أقوى سلطانًا وأكثر أصبحت الحكومة الأندلسية أقوى سلطانًا وأكثر استقرارًا ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى قوة الأمراء وقدرتهم على التصدى للثوار والمنتزين من ناحية ، وطول سنى حكمهم من ناحية أخرى ، إذ لم يحكم الأندلس طيلة عصر الإمارة إلا ثمانية أمراء فقط(٩٧) .

لم يخل حكم عبد الرحمن بن معاويه الداخل أول أمراء بنى أمية فى الأندلس من القلاقل السياسية والثورات التى اندلعت هنا وهناك ومع ذلك فإن المصادر التى وصلت إلينا لا تذكر شيئًا عن الشدائد الاقتصادية طيلة إمارة عبد الرحمن الداخل وإمارة إبنه هشام الرضا وأكثر من نصف إمارة الحكم بن هشام وهى فترة طويلة تمتد لنحو ستة عقود وهو أمر جدير بالملاحظة يبدو أنه راجع إلى تناقص أهل الأندلس من جراء جائحة نهاية عصر الولاة التى سبق ذكرها مما جعل الموارد الاقتصادية للأندلس فى أوائل عصر الإمارة تكفى الباقين من أهل الأندلس وتجنبهم شر الشدائد الاقتصادية رغم القلاقل السياسية ولعل حكومة عبد الرحمن الداخل القوية وحكومة إبنه هشام الرضا المحبوب قد اتخذتا من الإجر (٣) ما وقى أهل الأندلس من خطر الجوائح

وويلاتها ، ولكن المصادر سكتت عن ذكر تلك الإجراءات مثلما سكتت عن ذكر الجوائح فى تلك الفترة .

وأطلت الجوائح على الأندلس من جديد فى سنة ١٩٧ هـ فى إمارة الحكم الربضى ، إذ شهد الأندلس فى تلك السنة غلاء شديدًا(٩٨) يصف ابن فضل الله العمرى عواقبه الوخيمه على الأندلس بقوله " الشدة التى عمت أرض الأندلس أجمعها ومات منها أكثر الخلق وإجتاز بعضهم البحر إلى أرض العدوة لا نتجاع خصبها وارتجاع ما فاتها بأرض الأندلس من حدتها وكان المقلون يطوفون الأيام دون تعلل بطعام "(٩٩) .

وفى صدر أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم فى – سنة ٢٠٧ هـ حلت بالأندلس مجاعة شديدة كان سببها انتشار الجراد ولحسه الغلات وتردده بالجهات فنالت الناس المجاعة وغلت الأسعار غلاء شديدًا حتى بلغ سعر المد فى بعض النواحى ثلاثين دينارًا(١٠٠) فمات كثير من الخلق(١٠١) . ومن الغريب حقًا أن إمارة عبد الرحمن الأوسط – التى تعد من أزهى أيام المسلمين فى الأندلس – قد شهدت عدة جوائح اقتصادية ، ففضلاً عن مجاعة سنة ٢٠٧ هـ فقد تعرضت بلاد الأندلس لسيول عظيمة فى سنة ٢١٢ هـ تخرب بسببها أكثر أسوار مدن الثغور الأندلسية وتهدمت قنطرة سرقسطة التى كان المثل يضرب بروعة ومتانة بنيانها لكن حكومة عبد الرحمن الأوسط أصلحت ما تهدم(١٠٢) وفى سنة ٢٣٢ هـ وقعت بالأندلس مجاعة شديدة كان سببها قحط شديد عم بلاد الأندلس فهلكت المواشى ويبست الأشجار وأحترق الكروم ولم يزرع الناس وكثر الجراد فأتى على ما تبقى من الخضرة فازدادت المجاعة وضاقت بالناس المعيشة وتمادت المجاعة إلى العام التالى – ٢٣٣ هـ فهلك كثير من أهل الأندلس بعد أن عز القوت وغلت الأسعار غلاء شديدًا ولم يجد الناس أمامهم من سبيل لدفع غائلة الجوع إلا أن

يمتاروا من العدوة المغربيــة(١٠٣) . وفـى سـنة ٢٣٥ هـ اجتـاحت كثيرًا من نواحى الأندلس سيول عظيمة تخربت منها قنطرة أستجة وكثـير مـن الأرجـاء وستة عشرة قرية من قرى أشبيلية وكل المدن والقرى الواقعة بيـن حاضرتهـا والبحر وخرب نهر التاجه ثمانى عشرة قريـة وهلك فـى ذلك كلـه كثير من الناس والبهائم والمتاع(١٠٤) .

وفى إمارة محمد بن عبد الرحمن انقضت السنوات الأول بعد تولية سنة ٢٣٨ هـ دون أخبـار عـن جوائـح اقتصاديـة فـى الأندلس لكنهـا مـا لبثـت أن شهدت منذ سنة ٢٥١ هـ موجة عاتية من القحط الشديد توالت وتصاعدت فـى سنة ٢٥٣ هـ وازدادت تفاقما فى سنة ٢٥٤ هـ ثم فى سنة ٢٥٥ هـ ونتج عـن هذا القحط المتوالى مجاعة شديدة كانت تتمادى بتمادى القحط من سنة لأخرى واستسقى بالناس حينذاك قاضى الجماعة سليمان بـن أسـود وكـرر الاستسقاء عدة مرات حتى سقى الناس(١٠٥) ولعـل هـذه المجاعـة هـى التـى أشـار إليهـا الخشنى والتى كثر فيها تطاول الفسدة وأذن فيها لصاحب السـوق إبراهيم بـن حسين بن عاصم بإقامة حد الحرابة على من إشتبه فيه من الفسدة كما سبق أن ذكرنا وفى سنه ٢٦٠ هـ أصابت الأندلس مجاعـة شـديدة عمـت البـلاد ومـات فيها خلق كثير وجرى بشدتها المثل على ألسـنة النـاس زمنـا طويـلا(١٠٦) ثم تبعها غـلاء وطـاعون عظيم أفنـى خلقًا كثيرًا ، وزاد مـن قسـوة تلـك الشـدة الطاحنة أن أهل الأندلـس لـم يتمكنـوا مـن أن يمتـاروا هـذه المـرة مـن العـدوة المغربية ، إذ كانت مجاعة سنة ٢٦٠ هـ مسغبة عامة عانت منها بلدان كثـيرة من العالم الإسلامى ومنها بلاد المغرب ومصر والحجاز(١٠٧) .

وفـى إمـارة المنـذر بـن محمـد قصـيرة الأمـد (٢٧٣ – ٢٧٥) وقـع بالأندلس سنة ٢٧٤ هـ قحط شديد استسقى له الناس مرارًا حتى سـقوا بعـد أن أصابهم اليأس(١٠٨) وبعد خمس سنوات من تولى الأمير عبد الله بن محمد ،

عمت جميع بلاد الأندلس فى سنة ٢٨٠ هـ مجاعة شديدة ما لبثت أن تفاقمت حتى أكل الناس بعضهم بعضا – على حد تعبير ابن أبى زرع – وأعقب ذلك وباء شديد وموت كثير هلك فيه عدد لا يحصى من الناس حتى أنهم كانوا يدفنون من كثرتهم فى مقابر جماعية ، إذ يدفن فى القبر الواحد عدد من الموتى من غير غسل ولا صلاة لكثرة الوفيات ، ولم تقتصر تلك المجاعة القاسية على الأندلس بل امتدت إلى العدوة المغربية(١٠٩) . وبعد خمس سنوات أخرى – أى فى سنة ٢٨٥ هـ – شهدت بلاد الأندلس " الشدة التى عمتها المجاعة وعوت سعرها غلاء فأجحفت بالناس وشهر إسمها بسنة لم أظن(١١٠) وضرب بها المثل زمنا طويلاً(١١١) وفى سنة ٢٩٧ هـ وقعت بالأندلس مجاعة شديدة عمت البلاد ومات بسببها خلق كثير وعبر كثير منهم البحر إلى العدوة المغربية وجرى المثل بشدتها على الألسنة أيضًا فكان يقال لها سنة جوع جيان(١١٢) .

لا شك أن الجوائح الاقتصادية قد كثرت كثرة ملحوظة فى عهود محمد بن عبد الرحمن وولديه المنذر وعبد الله ، ولا شك أن تردى الأحوال السياسية ونشوب الفتنة الأندلسية الثانية فى أواخر عصر الإمارة كان وراء تفاقم الأوضاع الاقتصادية إذ تعطلت الجباية ونقصت الموارد فى الوقت الذى تزايد فيه تسيير الجيوش وتوجيه الحملات لمواجهة المتمردين والمنتزين فى مختلف نواحى الأندلس . وبلغت الفتنة من الخطورة ما جعل من تولى إمارة الأندلس عبئًا ثقيلا لذلك تولى الإمارة عبد الرحمن الثالث بعد جده عبد الله سنة ٣٠٠ هـ دون معارضة من أعمامه رغم صغر سنه ولم يمض عامان على تولية الإمارة الا وقد اجتاحت الأندلس فى سنة ٣٠٢ جائحة خطيرة قلما أصيب بمثيل لها ، وقد أمدنا كل من ابن حيان(١١٣) وابن عذارى(١١٤)

بوصف مسهب لتلك الحائجة لم يتوفر لنا مثلــه عن كثير مـن الجوائـح الأخرى ففى تلك السنة - ٣٠٢ هـ - أمحل الأندلس وتوالى القحط وعم البلاد فاستسقى بالناس الفقيه المشاور محمد بن عمر بن لبابـه صـاحب الصـلاة فـى قرطبة حينذاك وتكرر خروجه للسـقيا خمـس مـرات فلـم ينـزل الغيـث وغلـت الأسعار وقل ظهور الحنطة فى الأسواق ثم استسقى بالنـاس الفقيـه أحمـد بـن محمـد بـن زيـاد فـنزل بعـض الـرذاذ والنـدى لـم يغـن شـيئًا وزاد القحـط حـدة وتمادى ليشمل الأندلـس كلهـا : حواضرهـا وأطرافهـا وثغورهـا وازداد غـلاء الأسعار فى جميع جهاتها(١١٥) وحلت سنة ٣٠٣ هـ والمجاعة تتفـاقم والغـلاء يشتد وبلغت الحاجة بالناس مبلغًا عظيمًا لم يكن لهم بمثله عهـد مـن قبـل فبلـغ قفيز القمح بكيل سوق قرطبـة ثلاثـة دنـانير درهـم دخـل أربعين(١١٦) ووقـع الوباء فى الناس فكثر الموتان فى أهل الفاقة والحاجة حتى كاد أن يعجـز عـن دفنهم وكـثرت صدقـات الأمـير عبـد الرحمـن بـن محمـد (النـاصر) علـى المساكين وأهل الفاقة والمسـتضعفين الذيـن لا يسـألون النـاس واقتـدى بـه فـى تصدقه أهل الحسبة من رجاله وفى مقدمتهم حاجبـة بـدر بـن أحمـد فنفـع اللـه بصدقـاتهم كثيرًا مـن أهـل الفاقـة ، وقـد شـبهت المجاعـة فـى سـنة ٣٠٣ هــ بمجاعة سنة ٢٦٠ هـ التى كان يضرب بها المثـل ، آثـار سـيئة علـى حكومـة الأندلس التى أنهكتها المجاعـة وعطلـت جبايتهـا واسـتنفذت جـزاءًا كبـيرًا مـن مخزونهـا وطاقاتهـا وشـغلتها عـن الجهـاد وتجريـد الصـوائـف لمحاربـة العـدو الأسـبانى فـاكتفى عبـد الرحمـن الثـالث (النـاصر) عـامئذ بتحصيـن الثغـور وضبط الأطراف ومراقبة أهل الخلاف ، كمـا تسـببت المجاعـة والوبـاء الـذى أعقبها فى وفاة كثير من أعيان أهل الأندلس وعلمـائهم وخيـارهم(١١٧) فضـلا عن عامتهم وكان منهم على سبيل المثـال - أحمـد بـن بيطـير القرطبـى الـذى

كان فقيها مشاورًا فى الأحكام ، توفى فى الطاعون سنة ٣٠٣ هـ(١١٨) .
وفى سنة ٣١٤ هـ أصاب بلاد الأندلس قحط شديد ومحل عام فغلت الأسعار .

وضاقت بالناس المعيشة وتفاقمت الجائحة حتى أن عبد الرحمن الثالث ابن محمد لم يتمكن من الخروج للغزو فى تلك السنة بنفسه واكتفى بانفاذ صائفه يقودها الوزير عبد الحميد بن بسيل لمحاربة بنى ذى النون المارقين بالثغر فتمكن ابن بسيل من الإيقاع بهم . وتزايد القحط فاستسقى بالناس مرارًا أحمد بن بقى بن مخلد صاحب الصلاة حينذاك وأنفذ عبد الرحمن الثالث كتبا إلى نواحي الأندلس يأمر أهلها بالاستسقاء ففعلوا ذلك مرارًا حتى من الله عليهم بالغيث(١١٩) .

شهد عصر الخلافة الذى بدأ في سنة ٣١٦ هـ وامتد لقرن ونيف من الزمان عددا من الجوائح في نحو ثلاثة عشرة سنة تقريبًا أى أن نسبة سنى الشدة إلى سني الرخاء في هذا العصر حوالى ٨ : ١ بمعنى أن عصر الخلافة في الأندلس كان أقل رخاء من عصر الإمارة وعانى من الشدائد أكثر منه ويبدو أن العوامل الطبيعية كانت وراء معظم تلك الأزمات في أول ذلك العصر لكن العوامل البشرية عند نهايته كانت أكثر تأثيرًا بسبب القلاقل التى نجمت عن الفتنة المبيرة التي شهدتها نهاية عصر الخلافة .

ففى سنة ٣١٧ هـ ظهر القحط بالأندلس وعم المحل جميع النواحى فغلت الأسعار وضاقت بالناس سبل المعيشة فأمر الخليفة عبد الرحمن الناصر بالاستسقاء فاستسقى الناس مرارًا دون جدوى واستمر القحط حتى اتهم الناس أنفسهم وندمواعلى فعالهم وكتب الخليفة الناصر إلى جميع عمال الكور أن يستسقوا جمعيًا فى يوم واحد وعلى هيئة واحدة لكن السماء لم تستجب لهم وتكرر الاستسقاء حينًا فى جامع قرطبة وحينًا آخر فى مصلى الربض

أو مصلى المصارة(١٢٠) لكن السماء ظلت ممسكة عن الغوث زمنًا(١٢١) حتى ضاقت بالناس المعيشة وساءت أحوالهم . وفى سنة ٣٢٤ أمحلت بلاد الأندلس محلا عاما قلما شهدت له مثيلاً من قبل إذ ضنت السماء بمائها فلم تسقط قطرة واحدة منه طيلة العام(١٢٢) وزاد الطين بله فى قرطبة أن سوقها تعرض فى نفس العام لحريق هائل أتى على معظم السوق(١٢٣) فكان من المتوقع أن تنتاب البلاد جائحة حادة - كما هو المعتاد فى مثل هذه الأحوال - لكن ابن حيان يذكر - وهو يتعجب - أن الأسعار لم ترتفع بل بقيت النعم ظاهرة - على حد قوله - ووردت الأخبار من كل جهات الأندلس تتحدث عن الرخاء(١٢٤) واذا كنا نعجب مع ابن حيان لمثل هذه الأحوال غير المتوقعة بعد ذلك المحل العام فلا ينبغى أن نغفل عن اسبابها ، وأغلب الظن أن حكومة الخليفة الناصر كانت قد تمكنت حينذاك - بعد استقرار الأحوال السياسية فى الأندلس - من اتخاذ التدابير التى تدفع عن البلاد هول المجاعة وويلاتها غير أن هذه التدابير لم تمنع حدوث بعض الجوائح فى خلافة الناصر لدين الله . ففى سنة ٣٣٠هـ توقف نزول الغيث آخر شهر ديسمبر ٩٤٢م بنواحى قرطبة فأصابها قحط وجدب أدى إلى توقف الحرث ووجب الاستسقاء فاستسقى بالناس يومذاك قاضى الجماعة وصاحب الصلاة بقرطبة محمد بن عبد الله بن أبى عيسى لكن القحط تمادى فأدى ابن أبى عيسى صلاة الاستسقاء سبع مرات يبرز لها حينًا إلى مصلى المصارة وحينًا آخر إلى مصلى الربض حتى سقى الله الناس يوم السبت للبروز السابع الذى كان فى يوم الجمعة منتصف جمادى الأول ٣٣١هـ / الرابع من فبراير ٩٤٣م ونزل غيث مستمر روى الأرض وزرع الناس فانحطت الأسعار بعد ارتفاعها وانكشفت الغمة وارتفعت عن الناس الشدة(١٢٥) . وفى سنة ٣٣٢هـ وقعت

بقرطبة فى ليلة الاثنين لتسع خلون من ذى القعدة زلزلة عظيمة دامت ساعة بعد العشاء الآخرة وبلغت من القوة مالم يحدث له مثيل من قبل فى الأندلس ففزع الناس فزعًا شديدًا ولجأوا إلى المساجد يتضرعون إلى الله أن يكشف عنهم البلاء ثم هبت فى صبيحة اليوم التالى عاصفة عاتية

اقتلعت أشجار الزيتون والتين والنخيل وغيرها من الأشجار وأطاحت بأسقف المنازل وقتلت الوحش والطير والمواشى وأتلفت الزرع وأساءت التأثير(١٢٦) وهبت العواصف مرة أخرى فى مطلع سنة ٣٣٣هـ ونزل على نواحى قرطبة برد غليظ (١٢٧) وفى سنة ٣٣٤هـ حدث السيل العظيم بقرطبة فارتفع النهر عاليًا وهم جزء من القنطرة وثلم الرصيف(١٢٨) . وفى سنة ٣٣٥هـ حدث بقرطبة قحط شديد(١٢٩) ، ووقع بالأندلس سنة ٣٣٨هـ طاعون كان ممن توفى فيه الفقيه أحمد بن وهبه القرطبى الذى كان الخليفة الناصر قد ولاه أحكام القضاء بطليطة وتوفى فى هذا الطاعون أيضًا أحمد بن دحيم وكان على قضاء البيرة وبجاية وتوفى فيه أيضًا آخرون منهم أحمد بن عبد البربن يحى ومحمد بن عبد الله بن أبى دليم وإسماعيل بن ناصح المخزومى(١٣٠) ويشير كل من النباهى(١٣١) والمقرى(١٣٢) إلى قحط أصاب بلاد الأندلس أواخر خلافة الناصر فأمر الناصر قاضى الجماعة يومذاك منذر بن سعيد البلوطى أن يبرز إلى الاستسقاء فبرز فى جمع عظيم إلى مصلى الربض بينما صعد الخليفة الناصر ليشارف الناس ويشاركهم فى الضراعة إلى الله وقد لبس أخس الثياب وافترش التراب يرمد به على رأسه وعلى لحيته ويبكى ويعترف بذنوبه.

لكن هذه الجوائح العامة فى خلافة الناصر والتى كان معظمها فيما بين سنتى ٣٣٠-٣٣٨هـ / ٩٤٢-٩٥٠م لم تغض من شأن الاقتصاد الأندلسى فى

خلافة الناصر الطويلة (٣١٦-٣٥٠/ ٩٢٩-٩٦١) إذ كان الاقتصاد الأندلسى حينذاك فى أحسن حالاته وشهد الأندلس ما يسميه البعض بالثورة الزراعية(١٣٣) وبلغت جباية الأندلس بلغت فى عهده خمسة ملايين وأربعمائة ألف وثمانية آلاف دينار حصلت من الكور والقرى فضلاً عن سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار استخلصت من الأسواق(١٣٤) وهو مالم تصل إليه جباية الأندلس فى أى فترة أخرى من تاريخه الإسلامى .

تولى الحكم المستنصر الخلافة بعد وفاة أبيه الناصر فى رمضان سنة ٣٥٠هـ / أكتوبر ٩٦١م وورث أوضاعًا اقتصادية ممتازة ومع ذلك أطلت الشدائد برأسها من جديد فى سنة ٣٥٣هـ إذ تعرضت قرطبة لمجاعة عظيمة يبدو أنها كانت نتيجة قحط شديد ، يدل على ذلك أن المجاعة توقفت بنزول الغيث فى السنة التاليه وإذا كانت المصادر التى وصلت إلينا قد سكتت عن وصف تلك المجاعة وسوء تاثيرها على أهل الفاقة فإنها لم تسكت عن الإشادة بدور الحكم المستنصر فى اعانة ضعفاء الناس ومساكنهم بما يقيم أودهم وإنفاقه عليهم بكل ربض من أرباض قرطبة والزهراء(١٣٥) على النحو الذى يمكننا أن نعده استمرارًا للتدابير التى أشرنا إليها سابقًا فى خلافة أبيه الناصر.

ويبدو أن بلاد الأندلس قد شهدت شدة اقتصادية فى سنة ٣٦١هـ إذ غلا السعر فى هذه السنة(١٣٦) ويبدو أن ذلك كان ناجمًا عن بعض الظروف الطبيعية السيئة ، فقد حدثت زلزلة فى يوم الثلاثاء ٢٧ من صفر ثم أمطرت السماء مطرًا وابلا لنحو أسبوع من يوم الخميس ٢٩من صفر حتى يوم الأربعاء ٦ ربيع الأول وهاجت رياح شداد ثم عواصف نكباء شديدة الهبوب ثم انهمرت أمطار شديدة باردة ونزل الثلج بأقاليم قرطبة وكورها وزاد النهر(١٣٧) ويبدو أن ذلك قد أضر بالزرع مما سبب غلاء الأسعار المشار

إليه . وشهدت سنة ٣٦٢هـ ظروفًا جوية سيئة أيضًا ، ففى العاشر من جمادى الآخرة الموافق لمنتصف مارس هاجت رياح شديدة وأنواء غليظة متوالية أعقبها الغيث الذى روى به الثرى لكن الغيث أقصر على نحو خيف على الزرع منه ، فاستسقى الخطيب محمد بن اسحاق بجامع قرطبة والخطيب محمد بن يوسف قاضى قبرة بجامع الزهراء فاجتهدا فى الدعاء لكن القحط استمر ، ثم نزل فى ليلة الأحد ٧رجب بقرطبة وما يليها جليد أسود لمدة ثلاث ليال فساء تأثيره وامتد إلى بعض الكور القريبة من قرطبة فأحرق كثيرًا من الكروم وشجر التين وغيره ، وكان أكبر ضرره فى البطون والوهاد وعاود الخطيبان المذكوران الاستسقاء بالجامعين يوم الجمعة ١٢من رجب فلم تجد السماء بالسقيا حتى تفضل الله بالسقيا بعد ذلك واستنقذ الزرع برحمته(١٣٨) ويبدو أن ما نتج عن ذلك من هزة اقتصادية جعل الحكم المستنصر يخفف عن كاهل الناس بعض الإلتزامات المفروضة عليهم رفقًا بهم(١٣٩) . وعلى من حدوث بعض الأحوال الجوية السيئة فى سنة ٣٦٣هـ(١٤٠) وفى سنة ٣٦٤هـ(١٤١) إلا أنه لم تحدث فيها هزات اقتصادية ملحوظة وربما يرجع ذلك إلى نزول الغيث من جهة واهتمام الحكم المستنصر بالتخفيف عن رعيته من ناحية أخرى خاصة بعد اعتلاله فى سنة ٣٦٤هـ قبل عامين من وفاته سنة ٤٦٦هـ ، إذ قام الحكم المستنصر باسقاط سدس جميع مغرم الحشد عن جميع رعيته فى سنة ٣٦٤هـ(١٤٢) ويبدو أن عصر الحكم المستنصر كان كعصر أبية الناصر متميزًا بالرخاء وقلة الشدائد الاقتصادية الحادة .

لم تشهد اوائل خلافة هشام المؤيد بن الحكم المستنصر جوائح عامة جديرة بالذكر على الرغم من أنه كان غلامًا صغيرًا يمارس الأوصياء السلطة باسمه ثم انفرد المنصور محمد بن أبى عامر بالوصاية والسلطان وحجب

هشام المؤيد اسمًا وفعلاً حتى عرفت أيامه هو ونبيه من بعده بالدولة العامرية وقد أصابت الأندلس فيعهد المنصور بن أبى عامر بعض الشدائد الإقتصادية ففى أوائل أيامه حين كان محمد بن يبقى بن زرب قاضياً أصاب الأندلس محل شديد جعل القاضى ابن يبقى يبرز للاستسقاء عشر مرات حضر المنصور بن أبى عامر واحداً منها – على الأقل – وهو يرتدى ثياباً بيضاء وعلى رأسه أقرف وشئ أغبر على شكل أهل المصايب حسبما أشرنا من قبل لكن الغوث أبطأ على الناس مما أدى إلى هياج العامة(١٤٣) . وأصاب الأندلس أيضاً قحط شديد فارتفع السعر بقرطبة حتى بلغ ربع الدقيق دينارين وهو ما يعد غلاء فاحش آنذاك فضاقت بالناس المعيشة وجلا كثير منهم عن مواضعهم لولا أن نزل الغيث فى يوم كان المنصور بن أبى عامر قد أعد فيه صنيعاً لختان ابنه عبد الرحمن فاستبشر الناس وسر لذلك المنصور بن أبى عامر(١٤٤) .

دفعت تلك الجوائح الاقتصادية المنصور بن أبى عامر إلى اتخاذ تدابير لمواجهة مايجد منها فحرص على تخزين الأطعمة والمؤن حتى كان لديه فى سنة ٣٧٤هـ مخزون هائل منها يبلغ مائتى ألف مدى ونيف ، ويبدو أن المنصور اغتر يوماً بهذا المخزون الهائل الذى فى حوزته من الميرة وتوهم أنه أكبر من مخزون نبى الله يوسف عليه السلام الذى اختزنه بمصر لمواجهة السنوات السبع العجاف التى تنبأ بها لكن ابن أبى عامر ما لبث أن اكتشف خطأ توهمه إذ تعرضت بلاد الأندلس لعدد من السنوات العجاف أتت على مخزونه باتصال الانفاق وعدم الاغتلال ، وقد بدأت تلك السنوات العجاف بمجاعة فى سنة ٣٧٨هـ(١٤٥) ثم ازدادت فى العام التالى – ٣٧٩هـ – وتمادت بعد ذلك لنحو ثلاث سنوات حتى سنة ٣٨١هـ التى تفاقمت فيها الشدة الاقتصادية نتيجة لكثرة الجراد الذى عم الأندلس فى تلك السنة وسرح

بها ثلاث سنوات أخرى حتى سنة ٣٨٣هـ على الرغم من الجهود الكبيرة التى بذلها المنصور بن أبى عامر للحد من خطر ذلك الجراد حتى أنه استنفر الناس لجمعه وعقره ورصد لمن يقوم بذلك مكافآت سخية وأفرد لبيعه جانبًا من سوق قرطبة(١٤٦) ، وقد أدت تلك السنوات العجاف التى امتدت لنحو خمس سنوات إلى ازدياد حرص المنصور بن أبى عامر على زيادة مخزونه الاستراتيجى(١٤٧) .

يبدو أن التدابير التى اتخذها المنصور بن أبى عامر قد أتت أكلها بقية أيامه وأيام ابنه المظفر الذى وصفت أيامه بأنها كانت " أعيادًا فى الخصب والأمان دامت سبع سنين"(١٤٨) ، لكن الجوائح الاقتصادية أطلت برأسها من جديد على بلاد الأندلس على رأس القرن الخامس الهجرى نتيجة الأوضاع السياسية المتردية والفتنة التى اندلعت فى الأندلس منذ أيام شنجول بن المنصور بن أبىعامر وهى الفتنة الأندلسية الكبرى التى خلفت الأندلس أشلاء ممزقة فيما يعرف بدويلات الطوائف .

لم يقتصر ضرر الفتنة الأندلسية الكبرى على الأوضاع السياسية وإنما امتد ضررها إلى الأحوال الاقتصادية فى بلاد الأندلس ، فقد أهدرت مواردها وامكانياتها الاقتصادية وعطلت الحرث والزرع وخربت المزارع والبساتين فنزلت بالبلاد شدة اقتصادية عنيفة يصف ابن عذارى جانبًا منها بقوله " السعر كل يوم يزداد غلاء والأمر يتفاقم شدة والناس يتوهجون إلى السواحل والبوادى واشتد حال أهل قرطبة حتى أكل الناس من مذابح البقر والغنم وأكلوالميتة ، وكان قوم فى السجن فمات منهم رجل فأكلوه ومع هذه المحن فشرب الخمر ظاهرة الزنا مباح واللواط غير مستور ولا ترى إلا مجاهرًا بمعصيتة "(١٤٩) ويضيف ابن عذارى " وجاء عيد الفطر فلم يقدر أحد منهم

يخرج إلى المصلى وصلوا فى الجامع جزعا وخوفًا وعظم البلاء على أهل قرطبة ووقعت نار فى سوق الخشابين فأحرقت اسواق كثيرة ونهب العبيد ما لم تحرقة النار "(١٥٠) وزاد الطين بلة أن حدث فى سنة ٤٠١هـ سيل عظيم فاض منه نهر الوادى الكبير حتى هدم من أرباض قرطبة - وحدها- نحوا من ألفى دار وما لا يحصى من المساجدا والقناطر ردمًا وغرقًا وذهبت فيه امتعة الناس وأموالهم وهدم أكثر السور وردم كثير من الخندق(١٥١) . وفى نفس العام اجتاح قرطبة طاعون مات فيه أبو بكر بن حزم أخو أبى محمد على بن حزم الإمام الأندلسى المعروف(١٥٢) .

كانت الشدة الاقتصادية التى نزلت بالأندلس فى مطلع القرن الخامس الهجرى قبيل نهاية عصر الخلافة القرطبية شدة عنيفة تضافرت على احداثها عدد من العوامل البشرية والطبيعية - على نحو ما أشرنا - ولعله مما يدل على قسوتها تلك النتائج التى ترتبت عليها والتى يشير البكرى إلى جانب منها يخص قرطبة فيقول " عفت الفتنة التى كانت على رأس سنة أربعمائة من الهجرة واستمرت إلى وقتنا هذا وهو سنة ستين وأربعمائة أثار هذه القرى - قرى قرطبة - وغيرت رسوم ذلك العمران فصار أكثرها خلاء يندب ساكينه "(١٥٣) ويبكى ابن حزم قرطبة ودور أهله فيها والتى كانت ببلاط مغيث فى الجانب الغرب منها " فامحت رسومها وطمست اعلامها وخفيت معاهدها وغيرها البلى وصارت صحارى مجدية "(١٥٤) ويشير ابن بسام إلى أثرها فى خراب باجة على قدم بنائها قبل الفتح الإسلامى واتصال عمرانها بعده حتى خربتها الفتنة(١٥٥) .

هكذا كانت الجوانح الاقتصادية فى بلاد الأندلس حتى نهاية عصر الخلافة وإذا كانت اسبابها قد تعددت وتنوعت ما بين طبيعية وبشرية فقد

تعددت أيضًا نتائجها وتنوعت ما بين اجتماعية وسياسية وثقافية فقد أدت المجاعات وما اعقبها من أوبئة إلى هلاك الناس(١٥٦) وقلة سكان الأندلس حتى خف سكان الأندلس فى بعض الاحيان(١٥٧) مما كان يضعف قدرات الأندلس الدافعية وأوقف تسيير الجيوش لردع المنتزين(١٥٨) وأدت الجوائح إلى اهتمام الحكومة الأندلسية ببناء الاهراء السلطانية لتخزين الغلال خدمة للأغراض السلطانية مثلما بنى الأمير محمد بن عبد الرحمن أهراء حصن استيرش لغلال مدينة سالم(١٥٩) التى كانت حينذاك قاعدة تمركز الجيوش الأندلسية للدفاع عن الثغر الأندلسى . وكان توالى سقوط الامطار وغزارتها يعطل الخدمة الادارية ويعوق رجال الادارة عن اداء مهامهم كما كان تفاقم الغلاء والمجاعة يؤدى إلى زيادة نشاط الفسدة والمجرمين(١٦٠) الذين لا يرتدعون إلا إذا كانت قبضة الحكومة قوية . وكان للجوائح أيضًا آثار فقهية مثل ظهور سنة تحويل الأردية فى الاستسقاء الذى صاحبه جدل فقهى لم يحسم إلا بعد أن أكد شيوخ المالكية شيوع هذه السنة فى المشرق الإسلامى(١٦١) وفضلاً عن هذا فقد امتدت نتائج الجوائح إلى الناحية الثقافية اذ وصلتنا بعض النماذج الادبية التى يصف بعضها "صفة المطر بعد القحط"(١٦٢) أو يكنى بعضها عن الكرم بالغيث بعد المحل(١٦٣) . وعلى الرغم من هذه النتائج فإن الجوائح الاقتصادية لا يمكنها النيل من الصورة المشرقة للازدهار الذى كان عليه الاقتصاد الأندلسى خاصة فى الفترة المشار إليها منذ الفتح الإسلامى حتى نهاية عصر الخلافة .

هوامش البحث

(١) انظر على سبيل المثال : ابن حوقل : صورة الأرض ، ص١٠٤ والزهرى : الجغرافية ، ص٨٠ ، والحميرى : الروض المعطار ، مادة أندلس ، وأبو حامد الغرناطى : تحفة الألباب ، ص ٢٠٠ ، والمقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ١٢٧ ، ص١٤٠ ، ص١٨٧ ، ص١٩٣ ، ص١٩٩ وابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار (مخطوط) ، السفر الثانى ، ص ١٩ .

(٢) مثل الشاعر ابن خفاجة الأندلسى إذ أنشد :

يا أهل أندلس لله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار

ماجنة الخلد إلا فى دياركم ولو خيرت هذه كنت أختار

(ديوان ابن خفاجة الأندلسى ، وأحمد مختار العبادى : الزراعة فى الأندلس وتراثها العلمى ، ندوة الإسكندرية /١٩٩٤ ، ص١٠٧) .

ومثل الشاعر ابن سفير المرينى يجعل من الأندلس روضة الدنيا إذ أنشد :

فى أرض أندلس تلتذ نعماء ولايفارق فيها القلب سراء

وليس فى غيرها بالعيش منتفع ولا يقوم بحق الانس صهباء :

فيها خلعت عذارى ما بها عوض فهى الرياض وكل الأرض صحراء

(عبد الله أنيس الطباع : القطوف اليانعة ، ص٣٠٣) .

(٣) Leavi - provencal : Histoire de l'Espagne Musulmane,Tom .3 Paris 1967 p.p 233-324.& Emilio Mitre del la Espana medieval Madreed 1997,pp 69-70.&Luis Sourez Fernandez
Historia des Espana , Antiguay Medie. Madrid 1967 p.p292-301

(٤) لسان العرب ، ماده جوح .

(٥) لسان العرب : مادة جوح والمالقى ، والأحكام ص ٣١٦ .

وقد جاء فى سنن أبى داود (باب فى تفسير الجائحة) أن الجوائح كل ظاهر مفسد من مطر أو برد أو جراد أو ريح أو حريق .

(•) القحط : احتباس المطر .

(••) الصر : شدة البرد .

(°) الضبابات : من ضبته الشمس والنار أى لفحته ولوحته وأحرقته .

(°°) القمل : قملة الزرع دويبة تطير كالجراد فى حلقه الحلم . ومثل القملشىء يقع فى الزراع ليس بجراد فيأكل السنبله وهى عفنه قبل أن تخرج فيطول الزرع ولا سنبل له .

(°°°) من هذه البهائم الوحشية كانت القنبليات أى الأرانب البرية وقد كانت ايبيريا معروفة قديمًا بأرض الأرانب .

(٦) أبو الخير الأشبيلى كتاب الفلاحة ص ٦٢ .

(٧) ابن العطار : الوثائق والسجلات مدريد / ١٩٨٣ ص٤٠٣ .

(٨) ابن سهل وثائق فى شئون الحسية فى الأندلس ص ٧٣ .

(٩) ابن العطار : المصدر السابق ، ص ٣٨٤ - ٣٩٠ .

(°) السرقة المشار إليها عند ابن العطار هى السرقة فى الثمرة لكن المالقى (الأحكام ص ١٧٧) يفيد أن سرقة الدراهم نازلة ومن ثم فهى تدخل فى باب الحوائج الفردية.

(١٠) ابن سهل : المصدر السابق ص٦٣ .

(١١) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٢٩ .

(١٢) العذرى : نصوص عن الأندلس ، ص ١١٨ .

المحل : الجدب وهو انقطاع المطر وهو أيضًا الشدة والجوع الشديد .

(١٣) المقرى : نفخ الطيب ، جـ ١ص ١٣٢ .

(١٤) ابن عثمان الكناسى : الأكسير فى أفتكاك الأسير ، ص٣١ .

(°) البعل : الأرض المرتفعة لايصيبها مطر إلا مرة واحدة فى السنة .

وقيل : الأرض لايصيبها سيح ولا سيل . وقيل البعل : كل شجر أو زرع لا يسقى .

(١٥) كولان : الأندلس ، (كتب دائرة المعارف الإسلامية) ، بيروت / ١٩٨٠ ص٦٤ .

(١٦) نفس المرجع ، ص ٩٩ .

(١٧) ابو الخير الأشبيلى : المصدر السابق ، ص ٣٨ .

(١٨) ابن العطار : المصدر السابق ، ص ٣٧٩ .

(١٩) نفس المصدر ص ٣٨١ .

(٢٠) ابن عبدون رسالة فى القضاء والحسبة ص ٥ .

(٢١) الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٢٧ وعياض : ترتيب المدارك ، جـ ١ص ٣٥٠ .

يبدو أن أهل الأندلس قد استهجنوا فى البداية - وعلى رأسهم صاحب الصلاة بقرطبة وقتذاك المصعب بن عمران - تحويل الرداء فى الاستسقاء ولكن فقهاء المالكية الأندلسيين الذين خرجوا إلى المشرق بعد زيادشطون قد عادوا ليؤكدوا لأهل الأندلس شيوع هذه السنه فى المشرق وكان منهم يحيى بن يحيى الليثى الذى ذكر أنه وجد سنة تحويل الأردية كان لأخذهم إياها معروفة فاشية فى المشرق ويبدو أن اعتداد المدنيين بسنة تحويل الأردية كان لأخذهم اياها عن حديث عبد الله بن زيد المازنى الانصارى الذى انفرد به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما روى فى صحيح البخارى (جـ١ ص١٢٤ وسنن جـ١ ص٣٦٠ وسنن النسائى جـ٣ ص١٦٣) .

(*) كانت هذه الهيئة مستحبة فى الاستسقاء بالأندلس انظر عن ذلك .

النباهى : المرقبة العليا ص٧٠ وقارنه بما جاء عن صلاة الاستسقاء لدى الغزالى (احياء علوم الدين) جـ١ ، ص٢٣٩ .

(٢٢) المقرى : نفح الطيب جـ ٢ص١٠٨ - ١٠٩ .

(*) كان البياض لباس الحزن فى الأندلس .

(**) النباهى : المصدر السابق ، ص ٧٩ .

(٢٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٢ ص٣٨ ، وابن الأثير : الكامل جـ٥ ص٤٩٢ .

(٢٤) ابن حيان : المصدر السابق ص٢٣١ ، ص٣٢٤ .

(٢٥) ابن عذارى : المصدر السابق جـ٢ ص١١٩ .

(٢٦) نفس المصدر جـ٢ ص١٦٦ وابن حيان : المقتبس ، نشر شالميتا جـ٥ ص٦٧ .

(٢٧) ابن عذارى : المصدر السابق جـ٢ ص٢٥٩ .

(٢٨) نفس المصدر ، جـ٢ ص٧٠ وابن الأثير الكامل ، جـ٦ ص١٦٢ .

(٢٩) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق مكى ص١ وابن عذارى المصدر السابق جـ٢ ص٨٩ . وابن الأثير الكامل جـ٧ ص٣٥ وابن أبى زرع الانيس المطرب برفض القرطاس ص٩٦ .

(٣٠) ابن حيان : المصدر السابق ص٢٣١ ، ص٣٢٤ .

(٣١) بوتشيس : المرجع السابق ص١١ .

نقلاً عن ابن عاصم : جنة الرضى فى التسليم لما قدر الله ورضى ، مخطوط ص٧٩ .

(٣٢) ابن حيان : المقتبس ، نشر مكى ، ص٥ .

(٣٣) ابن عذارى : المصدر السابق جـ٣ ص١٠٥ .

(٣٤) ابن العوام : الفلاحة ، جـ١ ص٥٩٧ .

(٣٥) كولان المرجع السابق ص٦٥ .

(٣٦) حسين مؤنس فجر الأندلس ص٥٩١ – ٥٩٢ .

(37) Dozy; Supplement aux dictionnaries arabes. Beyrouth 1968 pp. 664-665 & Levi - provencal Espagne musulmane aux eme Siecle. Paris 1932 p. 166.

(٣٨) حسين مؤنس : رحلة الأندلس ص٢٧٧ – ٢٧٨ .

(٣٩) المالقى : الأحكام ص١٢٢ .

(٤٠) ابن العطار : المرجع السابق ص٣٩١ ، ٤٠١ .

(٤١) ابن حيان : المقتبس ، نشر الحجى ص١٥٤ وابن عذارى : المصدر السابق جـ٣ ص٣١١ .

(٤٢) ابن العطار : المصدر السابق ، ص٣٨٤ – ٣٨٥ .

(٤٣) ابن عذارى : المصدر السابق جـ٣ ص٣١١ .

(٤٤) ابن العطار : المصدر السابق – ص٣٨٤ – ٣٨٥ .

(٤٥) نفس المصدر ص٣٩٧ ، ٣٩٩ .

(٤٦) العذرى : المصدر السابق ، ص٨

(٤٧) ابن رشد : الآثار العلوية ، ص٤٤ .

(*) يقسم أبو الخير الأشبيلى (ص٧٠) الجراد إلى نوعين : دراج وطائر .

(٤٨) ابن حيان : المقتبس ، نشر مكى ، ص٩٣ .

(٤٩) نفس المصدر، ص١ .

(٥٠) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس ، ص٩٦ .

(٥١) نفس المصدر ، ص٢ .

(٥٢) العذرى : المصدر السابق ، ص٢ .

والقزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ص٥٥٦ تبدو أن الطلاسم كان معتدًا بها فى الأندلس فقد أشار أبو الخير الأشبيلى فى عدة مواضع (ص٥٠ ، ص٦٨) إلى الطلاسم كوسيلة للحفاظ على الغراسات .

(٥٢) ابن العطار المصدر السابق ص٣٨٢ – ٣٩٩ .

(٥٣) ابو الخير الأشبيلى ، المصدر السابق ، ص٦٦٥ .

(٥٤) نفس المصدر ، ص٦٣ وما بعدها .

(٥٥) ابن العوام : المصدر السابق ص ٦٢٩.

(٥٦) البيان المغرب جـ٢ ص٣٧ .

(٥٧) عياض : ترتيب المدارك ، جـ٢ ص١٦١ .

(٥٨) ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ص٣٩٦ .

(٥٩) المالقى : الأحكام ص٢٩٢ .

(٦٠) نصوص عن الأندلس ، ص٢ .

(٦١) آثار البلاد وأخبار العباد ، ص٥٥٦ .

(٦٢) حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص٣٤٧ .

(٦٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٢ ص٣٧ .

(٦٤) أخبار مجموعة : ص ٦١ – ٦٢ .

ومحمد بن شريفه : مقدمة كتاب أمثال العوام فى الأندلس للزجالى ص ١٥٨ .

(٦٥) ابن عذارى : المصدر السابق جـ٢ ، ص١٢١ .

(٦٦) ابن أبى زرع : المصدر السابق ص١١٦ .

(٦٧) البيان المغرب ، جـ٣ ص١٠٥ .

(٦٨) ابن العطار ، المصدر السابق ، ص٣٨٥ – ٣٨٧ .

(٦٩) ابن سهل : وثائق فى شئون الحسبة ص٦٢ .

(٧٠) ابن حيان : المقتبس ، نشر شالميتا ، جـ٥ ص٩٤ .

(٧١) نفس المصدر جـ٥ ص٢٥٩ .

يبدو أن احتراق دار البريد فى هذا الحريق جعل الخليفة الحكم المستنصر يوافق لاحقًا على نقل دار البرد إلى المصارة بطرف قرطبة والسماح للبزازين بإقامة حوانيت لهم فى موضعها لتوسيع سوقهم بعد شكواهم من ضيقها (المقتبس ، نشر مكى ، ص٦٦)

(٧٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص١٢٣ وابن حيان : المقتبس تحقيق إسماعيل العربى ص١٥٤ .

(٧٣) هذه الأبيات هى :

إن تـرد المـال فإنـى امـرؤ   لم أجمـع المـال ولـم أكسـب
اذا أخـذت الحـق منـى فـلا   تلتمـس الربح ولا ترغـب
قـد أحسـن الله إلينـا معـا   أن كان رأس المـال لم يذهب

(٧٤) المطرب من أشعار أهل المغرب ، ص١٢٨ .

(٧٥) ابن حيان : المقتبس ، نشر مكى ، ص١٢٧ وابن القوطية : المصدر السابق ص١٠٠ .

(٧٦) الخشنى : قضاة قرطبة ، ص١٠٣ .

(٧٧) ابن حيان : المصدر السابق ، ص٩٣ .

(٧٨) نفس المصدر ، ص٢٧٣ .

(٧٩) تاريخ افتتاح الأندلس ، ص١٠٠ .

(٨٠) ابن حيان : المصدر السابق ، ص٣٤٣ .

(٨١) ابن الخطيب : اعمال الأعلام ، ص٩٩ .

(٨٢) المالقى : الأحكام ص١٢٤ .

(٨٣) ابن العوام : الفلاحة جـ١ ص٦٦٠ .

(٨٤) نفس المصدر جـ١ ص٦٧٨ .

(٨٥) أبو الخير الأشبيلى : الفلاحة ص١٧٨ وما بعدها .

(٨٦) ابن حيان : المصدر السابق ص٢١٢ .

(٨٧) عياض : ترتيب المدارك جـ٢ ص١٦١ .

(٨٨) العذرى : نصوص عن الأندلس ، ص٨٦ .

(٨٩) ابن بشكوال : الصلة ، جـ٢ ص٥٤٩ .

(٩٠) ابن سهل : المصدر السابق ، ص٦٢ .

(٩١) ابن عذارى : المصدر السابق جـ٢ ص٣٧ .

(٩٢) نفس المصدر : جـ٢ ص٣٨ وأخبار مجموعة ص٦١ وابن الأثير : الكامل جـ٥ ص٤٩٢

(٩٣) أخبار مجموعة ، ص٧٨ .

(٩٤) أخبار مجموعة ص٦٢ وحسين مؤنس : المرجع السابق ص ٣٤٧ .

(٩٥) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٤٢ .

(٩٦) نفس المصدر ، جـ٢ ، ص٣٧ .

(٩٧) هم : عبد الرحمن بن معاوية الداخل ثم ابنه هشام الرضا ثم ابنه الحكم بن هشام ثم ابنه عبد الرحمن بن الحكم ثم ابنه محمد بن عبد الرحمن ثم ابنه المنذر بن محمد ثم أخيه عبد الله بن محمد ثم حفيدة عبد الرحمن الثالث بن محمد بن عبد الله .

(٩٨) المقرى . نفح الطيب جـ١ ص٣١٩ .

(٩٩) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، جـ٤ ص٣١٣ .

(١٠٠) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ٦ ص٣٨٤ .

(١٠١) ابن حيان : المقتبس تحقيق مكى ، ص٩٣ وابن عذارى : المصدر السابق ، جـ٢ص٨١ .

(١٠٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ٦ ص٤٠٨ .

(١٠٣) ابن حيان : المصدر السابق ص٦ وابن عذارى : المصدر السابق جـ٢ ص٨٩ وابن الأثير : المصدر السابق ، جـ٧ ص٣٥ وابن أبى زرع : المصدر السابق ، ٩٦ .

(١٠٤) ابن حيان : المصدر السابق ، ص٥ وابن عذارى : المصدر السابق جـ٢ ص٨٩ وابن الأثير : المصدر السابق ، جـ٧ ص٥١ .

(١٠٥) ابن حيان : المصدر السابق ، ص٢٣١ ، ص٣٢٤ ، وابن عذارى : المصدر السابق ، جـ٢ ص١٠٠ وابن أبى زرع : المصدر السابق ، ص٩٦ .

(١٠٦) ابن حيان : المصدر السابق ، ص٣٤٣ ، وابن عذارى : المصدر السابق جـ٢ ص١٠٢

(١٠٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ٧ ص٢٧٣ وابن أبى زرع : المصدر السابق ، ص٩٦ .

(١٠٨) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ٢ ص١١٩ .

(١٠٩) ابن أبى زرع : المصدر السابق ، ص٩٧ .

(١١٠) ابن حيان المقتبس تحقيق إسماعيل العربى ، ص١٠٥ .

(١١١) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص١٣٩ . محمد بن شريفة : المرجع السابق ، ص١٠٨ .

(١١٢) ابن حيان المصدر السابق ص١٦٨ ومحمد بن شريفة المرجع السابق ص١٠٩ .

(١١٣) المقتبس ، جـ٥ ، نشر شالميتا ، ص٦٧ .

(١١٤) البيان المغرب ، جـ٢ ص١٦٦ .

(١١٥) البيان المغرب ، جـ ٢ ص١٦٦ .

(١١٦) يذهب كل من ميلز فى كتابة سكة الأمويين فى الأندلس وجوايتاين فى كتابه مجتمع البحر المتوسط ، إلى أن الدينار كان يساوى فى العادة ٤٠ درهما وهو الأمر الذى يتفق مع ذكره ابن حيان وابن عذارى عن أن دينار قرطبة دخل أربعين درهما ، ويذهب ابن العطار (المصدر السابق ، ص٩) إلى ان معنى دراهم دخل أربعين " اختصار لفهم السامع والحقيقة أن تقول دخل أربعين ومائة فى مائة كيل " وأصل ذلك أن الدراهم كانت تجرى بالأندلس والمشرق وفى مصدر الإسلام كيل الدرهم درهم وخمسان ودراهمنا مجموعة فى الوزن تراطل منها مائة وأربعون درهما درهم كيلا فلذلك اختصر وقيل دخل أربعين " .

(١١٧) ابن حيان المصدر السابق ، جـ٥ ص٧١ وابن عذارى : المصدر السابق ، جـ٢ ص١٦٧ – ١٧٨ .

(١١٨) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، جـ١ ص٧٨ .

(١١٩) ابن حيان : المصدر السابق جـ٥ ص١٣٤ وابن عذارى : المصدر السابق جـ٢ ص١٩١ .

(١٢٠) كان بروز أهل قرطبة لصلاة الاستسقاء إلى مصلى المصارة أصلاً لكن نصر الخصى أثير الأمير عبد الرحمن الأوسط صرفهم عن مصلى المصارة إلى مصلى لقربه من قصره ، فلما هلك نصر الخصى كتب الفقيه عبد الملك بن حبيب إلى عبد الرحمن الأوسط بأن مصلى المصارة هو الأصل وأن البروز إليه أسهل على الناس وأصون لهم فأخذ عبد الرحمن الأوسط برأى عبد الملك بن حبيب وصرف صلاة الاستسقاء عن مصلى الربض إلى مصلى المصارة (ابن حيان المقتبس ، نشر مكى ، ص٤٠٦) لكن أهل قرطبة فيما يبدو صاروا يتبادلون البروز إلى المصليين .

(١٢١) ابن خيان : المقتبس ، نشر شالميتا ، جـ٥ ص١٦٥ وابن عذارى : المصدر السابق جـ٢ ص١٩٩ .

(١٢٢) ابن حيان : المصدر السابق ، جـ٥ ص٢٥٩ .

(١٢٣) ابن حيان : المصدر السابق ، جـ ٥ ص٢٥٩ .

(١٢٤) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(١٢٥) نفس المصدر ، جـ٥ ص٣٣١ .

(١٢٦) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ٢ ص٣١٢ .

(١٢٧) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(١٢٨) نفس المصدر ، جـ٢ ص٢١٣ .

(١٢٩) نفس المصدر جـ٢ ص٢١٤ .

(١٣٠) عياض ، ترتيب المدارك جـ٢ ص٤٢ .

(١٣١) المرقبة العليا ، ص٧٠ .

(١٣٢) نفح الطيب ، جـ٢ ص١٠٨ .

(١٣٣) محمد حناوى : الأدوات الفلاحيـة الأندلسـية ، مجلـة الاجتهـاد عـدد ٣٤ – ٣٥ (١٩٩٧) ص ١٠١ – ١١٧ .

(١٣٤) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ٢ ص٢٣١ .

(١٣٥) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ٢ ص٢٣١ .

(١٣٦) ابن حيان : المصدر السابق ، تحقيق الحجى ، ص١١٤ .

(١٣٧) نفس المصدر ، ص٦٦ .

(١٣٨) نفس المصدر ، ص ١٠٠ – ١٠١ .

(١٣٩) نفس المصدر ، ص ١٠١ .

(١٤٠) نفس المصدر ، ص١١٥ ، ص١٤٥ .

(١٤١) نفس المصدر ، ص ٢٠٢ .

(١٤٢) نفس المصدر ص٢٠٧ .

(١٤٣) النباهى المراقبة العليا ، ص٤٨ .

(١٤٤) ابن بسام : الذخيرة ، قسم ٤ ، ص٤٦ .

(١٤٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص٩٩ .

(١٤٦) ابن أبى زرع : المصدر السابق ، ص١٥٥ .

(١٤٧) ابن الخطيب : المصدر السابق ص٩٩ .

(١٤٨) عبد الواحد المركشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ص٤٠ .

(١٤٩) البيان المغرب ، جـ٣ ص١٠٦ .

(١٥٠) نفس المصدر ، جـ٣ ص١٠٧ .

(١٥١) نفس المصدر ، جـ٣ ص١٠٥ .

(١٥٢) ابن حزم : طوق الحمامة ص١١٧ .

(١٥٣) جغرافية الأندلس وأوربا ، ص١٠٥ - ١٠٦

(١٥٤) ابن حزم : المصدر السابق ص٩٤ .

(١٥٥) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول ، جـ١ ص١٩ .

(١٥٦) ابن حيان : المقتبس نشر مكى ، ص٥ .

(١٥٧) أخبار مجموعة ص٦١ .

(١٥٨) ابن حيان : المصدر السابق ، ص٧ .

(١٥٩) نفس المصدر ص١٣٢ .

(١٦٠) الخشنى : المصدر السابق ، ص١٠٣ .

(١٦١) نفس المصدر ، ص٢٧ .

(١٦٢) ابن بسام : الذخيرة ، جـ١ ص٢٨٩ ، ص٣٤٢ .

(١٦٣) نفس المصدر ، جـ ٢/ ٢ص ٥٥١ - ٥٥٢ .

مراجع البحث

١ - **ابن أبى زرع :**

" الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس " الرباط ١٩٧٢

٢ - **ابن الأثير :** أبو الحسن على بن أحمد بن أبى الكرم

" الكامل فى التاريخ " بيروت / ب. ت

٣ - **ابن بسام :** أبو الحسن على

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة

تحقيق / إحسان عباس بيروت ١٩٨١

٤ - **ابن بشكوال :** أبو القاسم خلف بن عبد الملك

الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس القاهرة / ١٩٦٦

٥ - **البكرى :** أبو عبد الله بن عبد العزيز

جغرافية الأندلس وأوربا

تحقيق / عبد الرحمن الحجى بيروت ١٩٦٨ .

٦ - **بوتشيس :** إبراهيم القادرى

أثر الأقطاع فى تاريخ الأندلس السياسى من منتصف القرن الثانى الهجرى حتى ظهور الخلافة الرباط / ١٩٩٢

٧ - **ابن حزم :** أبو محمد على بن أحمد

طوق الحمامة فى الألفة والألاف

تحقيق حسن كامل الصيرفى القاهرة / ١٩٦٤

٨ - **حسين مؤنس :**

- فجر الأندلس مدريد / ١٩٥٩

- معالم تاريخ المغرب والأندلس القاهرة / ١٩٨٠
- رحلة الأندلس القاهرة / ١٩٦٣

٩ - **الحميرى** : محمد بن عبد المنعم
الروض المعطار فى خبر الأقطار
تحقيق إحسان عباس بيروت / ١٩٧٥

١٠ - **ابن حيان** : أبو مروان حيان بن خلف القرطبى
- المقتبس من أنباء أهل الأندلس -
تحقيق محمود مكى بيروت / ١٩٧٣
- المقتبس فى أخبار بلد الأندلس
تحقيق عبد الرحمن الحجى بيروت / ١٩٧٣
- المقتبس جـ٥ -
تحقيق / شالمينا وزملائه - مدريد / ١٩٧٩
- المقتبس فى تاريخ الأندلس
تحقيق إسماعيل العربى الدار البيضاء / ١٩٩٠

١١ - الخشنى أبو عبد الله محمد بن حارث أسد القيروانى
قضاة قرطبة القاهرة / ١٩٩٦

١٢ - **ابن الخطيب** : لسان الدين
أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام
جـ٣ تحقيق / ليفى بروفنسال القاهرة / ١٩٦٦

١٣ - **أبو الخير الأشبيلى** :
كتاب الفلاحة
تحقيق جوليا . م . كاربازا مدريد / ١٩٩١

١٤ - **ابن دحية** : أبو الخطاب عمر بن الحسن

المطرب من أشعار أهل المغرب
تحقيق / مصطفى عوض الكريم الخرطوم / ١٩٥٤

١٥ - **ابن رشد :**
الآثار العلوية
تحقيق سهير أبو وافية وسعاد عبد الرزاق القاهرة / ١٩٩٤

١٦ - **ابن سعيد** : على بن موسى
المغرب فى حلى المغرب
تحقيق / شوقى ضيف القاهرة / ١٩٥٣

١٧ - **ابن سهل** : القاضى أبو الأصبغ عيسى الأسدى
وثائق فى شئون الحسبة (مستخرج من الأحكام الكبرى)
دراسة وتحقيق محمد عبد الوهاب خلاف القاهرة / ١٩٨٥

١٨ - **السيد عبد العزيز سالم :**
تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس بيروت / ١٩٦١

١٩ - **عبد الله أنيس الطباع :**
القطوف اليانعة من ثمار جنة الأندلس الإسلامى الدانية
بيروت / ١٩٨٦

٢٠ - **عبد الواحد المراكشى** : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب
تحقيق / محمد سعيد العريان وزميله القاهرة / ١٩٤٩

٢١ - **ابن عبدون** : محمد بن أحمد التجيبى
رسالة فى الحسبة (من ثلاث رسائل أندلسية)
تحقيق ليفى بروفنسال القاهرة ١٩٩٥

٢٢ - **ابن عثمان المكناسى** : أبو عبد الله محمد ين عبد الوهاب
الاكسير فى افتكاك الأسير
تحقيق / محمد الفاسى الرباط / ١٩٦٥

٢٣ - **ابن عذارى المراكشى :**
البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب
تحقيق / كولان وليفى بروفنسال بيروت عن ليدن / ١٩٤٨
٢٤ - **العذرى :** أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس الدلائى
نصوص عن الأندلس
تحقيق / عبد العزيز الأهوانى مدريد / ١٩٦٥
٢٥ - **ابن العوام :** أبو زكريا يحيى بن محمد أحمد الأشبيلى الفلاحة
نشره وترجمه إلى الأسبانية Don. Josef Antonio Banqueri
٢٦ - **عياض :** القاضى أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبى
ترتيب المدارك وتقريب المسالك
تحقيق أحمد بكير محمود بيروت / ١٩٦٧
٢٧ - **الغزالى :** أبو حامد
أحياء علوم الدين
٢٨ - **الغرناطى :** أبو حامد محمد بن عبد الرحيم الأندلس
تحفة الألباب
تحقيق / جبريل فران المجلة الأسيوية / ١٩٢٥
٢٩ - **ابن العطار :** محمد بن أحمد الأموى
كتاب الوثائق والسجلات ، تحقيق شالميتا وكورنيطى
مدريد / ١٩٨٣
٣٠ - **ابن الفرضى :** أبو الوليد عبد الله محمد
تاريخ علماء الأندلس القاهرة / ١٩٦٦
٣١ - **ابن فضل الله العمرى :** شهاب الدين أحمد بن يحيى
مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار

- السفر الثانى ، مصورة عن خطية يازمة باغشلار رقم ٢٢٢٧ / ١٥ - السلمانية / استانبول - السفر الرابع ، مصورة عن خطية أحمد الثالث رقم ٢٧٩٩٧ / ١٥ - طوبقابى سراى / استابنول

٣٢ - **القزوينى** : زكريا بن محمد بن محمود

آثار البلاد وأخبار العياد بيروت / ب . ت

٣٣ - **ابن القوطية** : أبو بكر محمد بن عمر

تاريخ إفتتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الإبيارى

بيروت / ١٩٨٢

٣٤- ٣٣ - كولان :

الأندلس (كتب دار المعارف الاسلامية . ٢)

بيروت / ١٩٨٠

٣٥ - **المالقى** : أبو المطرف عبد الرحمن بن قاسم الشعبى

الأحكام ، تحقيق الصادق الحلوى بيروت / ١٩٩٢

٣٦ - **مجهول** :

أخبار مجموعة فى فتح الأندلس

تحقيق إبراهيم الأبيارى القاهرة / ١٩٨١

٣٧ - **محمد حناوى** :

الأدوات الفلاحية الأندلسية من خلال المصادر " كتب الفلاحة نموذجاً "

مجلة الإجهاد عدد ٣٤ - ٣٥ (١٩٩٧) ص ص١٠١ - ١١٧

٣٨ - **محمد بن شريفه** :

مقدمة كتاب أمثال العوام للزجالى فاس / ١٩٧٥

٣٩ - **المقرى** : شهاب الدين أحمد بن محمد التلمسانى

نفح من غصن الأندلس الرطيب

تحقيق / محمد البقاعى بيروت / ١٩٨٦

٤٠ - **ابن منظور : جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم**

لسان العرب بيروت / ١٩٨٦

٤١ - **النباهى : أبو الحسن على بن عبد الله**

المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا بيروت / ب . ت

42- Dozy, (R.),
Supplement aux dictionnaires arabes, Beyrouth 1968.

43- EMILIO MITRE,
La Espana medieval sociedades, culture, Madrid 1979.

44- Levi provencal,
--- Histoire de,l Espagne Musulmane Tom3. Paris 1967.
--- L Espagne musulmane aux X eme siecle. Paris 1967.

45- Luis Suarez F ernandez:
Historia de Espana, Antigua y M edia. Madrid, 1976.

جوانب من حياة المرأة
فى العصر المغولى

د . محمد حسن عبد الكريم العمادى
د . نعمان محمود أحمد جبران
كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية - جامعة قطر

مقدمة :

لقد حظى المغول وتاريخهم باهتمامات الدارسين فى حقب التاريخ المختلفة وجاء معظم هذا الاهتمام منصبًا على تتبع التاريخ المغولى منذ أن كانوا قبائل غارقة فى حياة البداوة إلى أن أصبحوا فى مرحلة سادة لإمبراطورية من أكبر إمبراطوريات العالم أقاموها بقوة الحديد والنار ، ولذا كان التركيز فى الدراسات التى تطرقت إليها تاريخهم يتمحور على دراسات عامة وأخرى تفصيلية للجوانب السياسية والعسكرية ومن يستطلع ما كتب عن هؤلاء المغول فى مراحل تاريخهم المختلفة يجد أن هناك أمورًا أغفلت أوتم التطرق إليها عرضًا ومن هذه الأمور ما يتعلق بالحياة الدينية وتطور مفهوم المغول للدين وتعدد الديانات فى المجتمع المغولى ، والأهم من ذلك أن الناحية الدينية لم ينظر إليها من زاوية التوظيف السياسى الذى جاء مترافقًا مع حال التبدل السياسى والعسكرى . ومن الأمور الهامة التى لم تحظ بالقدر الكافى من التركيز - على أهميتها - ما تعلق بالحياة الاجتماعية بشكل عام ودور المرأة فى هذا المجتمع بشكل خاص .

وانطلاقًا من ذلك سيحاول هذا البحث تتبع حياة المرأة ومشاركتها فى التاريخ المغولى من خلال تتبع أدوارها فى جوانب الحياة المختلفة . ضمن مراحل تطور المجتمع المغولى .

وعليه لابد- الحديث عن أدوارها - من الإشارة على أن الحياة الاجتماعية للمغول تقوم على أسس النظام القبلى ، حيث القبيلة هى المحور الاجتماعى والسياسى ، فرئيس القبيلة ومجلس القبيلة القوريلتاى(١) يوكل إليها بحث وتسيير المجتمع القبلى من حالات الزواج وإلى إعلان الحرب ، أى أن اختصاصاته تشمل الجوانب الاجتماعية وما يتعلق بها من أمور اقتصادية ، كما يشمل الأمور السياسية السيادية بما فيها الأمور العسكرية ، وأيا كان هذا الدور المنوط بمجلس القبيلة القوريلتاى . فإن له مساسًا بحياة المرأة والأهم من ذلك أن المرأة كانت مشاركة فيه(٢) .

وبعد هذا التقديم المبسط يجد الباحث - الذى يبغى معرفة دور المرأة فى المجتمع المغولى - نفسه أمام مجموعة من الأسئلة الهامة والتى من خلال الإجابة عليها يتحدد إطار البحث ومفهومه ، ، ومن هذه الأسئلة . هل المقصود الحديث عن دور المرأة ومكانها فى المجتمع المغولى حيث كان مجتمعًا بدويًا غارقًا فى بداوته قوام حياته الارتحال والصراع بين القبائل المختلفة ؟ أم المقصود الإشارة إلى مكانة المرأة ودورها فى مجتمع مغولى موحد بعد أن أصبحت القبائل تشكل كتلة سياسية قادت إلى دولة مغولية مركزية تتبعها دول مغولية فرعية ؟ وحينها يقفز إلى ذهن الباحث سؤال ارتكازى على ما سبق وهو هل المقصود أن يتبع الباحث دور المرأة فى الدولة المغولية المركزية " كدولة المغول فى الصين " ومن ثم يجعل ذلك مقياسه للحديث عن دور المرأة وأهميتها فى مجتمع مغول ايلخانية فارس(٣) أم دولة مغول القفجاق(٤) أى مغول القبيلة الذهبية ؟ وأخر الأسئلة وأهمها يجد الباحث نفسه مواجهًا لها ، هل المقصود بالمرأة المغولية - التى نتحدث عن دورها فى الحياة - المرأة التى تعيش فى مجتمع الدولة المغولية بالمفهوم السياسى

الذى ضم أعراقًا وأديانًا مختلفة ، أم أن الأمر مقتصر على المرأة المغولية - مغولية الأصل - بغض النظر أعاشت فى مجتمع قبلى أم فى مجتمع متمدين ؟

إن البحث سيقصر الحديث والتتبع لدور المرأة المغولية بما تعنيه المغولية من الانتساب لقبيلة مغولية الأصل ، وإن كان المغول كرجال يمكن لهم أن يتزوجوا من نساء غير مغوليات فحينها سيشار لدور مثل هؤلاء النساء مع التمييز بين المكانة للمرأة المغولية الجنس أو المرأة المغولية الإنتماء لقبيلة مغولية زواجًا مع أن أصولها غير مغولية ، وسيحاول هذا البحث التطرف لأهمية المرأة ومشاركتها من خلال استعراض جوانب الحياة المختلفة .

الدور السياسى :

لقد ظهر المغول على المسرح السياسى كقوة بعد أن تمكن تيموجين (جنكيز خان) من توحيد شتات القبائل المغولية تحت زعامته(٥) ومنذ هذه اللحظة أخذت القوة المغولية تلعب دورًا متعدد الأوجه على صعيد السياسة خارج الإطار الجغرافى للقبائل المغولية ورغم تعقد مثل هذا الدور والإتساع الجغرافى لدولة المغول إلا أن أصولاً بدوية كانت لا تزال ظاهرة للعيان فى السياسة المغولية ، وبدا واضحًا لمتتبع التاريخ المغولى مدى الدور الذى بقيت تلعبه أسرة جنكيزخان ، ويفهم من هذا الدور أنه لم يكن قاصرًا على الرجال حيث نجد مشاركة المرأة فى قضايا سياسية فى حياة الدولة المغولية .

ففى عام ٦٣٩هـ / ١٢٤١م وبعد وفاة الحاكم المغولى أوكتاى (٦٢٧ / ٦٣٩هـ - ١٢٢٩ - ١٢٤١م) اتفق أمراء المغول(٦) على أن تتولى تصريف شئون الإمبراطورية المغولية زوجة الحاكم المغولى المتوفى الملكة توراكينا وأن تكون هذه الولاية خلال الفترة الفاصلة بين وفاة الحاكم وانعقاد

القوريلتاى الذى يتولى شئون الانتخاب والتصديق على الانتخاب للحاكم الجديد، ومن تتبع هذه الحالة نجد أن أمور البلاد سياسيًا وعسكريًا تكون تحت إمرة الملكة ، وقد استمر هذا الأمر لمدة ثلاث سنوات كانت خلالها هى المسئولة عن تصريف شئون البلاد وبعد أن اعتذر الحاكم الجديد المنتخب من قبل مجلس القوريلتاى وهو كيوك خان(٧) عادت لتقوم بنفس الدور السابق ، ثم كان اجتماع مجلس القوريلتاى فى عام ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م حيث أجمع الحضور على اختيار كيوك خانا ، فقبله بشرط أن يكون الحكم وراثيًا فى سلالته ، وظل يشغل هذا المنصب حتى وافاه الأجل المحتوم فى ٩ ربيع الثانى سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م ، أما والدته " توراكينا خاتون " فقد توفيت قبله بعدة أشهر "(٨) .

كذلك الحال نجد امرأة أخرى هى أرملة كيوك خان تقوم بتدبير شئون الدولة المغولية بعد وفاة زوجها وفى هذه الحالة كانت المرأة المعنية هى أوغول غايميش(٩) ومن هاتين الحالتين يمكن القول أن هذا الأمر جاء وفق تقاليد المغول ولم يكن هذا يتم بسهولة ويسر أو إقرار من قبل الجميع به حيث كان يلاحظ أن بعض الأمراء يتصرفون فى مناطق حكمهم بوحى واجتهاد شخصى غير عابئين بقرارات أو حقوق تقررها زوجة الخان المتوفى(١٠) .

وإذا كان للمرأة المغولية مثل هذا الدور بعد وفاة زوجها إلا أن ذلك لم يكن مانعًا من أنها لعبت دورًا سياسيًا بشكل مباشر وغير مباشر أثناء حياة الزوج الحاكم ، ومثل هذا الدور كان يلقى فى بعض الأحيان المعارضة والاستهجان وكدليل على مثل هذا الأمر نجد إشارة تعود إلى زمن الحاكم المغولى جغتاى (ت ٦٣٨هـ / ١٢٤١م) حيث كان الحاكم يناقش فكرة مع وزيره وتدخلت زوجة جغتاى فى النقاش والحوار مما أثار حنق الوزير الذى صرخ بها قائلاً : " إنك سيدة ولا يجوز لك الكلام فى هذا الموضوع "(١١) .

ورغم أن المصدر لم يصرح بطبيعة الموضوع الذى كان مدار النقاش إلا أن ما يعنينا أن دور المرأة ليس دورًا بلا حدود . وهنا يثور التساؤل عن الحدود التى لا يجوز للمرأة المغولية تجاوزها . مما قد يفهم منه أن دور المرأة يكون أقوى فى الأمور السياسية بعد وفاة زوجها . ويمكن أيضًا التخمين بأن دور المرأة سياسيًا تحدده اعتبارات عدة منها كون هذه المرأة مغولية الأصل بشكل عام أو مغولية الأصل من الفرع الحاكم أو مكانتها فى سلم تعدد الزوجات للحاكم المغولى من ناحية الترتيب لزوجاته . وقد يكون أمر عدم رضا البعض عن تحكم المرأة فى الحياة السياسية نابعًا من تسلط هذه المرأة وجبروتها أو وصولها إلى الحكم بحيل سياسية دونما استشارة للأمراء أو لتصرفها بشكل يوقع العقوبة بعدد من الموظفين كما كان الحال فى فترة تسلم توراكينا خاتون للحكم(١٢) .

ومن خلال تتبع التطور السياسى للدولة المغولية نجد أن المرأة المغولية حين تتسلم زمام الأمور لا يقتصر دورها على تصريف الشئون الداخلية للدولة بل نجدها مشاركة فاعلة فى السياسة الخارجية فهى تستقبل وفود الدول الأخرى وتبعث برسائل للحكام خارج نطاق السيطرة السياسية لدولة المغول فبعد وفاة منكوقاآن (٦٤٩ - ٦٥٨هـ / ١٢٥١ - ١٢٥٩م) نجد أن زوجته والتى تعود أصولها إلى قبيلة الكرايت المغولية قد استقبلت وفدًا أوربيًا بزعامة أندور لونجمو كما استقبلت وفد حاكم فرنسا لودفيج التاسع سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م(١٣) .

وكاعتراف من المغول بأهمية رأى المرأة فى القضايا السياسية نجد أن الحاكم المغولى باتو (ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) حين رأى تعيين منكوقاآن كحاكم للمغول بادر باستشارة مجموعة من النساء المغوليات حيث أرسل

الرسل إلى زوجات جنكيزخان وأوكتاى وأبنائه وإلى سيورقوقيتى زوجة تولى ويقول فى رسائله " إن منكوقاآن هو من بين الأمراء الأنجال وقد رأى بعينه قوانين جنكيزخان ومراسيمه ... والحكمة تقتضى أن نجلس على عرش القاآنية "(١٤) .

وفى الإطار نفسه نجد أن المرأة المغولية كانت تقرر من هو الأفضل للحكم ويمكنها أن تضع شروطًا لترجيح كفة مرشح على الآخر ومثال ذلك أنه بعد وفاة قوبيلاى قاآن (٦٩٣هـ / ١٢٣٩م) ظلت زوجته كوكجين خاتون تصرف مهام الحكم لمدة عام حتى قدم تيمور قاآن لتسلم الحكم ولكن خلافًا وقع بينه وبين أحد إخوانه مما استدعى تدخل كوكجين فى هذا الأمر وكان رأيها ما صرحت به كحل للخلاف بقولها : " كل من يعرف حكم جنكيزخان ونصائحه الغالية على نحو أفضل يجلس على العرش ... والآن فليذكر كل واحد منكما هذه الحكم حتى يرى الحاضرون أيكما يتفوق على الآخر "(١٥) .

ومن مثل هذه القضايا يمكننا فهم رسالة منكو قاآن (٦٤٩- ٦٥٨هـ / ١٢٥١ - ١٢٥٩م) إلى هولاكو خان (٦٥٤ - ٦٦٤هـ / ١٢٥٦ - ١٢٦٥م) حيث يورد فيها : " وشاور دوقوز خاتون فى جميع القضايا والشئون "(١٦) .

كما يمكننا إرجاع مثل هذا الدور إلى الفترات المبكرة للتاريخ المغولى حيث يشير كتاب التاريخ السرى للمغول (جانو بى شى) فى فقرات مختلفة منه على دور هام لزوجة جنكيزخان (بند ١٥٤ و٢٥٤و ٢٥٦)(١٧) .

واستمر هذا الدور لنساء حكام المغول ولكنه مختلف من امرأة إلى أخرى بحسب حظوتها ومركزها عند الحكام ، وقد أشار ابن

بطوطة إلى مراتب النساء عند حكام المغول وما يتبع ذلك من تأثير على دورها السياسى[١٨] .

ومن الأدوار الأخرى ذات الطابع السياسى ما قد تقوم به المرأة المغولية من محاولات للتخلص من الحكام أو مؤازرة مرشح للحكم وينبؤنا التاريخ السياسى للمغول بمثل هذه الحالات فيشير الدوادارى إلى تآمر زوجة خدابنده (٧١٣ - ٧١٦هـ / ١٣١٣ - ١٣١٦م) مع الوزراء للتخلص منه[١٩] . وفى نفس السياق عملت أم جانى بك أخو أزبك على تغيير وراثة الحكم من تين بك Tini - Beg إلى أخيه جانى Chani Beg (٧٤٣ - ٧٥٩هـ/ ١٣٤٢ - ١٣٥٧م)[٢٠] .

وهناك ملاحظات متفرقة تشير إلى أمور ذات طابع سياسى عسكرى كان للمرأة المغولية دور فيها . حيث قد تستخدم المرأة ضمن معادلة الزواج السياسى لكسب الأنصار أو تحسين العلاقات مع القوى المختلفة كما هو الحال حيث وافق الحاكم أزبك سنة ٧١٧هـ / ١٣١٧م على خطوبة أخته لأحد أمراء الروس[٢١] أو كما حصل من تزويج أميرة مغولية لأحد حكام دولة المماليك فى مصر[٢٢] .

وشعورًا من القوى السياسية المختلفة فى الدولة المغولية لدور المرأة حرص البعض على الاستفادة من هذا الأمر لتحقيق مكاسب سياسية فحسين جلائرى تمكن من أن يصبح حاكمًا على خراسان نتيجة زواجه من أميرة مغولية هى أولجنتاى ابنة أورغون خان[٢٣] وزوجة كيخاتو خان (٦٩٠ - ٦٩٥هـ / ١٢٩١ - ١٢٩٥م) منحت والدها رتبة أمير الأمراء نظرًا لمكانتها وحظوتها عند زوجها[٢٤] ، وكان بعض الأمراء الثائرين إذا ما أرادوا ضمانًا ونجاحًا لثورتهم من الحصول على دعم بعض الخواتين ذوات النفوذ والتأثير. وحين قام الشيخ حسن الكبير مؤسس دولة الجلائريين بثورته عمل عام

٧٣٦هـ / ١٣٣٥م للحصول على موافقة الخاتون ساتى بك ابنة أولجايتو وأخت أبى سعيد التى دعمته مما سهل عليه الأمور(٢٥) ، كما أن هذه الخاتون قد تولت السلطة عام ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م . ويزداد دور الخواتين سياسيًا فى حالة الضعف والارتباك الذى يصيب الدولة حيث قد يرفضن ما قد يوافق عليه مجلس القوريلتاى كما حصل بعد وفاة أبى سعيد سنة ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م، حيث رفضن تعيين الحاكم أرباخان وشكلن حركة معارضة كانت كفيلة بالقضاء عليه وعلى وزيره(٢٦) وكان باستطاعة بعض الخواتين أن يصدرن مراسيم رسمية تحمل اسمهن(٢٧) .

ورغم تعدد أوجه الدور السياسى للمرأة المغولية فإن هذا الدور لم يكن ليحظى برضا الجميع فى الأوقات المختلفة ونجد أن البعض يرى دور المرأة يجب أن يكون مقتصرًا على جوانب معينة من الحياة ، فحين تصرفت قوتولون جغان ابنه قايدو فى شئون سياسية وعسكرية كان رأى المعارضين لذلك يتمثل فى قولهم : " أولى لك أن تشتغلى بالمقص والإبرة فما شأنك بالملك والرعية "(٢٨) .

الدور العسكرى :

لقد أسهبت الدراسات التى تناولت تاريخ المغول بالحديث عن الحياة العسكرية لهذا الشعب وعزت الكثير من أمجاده القبلية وتوسعاته – حين شكل إمبراطورية عظمى – إلى الجيش المغولى وأعداده الوافرة وأساليبه القتالية وتسليحه .

ولقد أعطى هذا المجتمع المغولى للمرأة حظها فى الحياة العكسرية بحيث لم يعد دورها مقتصرًا على تربية الأولاد وإدارة شئون البيت بل شاركت فى أوجه نشاط مختلفة ذات طبيعة عسكرية . ومن هذه الجوانب

أن المرأة كانت تتولى أمر الدفاع عن بيتها أثناء غياب الرجل سواء غيابه فى رحلات الصيد الشتوية أو فى غزواته ، ولتحقيق هذه المهمة كان لابد للمرأة من التدري على أساليب قتالية(٢٩) على أن هذا الدور لم يقتصر على مجرد حماية البيت ومشتملاته أثناء غياب الرجل بل تعداه إلى المشاركة فى الحروب الخارجية ، ومن المصادر المختلفة نستطيع تبيان الجوانب العسكرية فى حديث والدة جنكيزخان ، وخاصة حين اعترضتها صعاب تمثلت بخروج العديد من القبائل عن طاعتها ، ولم تعد تمتلك إلا تربية أبنائها الخمسة وأربعة رؤوس من الخيل ، وحينها قالت لأولادها : " ليس لنا سوط سوى ذيول خيولنا ولا معين إلا ظلها "(٣٠) . وإن كان هذا القول لا ينم عن دور عسكرى بارز إلا أنه يشير من ناحية أخرى إلى توجيه فيه الروح العسكرية القتالية .

ونلمح أيضًا وإدراكا من المجتمع المغولى لدور المرأة عسكريًا أنها إلى جانب نفوذها السياسى تحصل على قسم من الجيش خاص بها ، فعند جنكيزخان وتقسيم تركته بما فيها الجيش كان نصيب والدته من هذا الجيش ٣٠٠٠ عسكرى(٣١) ويشير شبولر إلى أن النساء المغوليات كن يخدمن فى الجيش كقوات احتياطية ويحفظن فى عربات خاصة بالمعسكرات ولكنهن فى حالات الطوارئ كن يشتركن فى القتال(٣٢) بل إن هناك إشارات فى المصادر المغولية إلى تدريب النساء على الشئون العكسرية ، فها هى ابنة قايدو المسماه قوتولون جغان تسلك سلوك البنين وتحارب مرات عدة فى القوات غير النظامية (جريك)(٣٣) ولا يمكن أن يكون مثل هذا الأمر يتم إلا بعد تدريبات خاصة ، وهناك إشارات إلى أن النساء المغوليات كن يركبن الخيول كالرجال وكن يستعملن الأقواس والسهام ويقدرن نتيجة ذلك على البقاء على

ظهور الخيل زمنًا طويلاً ، ويذهبن مع الرجال إلى القتـال(٣٤) . وربمـا رجـع مثل هذا الأمر إلى قوانين الياسا(٣٥) التى ألزمت النساء وخاصة نساء العسكر على القيام بما على الرجال مـن السخر والكلف فـى مدة غياب الرجال فـى ميادين القتال أو الصيد(٣٦) وهذا الأمر هو الذى جعل شبولر يقول : " الفتيات المغوليات يشبهن الفتيان فـى التدريب وركوب الخيل "(٣٧) ويبدو أن هـذا الأمر كـان يشمل العنصر النسائى المغولى من جميع الطبقات حيث تـرد إشارات إلـى عادة انتشرت فـى معسكرات الجيش المغولى وهـى أن نسـاء الوزراء العظام كان يعملن فى معسكرات الجيش(٣٨) .

وبلغ الأمر ببعض النساء المغوليات اللواتى لعبن دورًا سياسيًا أن يلعبن دورًا عسكريًا هامًا تمثل فى قيادتها للجيوش واحتلالها للمدن ، وهذا مـا جعل دور بعضهن يتعدى مجرد الخدمة كاحتياطى فى الجيش ، فعنـد احتـلال نيسابور ٦١٨هـ / ١٢٢١م دخلت زوجة طغاجار هذه المدينة وهى تقود عشرة آلاف عسكرى وتمكنت من احتلالها وقامت بأعمال القتل والنهب ليس بأقل مما كان يقوم به القادة الرجال من العسكريين ، ويفيد ذلك أن بعضهن قد تولين قيادة تومان(٣٩) ولكن هذا الأمر كان استثنائيًا وفـى هذه الحالة انتقامًا لزوجها الذى قتل وهو على حصار المدينة(٤٠) .

وبلغت شهرة النساء والمشاركة فـى الحياة العسكرية حدًا كبيرًا جعل المؤرخ المسلم ابن الأثير يقول عـن النسـاء المغوليـات إنهـن محاربـات ممتازات، ولكن يتلثمن حتى لا يعرفن بأنهن نساء(٤١) وابن عربشاه يشير إلى مشاركة المرأة فـى غزو بغداد(٤٢) بل والإمكانية واردة من حيث تستغل المرأة نفوذها السياسى وخطوتها عند زوجها لإصدار الأوامر إلـى القوى العسكرية ، حيث أصدرت دوقوز خاتون زوجة هولاكوخان مرسومًا للجيش

المغولى الذى دخل بغداد عاصمة الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م بعد التعرض للمسيحيين ، مما جنب المسيحيين المظالم التى وقعت على الفئات الأخرى من سكان بغداد(٤٣) .

ومما هو جدير ذكره أن دور المرأة العسكرية يبدو أكثر وضوحًا فى حالة الحرب التى تعيشها الدولة ويتضاءل هذا الدور فى حالات السلم والاستقرار ، لتجد مجالاً لنفوذها فى المجالات السياسية والاجتماعية ، ولعل ذلك ما يفسر قلة المعلومات فى المصادر عن أدوار عسكرية للمرأة فى زمن دولة ايلخانية فارس ودولة مغول القبيلة الذهبية حين قلت حروبها الخارجية ووصلت دولهم إلى أقصى اتساعاتها ولكن هذا الدور يعود ليظهر مجددًا فى عهد الدول الجلائريين(٤٤) وبالذات فى عهد السلطان الشيخ حسن وهجومه على بغداد سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م حيث يظهر مشاركة المرأة وبيان دورها(٤٥) .

وكذلك الحال للدور الذى لعبته دوندى خاتون سواء فى مقاومة القوى التركمانية أو فى محاولاتها لتوسيع حدود الدولة عن طريق القوة العسكرية(٤٦) .

وأيًا كانت الأدوار التى لعبتها المرأة فى الدولة المغولية على الصعيد العسكرى فإن هناك مسارين مختلفين فنساء المغول كأفراد كن يعملن كاحتياطيات فى الجيش وربما قمن بأعمال عسكرية غير مباشرة من حيث إعداد لوازم العسكريين ، فى حين أن المسار الآخر كان لنساء حكام المغول أو بناتهم واللواتى تولين زمام القيادة أحيانًا وإصدار الأوامر فى أحايين أخرى.

ولكن هذه الأدوار كانت متناسبة مع النفوذ السياسى الذى حظيت به المرأة المغولية الأرستقراطية من الطبقة الحاكمة ، على أن هذا الدور

العكسرى الذى اعتبر منافسًا أو مكملاً لدور الرجال لاقى بعض المعارضات من قوى مغولية .

الديانة :

يمكننا القول على أن ديانة المرأة المغولية هى ديانة المجتمع المغولى الذى عاشت فى كنفه ، وديانة المغول هى الديانة الشامانية(٤٧) وكان للمرأة المغولية دور هام فى طقوس هذه الديانة فى مجتمعها ، ولكن المجتمع المغولى شهد انتشار عدد من الديانات الأخرى والتى أثرت فى المجتمع إما عن طريق غزوهم لمناطق ذات ديانات مختلفة وتأثرهم بها أو نتيجة المصاهرة فى أقوام لهم ديانات أخرى ، وهنا كان للمرأة المغولية الدور الأكبر فى المجال الدينى وبالعموم فإن الديانة البوذية والمسيحية والإسلامية قد لاقت رواجًا متفاوتًا فىالمجتمع المغولى وفق مراحل تطوره.

وما يهمنا هنا هو أن نتتبع سيرة عدد من الخواتين المغوليات لرصد دورهن فى الحياة الدينية ، مع التأكد على أن هذا الدور جاء مترافقًا لدورها فى المجالات السياسية والعسكرية التى سبق الحديث عنها .

وبالعودة إلى تاريخ المغول قبل أن تتشكل دولتهم فى عهد جنكيزخان نجد أن للمرأة دورًا يصل إلى حد القدسية كما هو واضح فى سيرة حياة جدة جنكيزخان وهى (الان قوا) والتى حملت بعد وفاة زوجها ، مما أثار التساؤلات حول سلوكياتها ولكنها استطاعت إقناع الآخرين بأن حملها تم عن طريق إلهى نورانى عبر شعاع الشمس ، وبذلك حازت على القدسية بدلاً من العقاب ، وجعل هذا الحادث نسلها من بعدها يسمون النوارنيون أو أبناء الشمس ، ورغم غرابة هذه الحادثة إلا أنها لها مدلولاً دينيًا كان أساسه تصرفات المرأة وبقى مرافقًا لحياة المغول بعد ذلك(٤٨) ، وأصبحت المرأة

المغولية مشاركة بشكل فعال فى الطقوس الدينية وخاصة ما يتعلق منها بالموت أو فى حالات البرق والرعد(٤٩) ، كما شاركت فى الصلوات الخاصة وتقديم القرابين للإلهة(٥٠) .

وبعد أن بدا توسع الدولة المغولية التى أساسها جنكيزخان نجد أن عددًا من حكام المغول يتزوجون من نساء مسيحيات على المذهب النسطورى وخاصة من قبيلة الكرايت(٥١) ، وحينها وجدنا أن المرأة المغولية يمكن أن تكون ديانتها مخالفة لديانة زوجها بل ونجد أن المرأة قادرة على التأثير بحيث أن أبناءها فى حالات كثيرة يدينون بديانتها وليس بديانة الأب .

فهولاكوخان (٦٥٤ - ٦٦٣هـ / ١٢٥٦ - ١٢٦٥م) كان يدين بالديانة البوذية ولكن زوجته دوقوز خاتون كانت تدين بالديانة المسيحية . وقد استغلت هذه الديانة فى أن تشمل برعايتها أتباع الديانة المسيحية فى المناطق التى خضعت لسيطرة هولاكوخان ، كما حصل عندما سيطر هولاكوخان على عاصمة الخلافة العباسية بغداد(٥٢) ، كما أن أحمد تكودار (٦٨١ - ٦٨٣هـ/ ١٢٨٢ - ١٢٨٤م) قد اعتنق الديانة المسيحية فى صغره ، وأخذ اسم نيقولا وتم تعميده بناء على رغبة والدته التى تدين بالديانة المسيحية على الرغم من أن والده كان يدين بالديانة البوذية(٥٣) وكذلك الحال نجد أن المرأة المغولية والتى اعتنقت الإسلام قد أثرت كتأثير النساء المغوليات ذوات الديانة المسيحية ، فلدينا إشارات على أن الزوج قد يتأثر بعقيدة الزوجة حيث تشير الروايات التاريخية(٥٤) بل وهناك النساء المغوليات المسلمات من وقفن ضد عمليات التبشير المسيحى، فيذكر توماس أرنولد نقلاً عن روبروك أحد المبشرين بالمسيحية أن أحد قادة المغول لم يجرؤ على التعميد لأنه كان لابد أن يأخذ رأى زوجته والتى أشارت عليه بغير ذلك فوافقها على رأيها(٥٥) .

وهناك مجموعة من النساء المغوليات المسلمات ساهمن في جوانب اجتماعية وثقافية هامة ، ولدينا إشارات عن والدة الشيخ حسن (٧٣٦ – ٧٥٧هـ/١٣٣٥ – ١٣٥٦م) التى قامت بالإنفاق على بناء المدرسة المرجانية(٥٦) وكذلك المدرسة الأيكجية في بغداد والتى قامت بالإنفاق على بنائها إحدى النساء المغوليات المسلمات(٥٧) ، وكذلك الحال كان مع سيورقوقيتى زوجة تولى خان (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) والتى كان لها الدور الأكبر في بناء إحدى المدارس في بخارى على نفقتها ووقفت عليها أوقافًا كبيرة(٥٨) .

المرأة المغولية والزواج :

تشير المصادر التى تتحدث عن تاريخ المغول إلى قضايا لها مساس بالعادات الاجتماعية وخاصة ما تعلق بالزواج ، فيشير خواندمير على أن الحاكم المغولى كان يؤمن بتعدد الزوجات(٥٩) وسبق أن أشرنا عند الحديث من الدور السياسى للمرأة بأن زوجات الخان كان على مراتب مختلفة بحسب تقدير الخان لهن ، وما يتبع ذلك من نتائج بما تنجبه هذه الزوجة من الأبناء .

وكان الزواج عند حكام المغول يأخذ أبعادًا سياسية سبق أن أشرنا إليها كما أن الحاكم المغولى كان يتزوج من بنات أو أخوات حكام آخرين لتوثيق عرى العلاقات السياسية والعسكرية ، وكان الحاكم المغولى أيضًا يلجأ إلى الزواج من زوجة خصمه العسكرى زيادة في إذلاله(٦٠).

كما كان للمغول رسوم خاصة فيما يتعلق بالخطبة والزواج ومن ذلك أن الرجل المغولى كان عليه أن يقيم في بيت خطيبته طول فترة الخطبة وحتى تتم مراسيم الزواج ، وقد جرى مثل ذلك لجنكيزخان حيث خطب له والده بورتا ابنة دانى ساجان(٦١) وكذلك كان المغول يختبرون الزوج

والزوجة فى حفلات الزواج إذ كانت الخطيبة تهرب وتحاول الاختفاء وعلى الزوج أن يبحث عنها بكل ما أوتى من قوة ليعيدها وبالقوة إلى الخيمة(٦٢) . ويمكن للفرد المغولى وخاصة الذين يتمتعون بمنزلة سياسية وعسكرية هامة أن يمارس حياة جنسية بعيدة عن الزواج الدائم الذى سبق الإشارة إليه ، وذلك بأن يعاشر امرأة بطريق سرى وإذا ما حصل نتيجة هذه المعاشرة حملاً أو شك الرجل بإمكان الحمل فإنه يلجأ إلى التفرق بين المرأة التى عاشرها وزوجها لحين الوضع ومثال ذلك ما حصل مع الأمير بورى بن مواتوكان بن جغتاى الذى عاشر إحدى نساء " الوزراء العظام " الذى فرق بينها وبين زوجها إلى أن وضعت وبعد ذلك أعادها إلى زوجها(٦٣) .

ومن عادات المغول فى الزواج أن الابن يتزوج من زوجات أبيه ويعتبر كل واحدة منهن من ضمن الإرث ما لم تكن والدته ومن الدلالات على ذلك هو أن دوقوز خاتون زوجة هوكوخان كانت إحدى زوجات أبيه وتزوجها بعد وفاته(٦٤) ، وتشير المصادر أيضًا إلى استمرار هذه العادة المغولية حتى بعد أن اعتنق جزء منهم الإسلام ، ومن المعروف أن الإسلام يحرم هذه العادة ، إلاّ أن المصادر تشير على أن السلطان غازان (٦٩٣ – ٧٠٣هـ / ١٢٩٣ – ١٣٠٣م) قد هدد بالارتداد عن الإسلام لأنه يحرم زواج نساء الآباء(٦٥) . ولما أسلم قيل له أن دين الإسلام يحرم نكاح نساء الآباء . وقد استضاف نساء أبيه إلى نسائه وكان أحبهن إليه بلغان خاتون وهى أكبر نساء أبيه ، فهم أن يرتد عن الإسلام . فقال له بعض خواصه إن أباك كان كافرًا ، ولم تكن بلغان معه فى نكاح صحيح إنما كان مسافحا بها ، فاعقد أنت عليها فإنها تحل لك ففعل . ولولا ذلك لارتد عن الإسلام . واستحسن ذلك من الذى افتاه به لهذه المصلحة .

ومما يتعلق بالزواج عند المغول هو أن الأخ يمكن أن يتزوج من زوجات أخيه(٦٦) كما يمكن للرجل المغولى أن يتزوج أختين بعد بعضهما البعض(٦٧) ، كما سمح العرف المغولى للمرأة بالزواج بعد وفاة زوجها إلا أن المجتمع كان يقدر المرأة المغولية التى تجعل حياتها وقفًا على تربية أبنائها بعد وفاة زوجها فبعد وفاة تولى خان سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م قامت زوجته سيورقوقيتى بتربية أبنائها ورعاية مصالحهم حتى أن المغول شبهوها بأم جنكيزخان بل وفضلها البعض لأنها رفضت الزواج بعد (تولى) وقالت : " كيف يمكن مخالفة ما يقضى به مرسوم القاآن ، بيد أننى أفكر أن أتفرغ لتربية أولادى حتى أوصلهم إلى حد الرجولة والاستقلال وأسعى فى تهذيبهم حتى لا يفارق بعضهم بعضًا ، ولاينفُر أحدهم من الآخر ، فلربما ترتب على اتفاقهم عمل كبير(٦٨) . ويستشف من هذه الرواية أن المرأة المغولية قد ملكت فى بعض الحالات قرار الزواج لأنها كانت قادرة على الرفض أو القبول .

وفى نفس السياق نجد أن بعض النساء المغوليات كُن برفضن الزواج للمرة الثانية بناء على معتقد مفاده أن الزوجة بعد وفاة زوجها لا يجوز لها أن ترتبط بغيره لأنها ستعود إلى زوجها الأول(٦٩) .

والعرف المغولى منح المرأة المتزوجة حق إرث زوجها وأعطاها إمكانية أن تهب هذا الإرث حتى ولو كان الحاكم نفسه(٧٠) ، وعلى أن هذا الأمر كان خاصًا بالنساء المحظيات عند الحكام وقد سبق أن أشير إلى ذلك خلال الحديث عن الدور السياسى والعسكرى للمرأة المغولية .

وسبق أن أشرنا إلى أن المرأة المغولية يمكنها أن ترفض الزواج بعد وفاة زوجها الأول ، وأشرنا إلى أن الخطيب يقيم عند خطيبته إلى حين الزواج وعلى هذا الزوج المنتظر أن يقدم المهر المتفق عليه للعروس أو أن يدفعه إلى أمها وهذا ما كان متبعًا لدى مغول أسرة يوآن(٧١) فى الصين(٧٢).

وقبل أن ننهى الحديث عن دور المرأة فى الزواج لابد من الإشارة على أن الرجال فى الدولة المغولية لم يكونوا مقيدين بالزواج من المغوليات فى حين أن الأمر بالنسبة للإناث كان مقصورًا على الزواج الداخلى أى لا يجوز للفتاه المغولية أن تتزوج رجلاً ليس من العنصر المغولى . إلا أن هذا الأمر بدأ يتغير تدريجيًا بعد أن قامت للمغول دولة مترامية الأطراف وكانت هذه الدولة المغولية بحاجة إلى توثيق صلاتها بدول أخرى فوجد ما يمكن أن نسميه بالزواج السياسى فى اتجاهين ، الأول زواج الحكام المغول من نساء غير مغوليات وهذا كان قديمًا . أما الاتجاه الآخر والجديد وهو السماح لنساء مغوليات ومن الأسر المغولية الحاكمة بالزواج من غير المغول، وتشير المصادر إلى حالة زواج السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون (ت٧٤١هـ /١٣٤٠م) عندما تزوج من أميرة مغولية (من مغول القبجاق)(٧٣) فى عهدالسطان أزبك (٧٤) وكان ذلك فى سنة ٧١٥هـ / ١٣١٥م . ورغم أن هذا الزواج قصد منه توثيق العلاقات بين دولتى المماليك فى مصر ودولة مغول القبجاق للوقوف معاً ضد مغول إيلخانية فارس(٧٥) إلا أن هذا الأمر لم يلاق قبولا عامًا عند المغول ، حيث قال الأمراء المغول تعليقًا على ذلك الأمر : " هذا الأمر لم يقع مثله فيما تقدم منذ ظهور جنكيزخان إلى هذا الوقت "(٧٦) ومما يلاحظ من متابعة سيرة هذه المغولية بعد أن عاشت فى المجتمع المملوكى أنها تأثرت به بدليل أن المصادر تشير إلى أنها ومنذ طلاقها من الناصر محمد سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٨م وإلى حين وفاتها سنة ٧٤١هـ / ١٣٤٠م قد تزوجت بثلاثة أزواج آخرين(٧٧) . ورغم ما أشير إليه من موقف أمراء المغول فى دولة القبجاق من زواج هذه الأميرة إلا أننا نجد أن الأمر يتكرر مجددًا عندما أقدم السلطان أزبك على تزويج أخته لأحد أمراء الروس(٧٨) .

وبعد فإن الحديث السابق فى جوانبه السياسية والعسكرية يفهم منه أن هذه الأدوار كانت واضحة المعالم للمراة المغولية التى كانت قريبة من صنع القرار السياسي والعسكرى المغولى كأن تكون والدة للحاكم أو زوجة له أو ابنة ، وفى هذا المجال أمكن تتبع هذا الدور محددًا بالسنة والاسم ، إلا أن دور المرأة المغولية وجوانب حياتها كانت أشمل ، علاوة على أن هناك إشارات لقضايا خاصة بالمراة لا تدل على سمو مكانتها بل تشير إلى كونها ضحية لمعتقدات وعادات تأصلت فى المجتمع المغولى ، فالمرأة يمكن أن يضحى بها فى سبيل الحاكم . فها هو جنكيز خان فى حالة مرضه الذى أدى إلى وفاته حيث كانت تقوم على خدمته أربعون فتاة من نسل الأمراء ، وما أن توفى حتى كان مصيرهن المحتوم حيث ألبسن الثياب الفاخرة وأركبن الخيول وتمم إرسالهن لروحه ، أى أنه تم قتلهن(٧٩) . وما يثير الإنتباه فى هذه الرواية الإشارة إلى النساء من نسل الأمراء ، وهنا لابد من الإشارة إلى الفارق عند المغول بين نوعين من الأمراء ، وهم الأمراء الأنجال ، والأمراء بشكل عام فمصطلح الأمراء الأنجال الخاص بالأمراء الذين يعتبرون من نسل الحاكم أو الأسرة الحاكمة ، والأمراء الآخرون هم إما من فئات غير مغولية حازوا على رتبة الإمارة دون أن يكونوا من أصول مغولية ، وعليه فإن اللواتى يضحى بهن فى سبيل الحاكم هن فى أصولهن من غير الأسرة الحاكمة ، يؤكد ذلك أن الحديث عن المرأة المغولية لابد أن يكون عن مستويات متفاوتة فى الحقوق والواجبات والتأثير بحسب القرب أو البعد من الحاكم ، أو كون المرأة من عليه القوم أن تنتسب إليهم أو أنها من عامة الشعب . وعلى هذا فإن مكانة المرأة متأثرة بذلك فى جميع جوانب الحياة ، فحين نرى المرأة المغولية من الطبقة الحاكمة. وينعكس ذلك على الأعمال

التى تقوم بها المرأة ، كما ينعكس على لباسها ووسائل زينتها ودورها فى الحياة الأسرية ، وإذا أردنا أن نشير إلى ذلك دونما تفصيل – لصعوبة هذه المسألة – أمكننا استنادًا إلى شذرات متفرقة فى المصادر المغولية من القول بأن المرأة المغولية رغم كل المحددات التى أشير إليها تمتعت بقسط كبير من الحرية فيما يتعلق بالملكية الخاصة وحق التقاضى أمام المحاكم علاوة على كونها سيدة البيت المكلفة بتربية الأطفال ومساواتها مع الرجل فى العقوبات أو بعضها الخاص مثلاً كعقوبة الزنا حيث القتل نصيب الزانى ذكرًا أو أنثى(٨١) . كما أن المرأة وإن كانت أعمال البيت من اختصاصها بالدرجة الأولى إلا أن الرجل المغولى شاركها جوانب من أعمال البيت تخصص بها ، فهى تقوم بمعظم الأعمال المنزلية المعتادة ومسؤولة عن نظافة البيت وإعداد الطعام وتهيئة المنسوجات الخاصة بالبيت بل ومنها ما هو خاص حتى بالخيول والعربات ، ويشاركها الرجل فى أعمال البيت الخاصة كالقيام بعملية حلب وعمل شراب القمز(٨٢) . ويشارك الرجل المرأة بالذهاب إلى الأسواق وبيع منتجات معينة أو مبادلتها بسلع أخرى(٨٣) .

أما فيما يتعلق بلباس المرأة فهو بلا شك أمر متطور ومتغير ومتباين فهو للمرأة المغولية حين كانت تعيش فى مجتمع بدوى مختلف عما كان عليه الحال حين أصبح المجتمع المغولى فى قطاعات هامة منه مجتمعًا مستقرًا متمدنًا ، وهو متغير بحسب تغير الأوضاع الاقتصادية للمجتمع المغولى ومتباين بين نساء المغول وفقًا لكل واحدة منهن وحالتها الاجتماعية . وبالإجمال فالإشارات تدلل على الشبه الكبير بين ملابس الذكور والإناث ، فيقول شبولر : " إن ملابس الفتيات تشبه ملابس الرجال ولكنها أكثر طولاً ومما هو جدير بالذكر أن ملابس الفتيات قبل الزواج تختلف عنها طولاً

وشكلاً بعد الزواج "(٨٤) . ويفصل هذا الجانب صاحب كتاب تاريخ اجتماعى إيران بالحديث عن الملابس وفقًا للفصول السنوية ، وكذلك بالنسبة لملابس المرأة فى حالة تواجدها فى المنزل وبين الملابس فى حال الخروج من البيت لأغراض متعددة ، فاللباس ثوب أبيض وقد يغطى بعباءة ملونة حين الخروج وكانت معظم الملابس زاهية الألوان ومزركشة للمرأة فى المنزل(٨٥) . وملابس الرجال والنساء تجدها متشابهة فى القرنين ١٣ ، ١٤ وخاصة فيما يتعلق بالأكمام(٨٦) ، وإن كان القول بأن اللباس للمرأة المغولية كان بسيطًا لا يتعدى عن كونه سروالاً وجلبابًا وغطاء للرأس إلا أن هذا الأمر كما أشرنا كان خاضعًا للتطور والتباين ، وهناك إشارات للمرأة المغولية فى دولة إيلخانية فارس تدل على مدى تأنقها واهتمامها باختيار أغلى الأقمشة وأفخرها لوجود مصانع خصاة للبس الخواتين وزيادة فى تأنق المرأة المغولية بوسائل الزينة كانت هناك أسواق وصناعات خاصة تفتح وتزدهر بناء على رغبة الخواتين أو للتلبية حاجياتهن ، ومما يلفت الانتباه أن المرأة المغولية فى الغالب الأعم لم تكن محجبة وإن كانت تميل فى بعض الفترات إلى استخدام نقاب من شعر الخيل يتدلى على عينها ليجعل أمر معرفتها صعبًا خاصة حين خروجها إلى الأسواق(٨٧) كما أنها كانت تلبس لباسًا يغطى جميع أجزاء الجسم مع ملاءة تغطى حتى أسفل القدم(٨٨) .

وبعد هذا الاستعراض الموجز للمرأة فى المجتمع المغولى لابد من الإشارة إلى اظن ذلك الأمر وإن كان يصدق فى عموميته على أوضاع المرأة إلا انه بطبيعة الحال مختلف ومتباين بحسب الطبقة الاجتماعية التى تنتمى إليها المرأة وفق تقسيم المجتمع المغولى إلى طبقات سواء أكان ذلك فى دولة المغول فى الصين أو عند مغول القبيلة الذهبية أو إيلخانية فارس وهذه

الطبقات متشابهة فى مراكز حكم الدول المغولية وهى تشمل طبقة المغول أنفسهم كطبقة قيادة وسيادة وهناك كان دور المرأة وحياتها الاجتماعية هو الأكثر والأبقى ، وهناك طبقة ما أطلق عليها أصحاب الأوضاع الخاصة والتى تضم فئات مختلفة عرقيًا ودينيًا وخاصة جماعات وسط وغرب آسيا والجماعات التى خضعت للمغول طوعًا ، وكان أفراد هذه الطبقة ما يمكن أن نطلق عليهم الطبقة الوسطى أو كما يسميها المصطلح الصينى Sen - Mu - Yen وطبقة ثالثة أقل ثراء وتأثيرًا وهى طبقة Han- Yen (الهان – ين) .

وفى دولة المغول الكوريين والصينيين والمانشوريين وطبقة أهل الجنوب Nan - Yen ومنها فى الصين أو فى غيرها من المناطق ما يمكن أن نطلق عليه طبقة الزراع أو الفلاحين وهنا يكون دور الرجل والمرأة هو خدمة الطبقات الأخرى ، بل ويمكن أن يطبق عليه نظام عمل السخرة السنوى فى جميع مجالات الحياة الخاصة بالطبقات الأولى (٨٩) .

وفى نهاية البحث لابد من الإشارة إلى أن هذا الجانب الذى حاول البحث الإشارة إليه سيبقى بحاجة إلى مزيد من القراءة والإطلاع ليعطى نتائج أكثر تفصيلاً وأهمية ولكن هذا الأمر مرهون إلى حد كبير بدراسات متعمقة فى المصادر المغولية ولكن هذا لا يتحقق بمجهودات فردية . وهذا ما سبق أن أشرنا إليه فى بحوث سابقة حول تاريخ المغول حيث نجدد الدعوى لتضافر جهود الباحثين لإعادة تقييم تاريخ المغول بناء على مصادرهم الأصلية أو ما كتب عنهم فى الثقافات المختلفة ، وحسب هذا البحث أنه خطوة متواضعة فى هذا الاتجاه .

الهوامش

(١) القوريلتاى : مجلس عام للقبيلة يتولى إدارة شؤونها ، ويسميه بروكلمان مجلس الطبقة الأرستقراطية ويسيمه بطرس البستانى " جمعية الأمة " استمر هذا المجلس فاعلاً فى جميع مراحل تطور التاريخ المغولى ، وخاصة بعد قيام جنكيز خان بتوحيد قبائل المغولية وتأسيس دولة موحدة بعد عام ١٢٠٢م .

انظر : بروكلمان - كارل : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة د. نبيه أمين وآخرين ، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٤٩ ، جـ٢ ص٢٦٣ البستانى ، بطرس : دائرة المعارف ، دار المعرفة - بيروت (د . ت) جـ٦ ، ص٥٥٢ .

(٢) الهمذانى ، رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، ترجمة صادق نشأت وآخرين ، القاهرة١٩٦٠ ، م٢ ، جـ١ ، ص٢٤١ .

(٣) ايلخانية فارس : حكمت هذه الدولة ما بين ٦٥٦ ، ٧٣٦هـ/١٢٥٨م وشملت الرقعة الجغرافية بين نهر جيجون والمحيط الهندى ومن السند إلى الفرات مع جزء من الأناضول وبعض مناطق القرقاز وكانت نهايتها بوفاة آخر سلاطينها أبى سعيد بهادر خان ٧٣٦هـ (هذه الفترة تمثل فترة القوة . ولكن أعقب ذلك فترة ضعف استمرت حتى سنة ٧٥٦هـ - ١٣٥٦م .

القلقشندى ، أبو العباس أحمد : صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩٦٣ ، جـ٤ ، ص٤٢١ .

أبو مغلى ، محمد وصفى : إيران دراسة عامة ، جامعة البصرة ، مركز دراسات الخليج العربى ، ١٩٨٥ ، ص٢٣ .

الصياد ، فؤاد : الشرق الإسلامى فى عهد الايلخانيين ، أسرة هولاكاخان ، مركز الوثائق والدراسات الإنسانية ، الدوحة - قطر ، ١٩٨٧ ، ص٥٢٤ .

Spuler,Bertold: Die mongolen. in Iran:

Handbuch der orientalistik, Bd; 6, J; Brill, Leiden, Koln, 1953 pp. 29-48

(٤) دولة مغول القفجاق – أو دولة مغول القبيلة الذهبية .

وقد حكمت هذه الدولة ما بين (٦٢١هـ/ ١٢٢٤م إلى ٩٠٧هـ/١٥٠٢م) وكان آخر حكامها هو شيخ أحمد مرتضى سيد أحمد الذى خضع لروسيا فى سنة ٩٠٧هـ/١٥٠٢م .

انظر : خليل أدهم الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، نقله عن التركية الدكتور/ أحمد السعيد سليمان ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٢.

Weiers, Michael : Die Goldene Horde:

oder das khanat Qyptechaq, in:

Michael weiers (Hrsg), Die mongolen, Darmstadt, 1986

شبولر ، برتولد : العالم الإسلامى فى العصر المغولى ، ترجمة : خالد أسعد عيسى ، مراجعة د. سهيل زكار ، دار حسان ، دمشق ١٩٨٢ ، ص٩١-١٠٤.

(٥) شبولر ، برتولد ، مرجع سابق ، ص٢٢ -٢٤ .

(٦) المقصود هنا بالأمراء المغول أى الأمراء الأنجال الذين يعود نسبهم إلى الأسر المغولية الحاكمة ، إذ أن هناك فرقًا بين أمراء عاديين وقد يكونون من غير المغول ويخدمون المغول وبين الأمراء الأنجال الذين يحق لهم تسلم السلطة .

انظر : الهمذانى ، رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، تاريخ خلفاء جنكيزخان من أوكتاى قاآن إلى تيمور قاآن، ترجمة د. فؤاد الصياد ، مراجعة وتقديم د. يحيى خطاب الخشاب ، دار النهضة العربية – بيروت ، ط١ ، ١٩٨٣ ، ص٢٠٠.

(٧) كيوك خان وهو كيوك بن أوكتاى بن جنكيز خان وقد خكم فى الفتلرة ما بين ٦٤٤ – ٧٤٧هـ / ١٢٤٦ – ١٢٥١م .

(٨) الهمذانى ، جامع التواريخ ، ترجمة الصياد ، ص١٢٢ .

بارتولد . تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى ، نقله عن الروسية ، صلاح الدين عثمان هاشم ، الكويت ، ص ٦٨١ . الصياد ، المغولى فى التاريخ ، ص ١٩٥ – ١٩٨ .

(٩) بارتولد : المرجع السابق ، ص ٦٨١ .

(١٠) بارتولد ، فلاديميرفيتش تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ترجمة ، د . أحمد السعيد سليمان ، مراجعة إبراهيم صبرى ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٨ ص ١٨٦ .

(١١) الهمذانى : جامع التواريخ ، ترجمة الصياد ، ص١٥٦ .

(١٢) الصياد فؤاد المعطى : المغول فى التاريخ : القاهرة ، مكتة الشريف وسعيد رأفت ، ١٩٧٥ ، ص ١٩٥ . الهمذانى : جامع التواريخ ، ترجمة الصياد ، ١٧٦.

(١٣) الخالدى ، إسماعيل : العالم الإسلامى والغزو المغولى ، إشرف د . أحمد محمد العسال ، ود . عبد الستار فتح الله سعد ـ مكتبة الفلاح الكويت ، ط١٩٨٤ ص١٧٩ .

hambly , cavin : fisher weltgeschichte , bd 16 zentral asien , p. 177

بيانى ، شيرين : نقدير تاريخ سرى مغولان ، نشر تحت عنوان هشت مقالة در زمنية تاريخ جابخانة حيدرى ، مرداد ، تهران ١٣٥٢ه . ش، ص ٢٩٣.

الهمذانى : جامع التواريخ ، ترجمة الصياد ، ص ١٩٦ .

(١٤) الهمذانى : جامع التواريخ ، ترجمة الصياد ، ص ٢٠٠.

(١٥) الهمذانى : المرجع السابق ، ٣١٣ .

(١٦) الصياد : المغول فى التاريخ ، مرجع سابق ، ص ٢٢٣ .

(17) krawulsky, Dorothea: mongolen and likhane ideologieund geschichte, verlage fur islamische studien , beirut , 1989 , p69. temir , ahmet : mogallarin cizli tar'hi , Turk , tarin , kuruma basimevi ankara, 1986, pp. 174-181-184.

رنيسمان ، ستفين : تاريخ الحروب الصليبية ، بيروت ١٩٦٩ ، جـ٣ ، ص ٤٣٧-٤٨٨.

(١٨) ابن بطوطه ، أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللواتى الطنجى ، تحفة النظار فى غرائب الأمطار وعجائب الأسفار ، دار الكتاب اللبنانى ، القاهرة ١٨٧٠، ص ١٦٧ ، ٢٠١ - ٢٠٣ . زيترستين ، كارل ، ف : تاريخ سلاطين المماليك ، ليدن ١٩١٨ ، ص١٦١ .

(١٩) الدوادارى ، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر جـ٩ ، الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ، تحقيق هانس روبرت رويمر ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص٢٢٨.

(20) Weiers , Micheal : die goldene horde oder das khanat qyptschaq , in : michael weiers (hrsg.), die mongolen , darmstadt, 1986 p 358 .

(21) weiers : op. cit, p. 358

(٢٢) النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب : : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة، جـ٣٠ ، ورقة ١٥٠

(23) Howorth, SIR' Henry: History of the mongoles, part.3 london 1888 P. 654.

(٢٤) زامباور – إدوار فون : معجم الأنساب والأسر الحاكمة فى التاريخ الإسلامى . ترجمة زكى محمد وآخرين ، القاهرة ١٩٥٢ ج٢ ص٥٧٨ .

(25) Brown , w.g. Ahistory of perisan literature under tatar cominion cambridge, 1951 , p58.

(26) Howorth , op cit vol 3, p. 613.

(٢٧) ابن الفوطى ، كمال الدين أبو الفضل عبد الرازق ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة . دار الفكر ، تحقيق مصطفى جواد ، بغداد ، ١٩٣٢ ، ص ٣٢٩ .

(٢٨) الهمذانى : جمع التواريخ . ترجمة الصياد ، ص٢٥ .

(٢٩) ابن كثير ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ، البداية والنهاية ، دار الفكر ، بيروت ١٩٨٢ ، ج١٣، ص ١١٨ .

(٣٠) بيانى ، شيرين : جنكيز ومرك نشر تحت عنوان " هشت مقاله در زمنيه تاريخ ، جابخاته حيدرى . مرداد تهران ١٣٥٢ ه . ش ، ص ١٨٣ .

(31) krawulsky : op . cit ., p. 75.

الهمذانى ، جامع التواريخ ، ترجمة صادق نشأت وآخرين، جـ١ ص ٣٩٩ ، ٤٣١

(٣٢) شبولر : العالم الإسلامى فى العصر المغولى ، المرجع السابق ص ٢٨، ٢٢ .

(٣٣) الهمذانى ، جامع التواريخ ، ترجمة الصياد ، ص٢٥ .

(34) howorth : op. cit , vol , 4 . 44 - 62

(٣٥) الياسا : هى مجموعة القوانين والأعراف المغولية التى أمر بمجمعها وتنقيحها جنكيز خان وكتبت بالخط الأويغورى ، وأطلق عليها اسم ياسا وهى كلمه مغولية لها معانى مثل قاعدة ، حكم قانون . وتكتب بأشكال مختلفة ياسا ، ياسه ، يساق، ياساق ، يسق، للمزيد حلو الياسا وما ورد فيها .

انظر : الصياد فؤاد عبد المعطى : مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذانى – دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٦٧ ص ٢٢٨-٢٢٩ .

ابن كثير عماد الدين أبو الفداء إسماعيل : البداية والنهاية ، دار الفكر ، بيروت ١٩٨٢ جـ١٣ ، ص١١٧ .

مؤنس ، حسين : ابن بطوطه ورحلاته . تحقيق ودراسة وتحليل – دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص١٤٩ – ١٥٠ .

(٣٦) العرينى ، السيد الباز : المغول ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٦١

(37) Spuler Bertold : geschichte der mongolen nach ostlichen und europeichen zeugnissen des 13. und 14 jahrhu-ndert, Artemis verlag zurich und stuttgart, 1968 ,p. 99

(٣٨) الهمذانى : جامع التواريخ ، ترجمة الصياد ، ص ١٣٨.

(٣٩) التومان : مصطلح مغولى يعنى الفرقة العسكرية التى يبلغ تعدادها عشرة آلاف عسكرى.

(٤٠) الصياد : المغول فى التاريخ ، المرجع السابق ، ص١٣٢ .

(٤١) ابن الأثير . عز الدين أبو الحسن على بن أبى الكرم الكامل فى التاريخ ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٨٢ ، ج١٢ ص٣٧٨.

ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٣ ص ٩٠ .

(٤٢) ابن عربشاه . أحمد بن محمد : عجائب المقدور فى نوائب تيمور ، تحقيق د. على محمد . القاهرة ط ١٩٧٩ . ٢٤ . ابن الأثير : مصدر سابق ، جـ ١٢ ، ص ٣٧٨ .

(٤٣) شبولر ، برتولد : العالم الإسلامى فى العصر المغولى ، نقله إلى العربية الأستاذ خالد أسعد عيس – راجعه وقدم له د . سهيل زكار ، دار حسان – دمشق ، ١٩٨٢، ٤٧ – ٤٨ .

(٤٤) الدولة الجلائرية : تنسب هذه الدولة إلى قبيلة جلائر المغولية التى شاركت فى حملات هولاكو ، استطاع أفراد هذه الأسرة تكوين دولة لهم بعد نهاية دولة ايلخانية فارس بوفاة أبى سعيد بهادر خان سنة ٧٣٦ ه . استمر حكم هذه الأسرة حتى عام ٨٣٥ هـ ومن حكامها الشيخ حسن الكبير ، والشيخ أويس بن الشيخ حسن وكان القضاء على الدولة على يد قبائل التركمان القراقوينلو .

انظر / أدهم ، خليل : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، نقلة من التركية د . أحمد السعيد سليمان ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٩ ٥٢٢- ٥٢٤ .

أبو مغلى . محمد وصفى : ايران دراسة عامة ، منشورات مركز دراسات الخليج العربى – البصرة ١٩٨٥ ، ص٢٣٠ – ٢٣١ .

(٤٥) ميرخواند. مير محمد بن سعيد برهان الدين خواند شاه : روضه الصفا انتشارات كتاب فروشيها خيام ، تهران . ارد بيهشت ١٣٣٩ هـ ، ش . جـ٢ ، ص ٥٦٢ .

(٤٦) السخاوى ، محمد بن عبد الرحمن : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، بيروت ، (طبعة مصورة) ، دار الحياة ، ج١٢ ، ص ١٦ .

(٤٧) الشامانية : الشامان هو الشخص الذى كان يشتغل بالتطبيب والكهانة والسحر لدى الشعوب البدائية ، والكلمة نفسها تعنى ذلك الذى يعرف " الشامانية " وهى ظاهرة دينية تعتمد على الشامان الذى يملك قوة خارقة لشفاء المرضى والاتصال بالعالم العلوى وانتشرت فى آسيا وبخاصة عند المغول وبلاد الصين " .

الديار بكرى ، حسين محمد تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس مصدر ١٢٨٣هـ جـ٢ ، ٣٦٠ . بارندر ، جفرى : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ترجمة د . إمام عبد الفتاح ، مراجعة عبد الغفار مكاوى ، عالم المعرفة ، عدد ١٧٣ لسنة ١٩٩٣ ، ص ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٤١٨ .

(48) **krawulsky** : op . cit p, 145 .
Temir : op . cit pp. 8-9 .

البستانى : مرجع سابق ، ص ٥٥١ .

(49) Spuler , Bertold : geschichte der mongolen nach ostlichen und europaichen zeugnissen des 13. and 14 jahrhundert, artemis verlag zurich und stuttgart, p. 95

(٥٠) العدوى – ابراهيم أحمد : العرب والتتار ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص٢٦.

(٥١) بردج ، انتونى : تاريخ الحروب الصليبية . نقلها إلى العربية أحمد غسان سبانو . نبيل الجيرودى ، راجعه وقدم له د. سهيل زكار ، دار قتيبه ، دمشق ، ١٩٨٥ ، ص ٢٦٠ .

(52) supler : op cit, p. 151.

الصياد : المغول : مرجع سابق ، ص ٣٢٦ ، ابن الفوطى :

الحوادث الجامعة ، مصدر سابق ص ٣٢٩ . الضياد ، فؤاد : الشرق الإسلامى فى عهد الايلخانين ، أسرة هولاكوخان ، مركز الوثائق والدرسات الإنسانية ، الدوحة – قطر ١٩٨٧ ، ص ٢٦ .

(٥٣) بيانى : شيرين : زن درايران عصر مغول ، تهران ١٣٥٢ هـ ش ، ص٦٣.

الصياد : الشرق الإسلامى . مرجع سابق ، ص١٢١ .

(٥٤) الهمذانى: جامع التواريخ ترجمة صادق نشأت وآخرين، م٢ ، جـ٢، ص ١٤٣.

(٥٥) توماس ، أرنولد / الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم وآخرون ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٦٥ .

(٥٦) المدرسة المرجانية : مدرية فى بغداد موقعها الأن شارع الرشيد تنسب لبانيها أمين الدين مرجان مولى السلطان الجلائرى اويس خان ابن الشيخ حسن ، بُنيت سنة ٧٥٨هـ / ١٣٥٧ م وأجريت عليها ترميمات مختلفة هدمت سنة ١٩٤٥ م ولم يبق منها سوى مدخلها والمئذنة .

الأعظمى ، خالد خليل حمودى : الزخارف الجدارية فى آثار بغداد منشـورات وزارة الثقافة والإعلام – العراق ، ١٩٧١ ، ١٠١ .

(٥٧) الكرملى ، الأب انستاس : الفوز بالمراد فى تاريخ بغداد ، بغداد ١٣٢٩ ص ٢٥ – ٢٩.

الأعظمى : مرجع سابق ، ص ١٠١ .

(٥٨) الصياد : المغول ، مرجع سابق ، ص ٢١١.

(٥٩) خواندمير ، غياث الدين إبراهيم بن همام الدين ، حبيب السير فى أخبار أفراد بشـر ، زير نظر دكتور محمد دبير سياقى ، جلدسوم ، جابخانـه حيدرى، تهران تابستان ، ١٣٦٢ ، هـ ش ، ص ١٧ .

الصياد : المغول ، مرجع سابق ص ٣٥٢.

(٦٠) خواندمير : مصدر سابق ، ج٣ ، ص١٧ .

الصياد : المغول ، مرجع سابق ، ص ٣٥٢ .

(61) kampfe , von hans reiner : ginggis khan , in michael weiers (hrsg.) die mongolen , darmstadt, 1986 , p. 184
supler : geschichte der mongolen nach ostlichen und europaischen zeugnissen des 13 und jahrundert, artemis verlag zurich und stuttgart , 1968 , p. 23

بيانى ، شيرين : جنكيز ومرك ، مرجع سابق ، ص ١٨١ .

(62) Supler : op cit , p. 120 - 122

(٦٣) الهمذانى : جامع التواريخ ، ترجمة الصياد ، ١٣٨

(64) Supler : op . cit . p. 151 .

(65) Watt, w. m. der, islam , Bd 1-2 , stuttgart, 1980, bd., I, p. 146, 149. Temir: op. cit, p. 174-181. (156-254 fk]).

ابن العسقلانى : الدرر الكامنة فى أعيـان المائـة الثامنـة ، ج٣ ص ٢١٣ ، نشـر دار الجيل، بيرت ١٣٥٠هـ .

(66) Supler : op cit ., p. 95

(67) Spuler : ibid ., p. 120

(٦٨) الصياد : المغول ، مرجع سابق ، ص٢٠٦ – ٢٠٧ .

الهمذانى : جامع التواريخ ، ترجمة الصياد ، ص١٧٠

(69)Spuler : op. cit., p. 120

(٧٠) ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد بن خلدون المغربى : العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر .

دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ١٩٨١ ، المجلد الخامس ، القسم ١٠ ، ص١١٩ .

(٧١) أسرة يوآن : حكمت هذه الأسرة المغولية فى الصين منذ ٦٠٣هـ / ١٢٠٦م وحتى ٧٧٠هـ /١٣٦٨م وسميت بهذا الاسم فى عهد الحاكم المغولى قوبيلاى اعتبارًا من عام ١٢٧٢م .

(72) Krawulsky:op cit, p.32, 50.

(٧٣) القبجاق : أو القفجاق وهم من الترك ، مساكنهم الأصلية حول نهر أرتش، واستقروا حول نهر أتل (الفولجا) فى جنوب روسيا ، فعرفت تلك الجهة باسم القبجاق كما عرفت دولة المغول المسماة القبيلة الذهبية القلشندى : صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص٤٥١ – ٤٥٦ .

(٧٤) السلطان أزبك :

هو السلطان الثامن من سلاطين مغول القبيلة الذهبية وحكم خلال الفترة ما بين ٧١٣ – ٧٤٢هـ/١٣١٣ – ١٣٤١م .

(٧٥) ايلخانية فارس : حكمت ما بين ٦٥٦ – ٧٣٦هـ/١٢٥٨ – ١٣٣٦م وبانهيارها قامت على أنقاضها دول مثل الدولة الجلائرية ودولة آل مظفر .

انظر : القلشندى ، أبو العباس أحمد : صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩٦٣ ، جـ٤ ، ص٤٢٠ – ٤٢١ .

أبو مغلى ، محمد وصفى : إيران دراسة عامة / مرجع سابق ص٢٣ .

(٧٦) النويرى : نهاية الأرب : مصدر سابق ، جـ٣٠ ، ورقة ١٥٠ .

(٧٧) زيترستين : تاريخ سلاطين المماليك ، مصدر سابق ، ص٢١٦ .

(78) Weiers: Die Goldene Horse. p. 358.

(٧٩) بياتی ، شیرین جنکیز ومرك ، مرجع سابق ، ص١٩٤ .

الهمذانی : جمع التواريخ – ترجمة الصياد ، ص٣٠ .

(80) Ronge. veroneka : Kirnst und Kunstgewerbe bei den mongolen, in Michael weiers (Hrsg), Die mongolen, Darmstadt, 1986, p. 133

Spuler: Op. cit. p.98

(٨١) شبولر : العالم الإسلامى فى العصر المغولى ، مرجع سابق ص٤٣ .

(٨٢) القمز :شراب مسكر يصنع من لبن الخيل واللفظ تترى الأصل .

النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، جـ٣١ ، تحقيق د. الباز العرينى ، د. عبد العزيز الأهوانى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢ ، ص١٤ القاهرة ٢ .

(٨٣) راوندى ، مرتضى : تاريخ اجتماعى إيران ، جلدسوم ، جاب سوم ، باتجديد نظر وأضافت ، مؤسسة انتشارات أمير كبير تهران ١٣٥٧ هـ ش ، ص٦٩٨ – ٧٠١ .

Spuler : Op. cit: p. 120

مظاهرى ، على : زندكى مسلمانان در قرون وسطى ، ترجمة مرتضى راوندى ، انتشارات فرانكلين تهران ١٩٩٦ ص٨٦ – ٩٥ .

(84) Spuler : Op. cit: p. 118.

(٨٥) راوندى : تاريخ اجتماعى إيران ، مرجع سابق ص٦٩٩ .

مظاهرى : زندكى مسلمانان در قرون وسطى ، مرجع سابق ص ٨٦ – ٩٥.

(٨٦) مظاهرى : المرجع السابق ص٨٦ – ٩٥ .

(٨٧) نفس المرجع ، ص٨٦ – ٩٥ .

راوندى : تاريخ اجتماعى إيران ،مرجع سابق ص٦٩٨ – ٧٠٠ .

القلشندى : مصدر سابق ، جـ٤ ، ص٤٢٥ – ٤٢٦ .

(٨٨) مظاهرى : زندكى مسلمانان در قرون وسطى ، مرجع سابق ص٨٦ – ٩٥.

(89) Trauzettle, Rolf : Die Yuan-Dynastie, in : Michael weiers (Hrsg) Die mongolen, Darmstadt, 1986, p.256-258.

المصادر والمراجع العربية

١ – **ابن الأثير** : عز الدين أبو بالحسن على بن أبى الكرم : الكامل فى التاريخ دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٧٢ .

٢ – **أدهم خليل** : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، نقله عن التركية د. أحمد السعيد سليمان ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٩ .

٣ – **الأعظمى** : خالد خليل محمود حمودى : الزخارف الجدارية فى آثار بغداد ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام – العراق ، بغداد ، ١٩٧١ .

٤ – **بارتولد** : فلاديميروفتش : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ترجمة الدكتور أحمد السعيد ، مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة ، ١٩٥٨ .

٥ – .... تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى ، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم ، الكويت ، ١٩٨١م .

٦ – **بارندر** ، **جفرى** : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ترجمة د. إمام عبد الفتاح . مراجعة عبد الغفار مكاوى ، عالم المعرفة عدد ١٧٣ لسنة ١٩٩٣ ،(تصدر عن المجلس الوطنى للثقافة والفنون والأدب – الكويت).

٧ – **بردج، أنتونى**: تاريخ الحروب الصليبية نقلها إلى العربية أحمد غسان سبانو، نبيل الجيرودى، راجعه وقدم له د. سهيل زكار، دار قتيبة، دمشق ١٩٨٥م.

٨ – **بروكلمان** ، **كارل** : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة د. نبيه أمين وآخرين ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٤٩م .

٩ – **البستانى، بطرس** : دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت (د. ت).

١٠ – **ابن بطوطة** : أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الكتاب اللبنانى – القاهرة .

١١ – بيان ، شيرين ، زن در إيران عصر مغول ، انتشارات دانشگاه تهران ، تهران ، ١٣٥٢هـ .ش .

١٢ – .... : **نقدبر تاريخ سرى مغولان نشر تحت عنوان : هشت مقالـه** در زمنية تاريخ ، جابخاته حيدرى ، مرداد ، تهران ، ١٣٥٢هـ . ش.

١٣ – .... : **جنكيز ومرك** ، نشر تحت عنوان : هشت مقاله در زمينة تاريخ جابخانه حيدرى ، مرداد تهران ١٣٥٢ هـ . ش .

١٤ – **تومـاس ، آرنولـد** : الدعـوة إلـى الإسـلام ، ترجمـة حسـن إبراهيـم وآخرون ، القاهرة ١٩٧٠ .

١٥ – **الخالدى : إسماعيل** : العالم الإسلامى والغزو المغولى ، إشراف د. أحمـد محمد العسال د. عبد الستار فتح الله سعد، مكتبة الفلاح، الكويت ١٩٨٤م.

١٦ – **ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد** : العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السـلطان الأكبر ، دار الكتاب اللبنانى – بيروت ١٩٨١م .

١٧ – **خواندمير** : غياث الدين إبراهيم بن همام الدين الحسينى : حبيب السير فى أخبار أفراد بشر ، زير نظر دكتر محمد دبير سياقى ، جلـد سـوم ، جابخانه حيدرى ، تهران ، زمستان ١٣٦٢هـ . ش.

١٨ – **الدوادارى ، أبو بكر عبد الله بن أيبك** : جكنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء التاسع ، الدر الفـاخر فـى سيرة الملـك النـاصر : تحقيـق هـانس روبرت رويمر ، القاهرة ١٩٦٠م .

١٩ – **الدياربكرى : حسين بن محمد** : تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس القاهرة ، ١٢٨٣م .

٢٠ – **راوندى ، مرتضى** : تاريخ اجتماعى إيران ، جلدسـوم ، جـاب سـوم ، باتجديد نظر وإضافات ، انتشارات أمير كبير ، تهران ١٣٥٧هـ ش .

٢١ – **رنسيمان ، ستيفن** : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة الدكتـور السـيد الباز العرينى ، بيروت ١٩٦٩م .

٢٢ - **زامباور ، إدوارد فون** : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، ترجمة زكى محمد وأخرين ، القاهرة ١٩٥٢م .

٢٣ - **زيترسيتن، كارل، ف (ناشر)**:تاريخ سلاطين المماليك، ليدن ١٩١٨م.

٢٤ - **السخاوى ، محمد بن عبد الله** : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، بيروت طبعة مصورة - دار الحياة .

٢٥ - **شبولر ، برتولد** : العالم الإسلامى فى العصر المغولى ، ترجمة خالد أسعد عيسى ، مراجعة د. سهيل زكار ، دار حسان ، دمشق ١٩٨٢ .

٢٦ - **الصياد ، فؤاد عبد المعطى** : مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذانى ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر القاهرة ، ١٩٧٨م .

٢٧ - .... : المغول فى التاريخ ، مطعبة الشريف وسعيد رأفت القاهرة ١٩٧٥ م .

٢٨ - .... : الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين- أسرة هولاكوخان، منشورات مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، الدوحة- قطر ١٩٧٨م.

٢٩ - **العرينى ، السيد الباز**: المغول ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ١٩٨١م .

٣٠- **ابن عربشاه ، أحمد بن محمد** : عجائب المقدور فى نوائب تيمور ، تحقيق ، د. على محمد ، القاهرة ١٩٧٩م .

٣١ - **العدوى ، إبراهيم أحمد** : العرب والتتار ، القاهرة ١٩٦٣م .

٣٢ - **ابن الفوطى** : كمال الدين أبو الفضل عبد الرازق:الحوادث الجامعة والتجار النافعة فىالمائة السابعة، تحقيق، مصطفى جواد، بغداد ١٩٣٢م.

٣٣ - **القلقشندى ، أبو عباس أحمد** : صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، المطبعة الأميرية القاهرة ١٩٦٣م .

٣٤ - **ابن كثير ، عماد الدين الفداء إسماعيل** : البداية والنهاية ، دار الفكر بيروت ١٩٨٢م .

٣٥ – **الكرملي، الأب انستاس ماري** : الفوز بالمراد في تاريخ بغداد، بغداد ١٣٢٩م.
٣٦ – **مظاهري ، علي** : زندى مسلماتان در قرون وسطى ، ترجمة مرتضى راوندى ، انتشارات فرانكلين ، تهران ١٩٦٦م .
٣٧ – **أبو مغلي** : محمد وصفي ، إيران دراسة عامة ، جامعة البصرة ، مركز دراسات الخليج العربي ، ١٩٨٥م .
٣٨ – **المقريزي** : تقي الدين أحمد بن علي : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ، جـ٢ تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٥٦ – ١٩٥٨م.
٣٩ – **مؤنس ، حسين** : ابن بطوطة ورحلاته ، تحقيق ودراسة وتحليل ، دار المعارف القاهرة ١٩٨٠م .
٤٠ – ميرخواند ، مير محمد بن سعيد بن رهان الدين خواندشاه : رووضة الصفا، انشارات كتاب فروشى خيام، تهران، برهان ماه ٣٣٨ هـ.ش.
٤١ – النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب : نهاية الأرب في فنون الأدب ، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ ، معارف عامة ، جـ٣٠.
(٤٢) .... : نهاية الأرب في فنون الأدب ، جـ٣١ ، تحقيق الباز العريني ، عبد العزيز الأهواني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م.
٤٣ – الهمذاني ، رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، تاريخ المغول الإيلخانيون ، تاريخ هولاكو مع مقدمة الدين ، م٢ ، ج١ ، نقله إلى العربية صادق نشأت ، محمد موسى هنداوي ، فؤاد الضياد ، مراجعة يحيى الخشاب، دار أحياء الكتب العربية – عيسى الباي الحلبي وشركاه ١٩٦٠م.
٤٤– .... : جامع التواريخ ، تاريخ خلفاء جنكيز خان من اوكتاى قا آن إلى تيمور قاآن ، ترجمة فؤاد الصياد مراجعة وتقديم ، د . يحيى الخشاب ، دار – النهضة الغربية ، بيروت ١٩٨٣ .

المصادر والمراجع الأجنبية :

(1) Brown, E, G : A Histoty of Persian .
Litrature under Tartar Dominion, Cambridge, 1951

(2) Hambly, Cavin : Fisher weltgeschichte ,
bd 16 - Zentralasien

(3) Howorth, Sir Henry Of the Mongols ,
London 1888

(4) Kampfe, von Hans Reiner : Ginggis, Khan, in .
Michael weiers (Hrsg), Die Mongolen ,
Darmstadt, 1986.

(5) Grawulsky, Dorthea : Mongolen und iikane Ideologie und geschichte, Verlag fur islamische studien, Beirit, 1989

(6) Ronge, Veronika : Kunst und Kunstgewerbe bei den Mongolen, in Michael weiers (Hrsg), Die Mongolen, Darmstadt , 1086

(7) Spuler, Bertold : Geschichte der Mongolen nach ostichen und Europaischen zeugnissen des 13 und Jahrhundert.
Artemis Verlag Zucrich and Stutt gart , 1986.

(8) Spuler, Bertold : Die Mongolen, in Iran : Handbuch der orientalistik, Bd., 6 , e. J Brill, Leiden, Koln, 1953

(9) Temir, Ahmet : Mongolerin Gizli Tarihi, Turin, Kuruma Basimevi ankara, 1986

(10) Trauzettle, Rolf : Die yuan - Dynastie - in : Michael Weiers (Hrsg), Darmstadt, 1986

(11) Watt, W. M., : Der Islam, Bd; 1-2, Stuttgart, 1980 .

(12) Weiers, Michael : Die Goldene Hord oder das Khanat Qyptschaq, in : Mihcael Weiers
(Hrsg), Die Mongolen, Darmstadt, 1986.

All Correspondence to be directed to :
Editor - in Chief: PROF. Hamid Zayyan
Cairo University, Faculty of Arts,
Orman, Giza, A. R. E

رقم الإيداع : ٨٨/٧١٣٧

الترقيم الدولى ٩ - ٠٢٦ - ٢٣٨ - ٩٧٧

CAIRO UNIVERSITY
FACULTY OF ARTS

THE EGYPTIAN HISTORIAN

STUDIES & RESEARCHES IN HISTORY & CIVILIZATION

A BIANNUAL PUBLICATION OF THE DEPARTMENT OF HISTORY

Volum 18 (July 1997)

Cairo University
Faculty of Arts



THE EGYPTIAN HISTORIAN

STUDIES & RESEARCHES IN HISTORY & CIVILIZATION

A BIANNUAL PUBLICATION OF
THE DEPARTMENT OF HISTORY

Volum 18 (July 1997)

المؤرخ المصري

العدد الثامن عشر　　　　يوليو ١٩٩٧

المراسـلات :

ترسل البحوث والمقالات باسم السيد الأستاذ الدكتور/ **حامد زيان غانم** رئيس التحرير على العنوان التالى :

كلية الآداب – جامعة القاهرة (قسم التاريخ)

بريد الأورمان – محافظة الجيزة

محتوى العــدد